

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

نموذج رقم (أ)



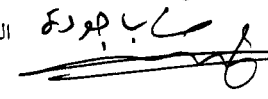
إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات المطلوبة

الاسم الرباعي: محمد بن صالح بن محمد آل طياش
الدرجة العلمية: ماجستير
عنوان الأطروحة: سورة فصلت «دراسة بيانية».

القسم: فرع الأدب.
التخصص: أدب.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه وتمت مناقشتها بتاريخ ١٤٢٢/٦/٢٠ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تمّ عمل اللازم، فإنّ اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه، والله الموفق.

أعضاء اللجنة

المناقش الأول	المناقش الثاني	المشرف
الاسم: أ.د. / مصطفى عبدالواحد	الاسم: د. صالح الزهراني	الاسم: أ.د. / حسن محمد باجودة
التوقيع: 	التوقيع: 	التوقيع: 

رئيس قسم الدراسات العليا العربية



محمد العبد
د. محمد بن عبد الله

دعوات من تصوير رسالة
شرطة الامن العام ونقل

منه

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الأدب

سورة فصلت (دراسة بيانية)



٣٩٩٠

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

١٩٥١

إعداد الطالب

محمد صالح محمد حابش العلياني

الرقم الجامعي: ٨-١٨٢٥٠-٤١٨

إشراف

الأستاذ الدكتور / حسن بن محمد باجوده

١٤٢٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت « دراسة بيانية »

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
ويعد:
فقد جاءت هذه الرسالة في ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتمهيد يعقب ذلك
الخاتمة.

تعرضت في المدخل لمفهوم الإعجاز القرآني عند العلماء ثمّ تعرضت بعد
ذلك لخصائص القسم المكي في القرآن بما في ذلك سور آل «حواميم» ثمّ بينت ما
اختصت به سورة فصلت.

وجاء الفصل الأوّل ليهتم بالدراسة الموضوعية في السورة الكريمة تعرضت
فيه لأغراض السورة الكريمة وبينت ما حققته من خدمة عميقة للهدف العام في
السورة، ثمّ تعرضت في هذا الفصل لدراسة الوحدة الموضوعية في السورة حيث
بينت في هذه الدراسة الغرض الأصلي في السورة، وترابط الأجزاء حول هذا الغرض.

وأما الفصل الثاني: فقد ركز على ما في السورة من جوانب أخرى حيث
درست فيه الصورة القرآنية في سورة فصلت دراسة متكاملة، ثمّ بينت ما في السورة
من بيانٍ عظيم في مطابقة اللفظ للمعنى ثمّ أعقب ذلك دراسات تطبيقية للجانب
اللفظي درست فيه التلاؤم الصوتي في السورة عبر الفاصلة القرآنية وكذلك ما أدته
الكلمات والجمل من ترابط صوتي بديع.

أما الفصل الثالث: فقد تركزت فيه حول الأبواب البلاغية من معانٍ وبديع
وبيان، بينت هذه الأبواب جميعها في السورة الكريمة، وحللت الشواهد الواردة
في كل باب من هذه الأبواب.

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها أبرز النقاط الهامة التي ركز عليها البحث، فقد
تبين من خلال ذلك أنّ السورة من الناحية الموضوعية ركزت على موضوع العقيدة
وتلمس الوحدة الموضوعية فيها في الحديث عن الوحي والاهتمام به، وأنّ الفاصلة
القرآنية من خلال الدراسات التطبيقية لها بين ما تحمله من دور كبير في إثراء جانب
التلاؤم الصوتي في السورة.

وبعد الانتهاء من الدراسة البلاغية للسورة تبين من خلال ذلك ثراء السورة
الكريمة من الناحية البلاغية ثراءً عظيمًا يدل الناظر على عظم ما في كتاب الله تعالى
من بيان وإعجاز والله ولي التوفيق.

عميد الكلية

د/ صالح بدوي

المشرف على البحث

أ.د/ حسن محمد باجودة

الباحث

محمد صالح محمد العلياني

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، بشيرًا ونذيرًا، بلسانٍ عربي مبين. والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. المشرف بخير الكتب وأعظمها شأنًا إلى يوم الدين. وبعد

فكما أنّ القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ الخالدة، فقد ظلّ على امتداد العصور والأزمان ثريًا في معانيه وألفاظه وتراكيبه، يأخذ منه العلماء مابدا لهم من بديع نظمه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. لا تنتهي عجائبه ولا تنقطع أسراره، فهو جبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ونوره المبين، أودع الله فيه من الأسرار ما لا تستوعبه العقول، ولا تستنفده الدراسات، ولا يُبلي جديده كُرّ الليالي والسنين، واختيار أي جزء من القرآن الكريم؛ ليكون موضوعًا للبحث والدرس، لا شكّ بأنّه سيكون أمرًا شديد الصعوبة؛ لأنّ القرآن الكريم كلّهُ على حدّ سواء، في إعجازه وبلاغته وفضله.

ولقد شاء الله تعالى أن يقع اختيار موضوع البحث في سورة من سور القرآن الكريم، وهو بعنوان «سورة فصلت دراسة بيانية» ولقد كان لهذا الاختيار أسباب من أهمّها.

أولاً: أهميته البالغة حيث إنّه بحث في سورة من سور القرآن، الذي هو دستورنا الذي يملأ حياتنا، ويوجّه سلوكنا إلى خيري الدنيا والآخرة.

ثانياً: اختيار النبي ﷺ لهذه السورة الكريمة من بين السور للرد على عتبة بن ربيعة كان له الأثر الأكبر في تحديد الوجهة إلى هذه السورة بالذات ولماتحمل من معانٍ وأغراضٍ، وألفاظٍ جزلة تتناسب مع هذا الموقف.

ثالثاً: غزارة المادّة البلاغية، وتعدد مجالاتها وهي كذلك في كلّ سور القرآن الكريم.

رابعاً: توسط سورة فصلت من ناحية الطول وهذا ممّا يساعد على التجول في كلّ الميادين البيانية في السورة الكريمة.

هذا وأود أن أُشير إلى أنّ مدلول كلمة «البيان» في هذه الدراسة لا يقتصر على المصطلح البلاغي، المعروف عند البلاغيين بعلم البيان، المقتصر على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، بل إنّ هذه الكلمة يراد بها دراسة البيان بالمعنى اللغوي بمعنى الكلام الذي يبين عن المعاني، ومع ذلك نجد أنّ البلاغيين ظلُّوا يطلقون البلاغة والبيان والفصاحة على كلّ فنون البلاغة إلى عهد عبدالقاهر الجرجاني^(١).

وأودُّ أن أُشير أيضاً إلى أن المنهج في هذه الدراسة كان منهجاً وصفيّاً تحليليّاً فنيّاً، كما اقتضته فصول ومباحث الرسالة حيث قامت الدراسة على تحليل آيات السورة الكريمة، وتوضيح خصائص النظم فيها، وتجليّة مافي السورة من جمال فني في الإطار والمضمون، ولقد كنت أحاول في هذا البحث أن أتجنب بعض المصطلحات^(٢)، التي لا تليق بهذه الدراسة القرآنية؛ ولكنّي لم أجد لنفسي مهرباً منها إلّا في القليل التّادر؛ وذلك لأنّي لم أجد البديل المسعف في ذلك، والمغني عنها، فحاولت أن أنقل النصوص التي تذكرها وأحاول في النصّ الذي أذكره أن أتجنبها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وإنّي لأبرأ إلى الله تعالى من كلّ أمرٍ لا يرضيه، فلا يقصد من استخدامي لها في

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، قرأه وعلّق عليه الشيخ محمود محمد شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي)، «فصل في تحقيق القول في «البلاغة» و«الفصاحة» و«البيان» و«البراعة».» ص (٤٣).

(٢) كاستخدام كلمة «الفن، والإيقاع، والموسيقى».

البحث أنّي قد سلّمت بها ورضيت .
وأما المصادر التي استعنت بها في هذه الدراسة فقد كان من أهمّها كتب التفسير على مختلف مناهجها، بالإضافة إلى الكتب البلاغية القديمة والحديثة، وما تطرقت له مواضيع البحث من دراساتٍ متعددة. وقد أشرت إلى هذه المصادر وإلى أصحابها، وطباعتها في الهوامش، كما أثبتتها في آخر هذا البحث .
وقد اقتضت طبيعة هذه الرّسالة أن أجعلها في مدخل وثلاثة فصول وخاتمة .

أما المدخل : فقد ذكر فيه بإيجاز مبحثان اثنان أولهما : كان عن إعجاز القرآن ؛ حيث عرضت فيه هذه القضية بإيجاز عبر أقوال العلماء، وانتهت هذه اللمحة الموجزة إلى بيان إثبات العلماء للإعجاز القرآني، وأنّه معجز في بيانه وبلاغته، ولا يمنع ذلك من وجود وجوه أخرى للإعجاز في القرآن الكريم، ثمّ ذكرت في هذا المبحث خصائص القسم المكي في القرآن بما في ذلك سور الحواميم، والتي تعد سورة فصلت ثاني سورة منها .
وأما الثاني منهما :

فقد تطرق لخصائص سورة فصلت ؛ حيث ذكرت الخصائص العامّة والخاصّة للسورة الكريمة .

أما الفصل الأوّل : (الدراسة الموضوعية للسورة الكريمة)
فقد عنيت الدراسة فيه بالجانب الموضوعي في السورة واشتملت على مبحثين اثنين ؛ الأوّل منهما : كانت الدراسة فيه متجهة إلى الأغراض والمقاصد في السورة، فتمّت العناية هنا بتحديد ودراسة أهم الأغراض والمقاصد في السورة الكريمة . وقد شملت الدراسة هنا الأغراض والمقاصد الآتية :
١- غرض التقرير .

٢- غرض الترهيب .

٣- غرض الترغيب .

٤- غرض الدم .

٥- غرض التسلية للرسول ﷺ .

٦- غرض التذكير بعظمة الله تعالى .

ولقد ذَكَرْتُ في هذا المبحث الآيات الخاصّة بكلّ غرض، وحلّلتها تحليلاً موضوعياً يبين ما في هذه الأغراض من تناسقٍ وتتابعٍ محكم، يركّز على الهدف العام في السورة الكريمة. والذي جاء مراعيًا لتلك الفترة المتقدمة من الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده.

وأما المبحث الثاني: فقد تناولت الدراسة فيه الوحدة الموضوعية الفنية في السورة، حيث تمّ التوصل إلى الغرض الأصلي في السورة. ومن ثمّ بيان ترابط أجزاء السورة حول هذا الغرض، وذكر قبل ذلك مقدّمة مختصرة عن علم المناسبات والوحدة الموضوعية عند القدماء والمحدثين. وبهذا كانت الدراسة في هذا المبحث.

أما الفصل الثاني: (الدراسة الفنية في السورة الكريمة):

فقد عنيت الدراسة فيه بالموضوعات الآتية في ثلاثة مباحث.

أولها: الصورة الفنية في السورة، حيث تناولت فيها بالدراسة تحديد مفهوم الصورة القرآنية، وبيان خصائصها بإيجاز، ومن ثمّ بيان مصادر الصورة في السورة، ثمّ عرضت بعد ذلك لجمالية وفنيّة الصورة في سورة فصلت.

حيث تمّ بيان انقسام الصورة فيها إلى ثلاثة أقسام وهي: الصورة المجازية، والمجردة، والصورة في القصّة.

ولقد بينت في هذا المبحث ميل الصورة إلى الجانب الحسيّ، وهي سمة الصورة القرآنية على العموم، فقد ركّزت الصور المجازية

في السورة الكريمة على تشخيص وتجسيم المعاني، ممّا كان له الأثر الواضح في تفعيل الأثر النفسي عبر حسية المعاني. وأمّا الصورة المجردة التي خلت من المجاز فقد امتازت بالدقة الفائقة في تركيب الألفاظ والكلمات القادرة على التصوير، من خلال جرسها أو ظلالها في درجة لا تقل أثرًا وجمالاً عن الصور المجازية.

وأما التصوير في الأسلوب القصصي فقد ساعد على إبراز مشاهد القصة وتوضيحها في صور تموج بالحركة والحياة. وتناولت أيضًا في دراستي للصورة المفارقة التصويرية باعتبارها وسيلة من الوسائل التصويرية التي خدمت الأغراض والأهداف في السورة الكريمة من ترهيب أو ترغيب.

وأما المبحث الثاني: من هذا الفصل فقد كان عن اللغة والأسلوب في السورة. ذكرتُ هذا المبحث مختصرًا بين مباحث هذا الفصل؛ لبيان مافيه من جوانب لم تُذكر من خلال الفصل الأوّل أو الثالث الذي ذكرت فيه أكثر أساليب السورة الكريمة من خلال التناول البلاغي لآيات السورة الكريمة. حيث بينت في هذا المبحث ملاءمة السورة الكريمة بين الألفاظ والمعاني حيث نجد الألفاظ العذبة الرقيقة في مواطن اللين والترغيب، والألفاظ الشديدة الجزلة في المواطن التي تتطلب تلك الشدة كالترهيب بالعذاب في السورة للمعرضين، وأمّا الأساليب التي لم تذكر في هذا المبحث فقد تقدم الحديث عنها، أو سيأتي كمثال الأسلوب القصصي أو التكرار أو غيرها من الأساليب الأخرى.

وأما المبحث الثالث من هذا الفصل فقد ركّز على الجانب اللفظي في السورة، والتلاؤم الصوتي، فقد تمّ فيه دراسة الفاصلة في السورة الكريمة، وبيان دورها العظيم في التلاؤم الصوتي البديع، بما أوجدته من وحدة صوتية واضحة، وقد سبق ذلك تعريف

للفاصلة، تناول كلَّ التعاريف التي ذكرها العلماء، ومن ثمَّ تمَّ بيان أنَّ أغلب هذه التعاريف تتفق في أن الفاصلة هي آخر كلمة في الآية. ثم تبع ذلك بيان شامل للإيقاع، والتلاؤم الصوتي بين كلمات السورة الكريمة. وأُتبع بجداول توضيحية لكلِّ ذلك، وكل ذلك يُعد محاولة لكشف أسرار التلاؤم الصوتي البديع بين كلمات وفواصل السورة الكريمة عبر التقطيع الصوتي لها، وقد أثرت في دراستي للتقطيع طريقة المستشرقين في تقطيعهم للنثر؛ حيث كانت ملائمة كلِّ الملاءمة لهذه الدراسة.

أما الفصل الثالث: (الدراسة البلاغية للسورة الكريمة) :

فقد شملت الدراسة فيه كلَّ الفنون البلاغية، من بديع ومعان وبيان، ولقد اقتضت الخطة فيه تقسيمه إلى مبحثين اثنين:

المبحث الأوَّل: كان عن (المعاني في السورة).

حيث جاء هذا المبحث ليكشف عن خصائص التراكيب في السورة، وقد تكون من اثني عشر مطلبًا:

تعرضتُ في المطلب الأوَّل منها للأسلوب الخبري في السورة، وخروجه عن الفائدة ولازمها، ودلالة التوكيد فيه.

وفي الثاني: تعرضتُ للأسلوب الإنشائي، وتفرَّع هذا الأسلوب إلى أمرٍ ونهي واستفهام، مع التنبيه على الخروج إلى المعاني المجازية وشواهد كلِّ ذلك من السورة مع التحليل.

وفي الثالث: تعرضت للمجاز العقلي في السورة، وذكرت بعض النماذج البارزة منه في صورته المتعددة.

وفي المطلب الرَّابع: تعرضت لدراسة التعريف في السورة بالضمير، واسم الإشارة، والموصولية، والإضافة، ودلالة كلِّ في سياقه.

وفي المطلب الخامس: ذكرتُ التنكير، وما يوحى به من

دلالات متعددة.

وفي المطلب السادس: ذكرت التقديم في السورة ومافيه من تقديم للمسند والمسند إليه، وتقديم ما ليس برتبة مع ذكر مواضع كلٍّ منها وتحليله.

وفي المطلب السابع: عرضتُ للتقييد بالشرط في أساليبه الواردة في السورة مع التحليل لهذه الأساليب.

وفي المطلب الثامن: تكلمتُ عن الالتفات. وعن صورته التي وردت في السورة الكريمة من انتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب أو التكلم. مع التحليل لتلك المواضع.

وفي المطلب التاسع: تعرضتُ للإيجاز في السورة الكريمة، ومافيه من حذفٍ للحرف أو الكلمة، أو الجمل ومواضعه في السورة الكريمة، مع التحليل لها.

وفي المطلب العاشر: ذكرت الإطناب في السورة، مبيِّناً لأنواعه المتعددة من تفصيل بعد إجمال، أو ذكر للخاص بعد العام، أو التذييل، أو الاعتراض أو الاحتراس.

وفي المطلب الحادي عشر: تعرضت للقصر وطرقه مع ذكر مواقع وروده في السورة الكريمة، وتحليل شواهده.

وفي المطلب الثاني عشر والأخير: تناولت فيه الفصل والوصل ابتدأت في ذلك بذكر الوصل بين الجمل في السورة، سواءً كان الوصل للتشريك في الحكم الإعرابي، أو للتوسط بين الكمالين، ثم ذكرت الفصل بين الجمل بما في ذلك كمال الاتصال، وماتفرّع إليه من توكيد معنوي وبيان وبدل، ومواضعها مع التحليل لها، ثمّ أعقب ذلك حديث عن الفصل لشبه كمال الاتصال، ذاكراً مواضعه من السورة الكريمة، مع التحليل لها. بما في ذلك من ذكر للاستئناف البياني بالجملة التعليلية، ثمّ ذكرت كمال الانقطاع، وبيّنت نوعيه

وهما: اختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنى. أو معنى فقط، أو أن لا يكون بين الجملتين جامعٌ أو مناسبة، بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها، وإن لم تُعدم المناسبة المعنوية المصححة لجمع الجمل في حيِّزٍ واحد. ثمَّ ختمت الحديث في هذا المطلب بذكر نماذج لمحسنات الوصل في السورة الكريمة، وضَّحت مافيه من حسن وجمال. وإلى هنا انتهت الدراسة في هذا المبحث.

وأما المبحث الثاني: من هذا الفصل فقد جاء في موضعين

اثنين:

أولهما: جاءت الدراسة فيه عن البيان في السورة الكريمة، حيث جاءت الدراسة في هذا الموضوع مشتملةً على ست فقرات، أولها التشبيه حيث بينت الدراسة قلة ورود التشبيه في السورة الكريمة، ولقد شمل الحديث التشبيه بمثل وكأن، وماورد في السورة من تشبيهٍ بليغ، مع تحليل الشواهد في كلِّ.

ثمَّ انتقلت الدراسة إلى الفقرة الثانية: حيث تعرضت فيها للاستعارة التصريحية بنوعيتها الأصلية والتبعية، وعرضت للتبعية في الفعل والحرف، ثمَّ ذكرت الاستعارة المكنية والتمثيلية. وفي الفقرة الخامسة: ذكرت الكناية وماوجد في السورة من شواهد بارزة فيها من كناية عن الصفة أو الموصوف، مع تحليل الشواهد التي تمَّ التعرض لها.

وفي الفقرة السادسة: كانت الدراسة عن التعريض، مع ذكر شواهد من السورة، وبينت مايبينه وبين الكناية من مفارقة دقيقة.

وأما المبحث الثاني: من هذا الفصل فقد كان مخصصًا لبيان خصائص البديع في السورة الكريمة، وقد تعرضت الدراسة فيه للنقاط الآتية. حيث جاء هذا المبحث في فقرتين اثنتين.

الأولى: بينت فيها وجوه البديع المعنوي من طباقٍ ومقابلة،

وجمع مع التقسيم والتفريق، وتجريد، واحتباك، أو مذهب كلامي، أو مشاكلة، أو الأسلوب الحكيم.

وفي الفقرة الثانية: كان الحديث عن وجوه البديع اللفظي، من ذكر للفواصل، أو الجناس، أو ردّ العجز على الصدر، أو التوافق بين الابتداء والاختتام مع التطرق لبيان الحسن البديع في ابتداء السورة الكريمة واختتامها. وإلى هنا تمت الدراسة البلاغية للسورة الكريمة، وقد شملت كلّ الفنون البلاغية الثلاثة.

وفي الخاتمة: أوجزت ما فصلته في فصول هذه الدراسة ومباحثها، وذكرت النتائج التي استطاع هذا البحث أن يحققها. وبعد: ...

فقد بذلت كلّ ما استطعت إليه من سبيل في إخراج هذا البحث على هذه الصورة، وأخلصت فيه لله قصدي، ومع ذلك لا أجدني أشعر أو أزعم بأنّ هذا البحث قد بلغ الغاية في بحث كلّ ما في السورة الكريمة، من دقائق وأسرار، فلولا الاقتصار على منهج البحث والاختصار لذهب الوقت دون بلوغ الغاية. ولا يعد هذا البحث إلا محاولة جادة، إن أصابها التوفيق، فبفضل الله وحمده عزّ وجلّ، وإن كانت الأخرى فمن قصوري لا تقصيري، ومن عجزني أمام هذا الإعجاز العظيم، والبيان الرفيع، الذي أشعر معه كلما ازددت منه معرفة بالجهل والضعف، والعجز، وفي الختام: أحمد الله تعالى على أن هيا لي فرصة البحث، وأعانني على إنجازته، وإتمامه.

وأتوجّه بالشكر العظيم إلى كلية اللغة العربية بجامعة أمّ القرى، ممثلةً في عميدها، ورئيس قسم الدراسات العليا فيها، على ما يجده كل باحث من رعاية واهتمام.

ولا أجدني في النهاية قادراً على توفية أستاذي الفاضل بسعادة

٢٨٨٤



الأستاذ الدكتور/ حسن بن محمد باجودة حقّه . على ما بذله من جهد، طوال مدّة هذا البحث، فقد قدّم لي الكثير من التوجيهات النّافعة والصّائبة . فأسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء، وأن يطيل من عمره في خدمة القرآن وبحوثه . وأن يزيدّه صحّةً وعافية، وتوفيقاً ونوراً، إنّه سميعٌ مجيبٌ الدّعاء .

مدخل

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: إعجاز القرآن الكريم

(أ) إعجاز القرآن الكريم وأقوال العلماء فيه

(ب) خصائص القسم المكي في القرآن، وسور الحواميم

المبحث الثاني: خصائص سورة فصلت

(أ) إعجاز القرآن الكريم وأقوال العلماء فيه

من المعلوم أنّ الله تعالى قد أعطى لكلّ نبيّ آية تكون دليلاً على صحة نبوّته ورسالته .

ولقد أُوتي النبي محمد ﷺ القرآن، فهو الآية الكبرى التي تدلّ على صدقه، فيه الهدى والبرهان .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبيّ إلاّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١) .

ولمّا كانت دلالة الإعجاز لا تقوم إلاّ بإثبات امتناع القرآن على الثقلين بحيث لا يستطيعون مجاراته أو معارضته، أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يُعلن لهم التحدي فمن كذّب ولم يصدّق فليأت بعشر سورٍ مثله أو بسورةٍ واحدةٍ من مثله على الأقلّ، وليستنفدوا في ذلك جميع طاقاتهم، وليستعينوا بمن شاءوا .

ولقد جاءت آيات التحدي في كتاب الله تعالى في عدّة مواضع

منها:

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٣﴾ فَاَلَمْ يَسْتَجِيبُوْا لَكُمْ فَاَعْلَمُوْا اَنْتُمْ اَنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَاَنْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَهَلْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴿١٤﴾ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي (٣١٣/٦)، حديث رقم

(٣). وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى

جميع الناس، ونسخ الملل بملته (٤٦٧/١)، حديث رقم (١٥٢).

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٣، ١٤ .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ (١).

فالآيات الكريمة تلاحظ فيها التدرج في التحدي فقد انخفض التحدي من عشر سور إلى سورة واحدة.

ومنها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (٢).

وهذه الآية مدنية من آخر ما نزل، جاءت مؤكدة للتحدي والإعجاز ومبينة صمت الجميع وانهزامهم أمام هذا البيان المعجز، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، فيه إخبار عن المستقبل الذي أكده واقعهم، فلم يستطيعوا فعل شيء يذكر.

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز (٣) في قوله تعالى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾: «كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد، وهذا أقصى ما يمكن من التنزل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً» (٤).

وأمام كل هذا التحدي والإعلان المتهكم بهم، والمنتزل معهم إلى الأخف فالأخف. لا نجد للعرب من كفار قريش المعرضين أدنى معارضة، وهم ممن خصوا بالبلاغة والفصاحة ما لم يخص به غيرهم، فقد تفننوا في القول وتعمقوا في أسرار البيان بما لديهم من

(١) سورة يونس، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) هو أزهرجي، من هيئة كبار العلماء بالأزهر، توفي سنة (١٣٧٧هـ). الأعلام للزركلي (٢٤٦/٦).

(٤) النبا العظيم، محمد عبدالله دراز، الكويت: دار القلم، ص (٨٤)، الحاشية رقم (١).

لغة قادرة، وبديهة خارقة، وموهبة ظاهرة، فقد عقدوا الأندية في الأسواق، ووضعوا المنابر المرفوعة؛ ليعرضوا أنفس البضائع لديهم، وهي بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة فكان هذا أغلب الأمور عليهم، وأحسنها لديهم، وأجلّها في صدورهم، وعندما استحکم هذا الأمر فيهم، وشاعت البلاغة بينهم، بعث الله محمداً ﷺ متحدياً لهم بالقرآن الذي هو من جنس كلامهم، بلسان عربيّ مبين، يدل على نبوة محمد ﷺ، وصدق رسالته، وإثبات حقيقة الإعجاز، الذي يظهر في موقفهم أمام هذا التحدي، فقد وقفوا وقوف العاجز المدهش، الذي يعلم علم اليقين أنّه كلام عظيم، وبيان رفيع، خرج عن حدود مقدرتهم وإبداعهم، فما كان منهم إلاّ أن قدّموا أرواحهم، وأموالهم في مواجهته والتصدي له لمّا رأوا عجزهم بحيث لا طريق لهم إلى معارضته.

يقول الجاحظ: «وبعد، فقد هجوه من كلّ جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادوه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم أثبت الناس حقداً وأبعدهم مطلباً، وأذكرهم لخيرٍ أو شر، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوّة، ثمّ لا يعارضه معارض، ولم يتكلّف ذلك خطيب ولا شاعر، ومحال في التعارف، ومستنكر في التصادق أن يكون الكلام أخصر عندهم، وأيسر مؤونة عليهم، وهو أبلغ في تكذيبه، وأنقض لقوله، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه، فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به، وهم يبذلون مهجهم وأموالهم، ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره، وفي تهوين ما جاء به، ولا يقولون، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم: لم تقتلون أنفسكم، وتستهلكون أموالكم، وتخرجون من دياركم، والحيلة في أمره يسيرة، والمأخذ في أمره قريب؟ ليؤلف

واحد من شعرائكم وخطبائكم كلامًا في نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها»^(١). فهاهم فصحاء العرب، وأرباب البيان قد عجزوا عن المعارضة للقرآن، وثبت في نفوسهم أمره، والعجز: نقيض الحزم، والمعجزة بفتح الجيم وكسرها مفعلة من العَجَز، وهو عدم القدرة، والتعجيز: التثييط، ومعنى الإعجاز الفوت والسبق. يقال: أعجزني فلان أي فاتني، والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام^(٢).

وبعد هذا التعريف الواضح في اللغة للإعجاز، لا يلحظ أنّ العرب قد تحدّثوا في الإعجاز؛ وذلك لأنّ برهانه كان قائمًا في نفوسهم، ومضى الأمر على ذلك حتّى تبدّلت أحوال العرب، ولانت جلودهم، ونجم في مجتمع المسلمين أهل التشكيك، وجأهروا بالزيغ، وكثر القول في القرآن وإعجازه، واندست مقالة أهل الضلالة فيه^(٣).

ثمّ ما لبث الأمر حتّى تعددت الأقوال في وجه الإعجاز، فقيل: هو الإخبار بالغيب، وقيل بل الأمر يرجع إلى لفظه أو معناه، وقيل: بل إلى نظمه. فأتسع القول في ذلك، والذي سيتم عرضه في النقاط الآتية باختصار عبر أقوال العلماء. وهي كالتالي:

أولاً: قول النّظام^(٤) المعتزلي في هذه المرحلة في وجه الإعجاز،

(١) رسائل الجاحظ، (حجج النبوة)، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط(١)، بيروت، دار الجيل، عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، (٣/٢٧٤).

(٢) لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، ط(٣)، بيروت: دار صادر، عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. (٥/٣٦٩)، مادة(عجز).

(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي، د/محمد محمد أبو موسى، ط(١)، مصر: مكتبة وهبة، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص(٢٠).

(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن سيّار النّظام، شيخ الجاحظ، وأحد رؤوس المعتزلة، تنسب إليه الفرقة النظامية، توفي سنة(٢٣١هـ).

حيث يُلاحظ إنكاره للإعجاز من جهة النظم والتأليف للقرآن، ويرى أنه بيان عادي، زاعمًا «أنَّ إعجاز القرآن بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم؛ لكن عاقهم أمرٌ خارجي، فصار كسائر المعجزات»^(١).

وهذا الكلام ساقط باطل، لم يبين على حجة واضحة مستقيمة، وقد تابع النظام في هذه المقولة كلُّ من الرماني الذي جعل الصرفة أحد أوجه الإعجاز - وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله - وابن سنان الخفاجي^(٢) الذي صرَّح بذلك تصريحًا شنيعًا في كتابه، ولم يأت بحجة واضحة في قوله المتهافت^(٣).

ولقد أنكرت الأمة هذا القول ونبذته، ولقد بيّن الزركشي في كتابه «البرهان» نقض القول بالصرفة، نجتزئ منه النقاط الآتية باختصار:-

١- أن هذا القول باطل فاسد، بدليل الآية: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٤)، فالآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو جردوا من القدرة لم يبق لاجتماعهم فائدة؛ لأنه بمنزلة اجتماع الموتى.

٢- القول بالصرفة يستلزم خرق إجماع الأمة على إعجاز القرآن، حيث أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى، ولا معجزة له باقية

(١) الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، عام (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) (٧/٤، ٦/٤).

(٢) هو عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمّد، الشاعر الأديب، توفي سنة (٤٦٦هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها (٢/٢٢٠).

(٣) انظر لقوله في: سرّ الفصاحة، تحقيق علي فوده، ط (٢)، القاهرة: مكتبة الخانجي، عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص (٩٢).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

سوى القرآن، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزاً. ٣- يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز عن القرآن بزوال زمان التحدي، وفي هذا يخلو القرآن عن الإعجاز، ويمنع كون القرآن معجزة للرسول ﷺ إلى قيام الساعة.

٤- لو كانت المعارضة ممكنة - من قبل الكفار - وإنما منع منها الصرفة. لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه^(١).

وبهذا يُعلم مدى فساد القول بالصرفة، وأنه كلام باطل، لم يبق إلا على الزيغ والنظرة الضيقة.

ثانياً: الجاحظ ورأيه في الإعجاز:

يتضح للمتفحص رأي الجاحظ من خلال مؤلفاته المتداولة حتى بعد فقد كتابه (نظم القرآن)، حيث يبدو جلياً في كتبه «حجج النبوة» و«الحيوان» و«البيان» التي يلمس فيها الدفاع الواضح عن بلاغة القرآن، وإثبات الإعجاز فيها، وهو في هذا مخالف تمام المخالفة لشيخه النظام، ومما نقله الإمام عبدالقاهر الجرجاني^(٢) للجاحظ في ذكر إعجاز القرآن الكريم قوله: «ولو أن رجلاً قرأ من خطبائهم، وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها، ومخرجها من لفظها وطابعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تُحدّي بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها»^(٣).

(١) البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، ط(٣)، الناشر: دار الفكر، عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. ٩٤/٢.

(٢) هو عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، من كبار أئمة العربية والبيان، شافعي أشعري. بغية الوعاة (١٠٦/٢).

(٣) دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص(٢٥١).

ثالثاً: الرماني^(١) ونظرية الإعجاز:

يذكر الرماني أنّ إعجاز القرآن يظهر من سبعة أوجه وهي: «ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة»^(٢).

ويلحظ أنّ الرماني يوجه همّه من هذه الجهات كلها إلى البلاغة، وخالصة الأمر أنّ وجوه الإعجاز عنده، هي الإعجاز بالصرفة والبلاغة، والإخبار بالغيب.

ونراه يجعل البلاغة ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا، والقرآن في الطبقة العليا، فهو معجز، وما دونها فهو ممكن كبلاغة الناس^(٣).

وتركيزه على الوجه البلاغي يوضح أنّه الوجه المقدم عنده في إعجاز القرآن.

رابعاً: الخطابي^(٤) ونظرية الإعجاز:

يأتي الخطابي فيناقش فكرة الصرفة وفكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلية، ولا يرتضيها شرحاً لأسرار الإعجاز، ثمّ ينتقل إلى موضوع البلاغة، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على

(١) هو علي بن عيسى بن علي بن عبدالله أبو الحسن الرماني، ويذكر بأبي الحسن الوراق، وبالرماني قالوا لأنه نشأ بالرمان بمدينة واسط، وقال التنوخي: ويعرف بالإخشيدي. معجم الأدباء (٧٤، ٧٣/١٤).

(٢) «النكت في إعجاز القرآن»: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حقّقهما وعلّق عليهما، محمّد خلف الله أحمد، والدكتور: محمد زغلول سلام، ط(٤)، مصر: دار المعارف، ص(٧٥).

(٣) ينظر: النكت في إعجاز القرآن: ص(٧٥ وما بعدها).

(٤) هو أبو سليمان الخطابي - أحمد بن محمّد بن إبراهيم -، كان محدّثاً فقيهاً أديباً شاعراً لغويّاً، معجم الأدباء (٢٦٨/١٠).

التقليد، وتصور كلامهم عن الإقناع، ويعالج هو الموضوع على طريقته، فيذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود، مبيِّناً سبب تفاوت الكلام حيث يقول: إِنَّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة، غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

ثمَّ يخلص إلى أنَّ بلاغة القرآن قد أخذت من كلِّ قسم نصيباً، ومن كل نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط واحد من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن، فضيلة خُصَّ بها القرآن، ثمَّ ينتهي إلى أنَّ القرآن العظيم معجز بالنظم، الذي يقوم على لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، فجاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف^(١).

فالخطابي يرى أنَّ إعجاز القرآن إنّما كان باللفظ والمعنى معاً أي بهذا الأسلوب من النظم، الذي جمع بين أفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، فالصورة البيانية بجميع عناصرها كيان واحد، هو «نظم القرآن»، وهو الذي أعجز العرب عن القيام به، والوقوف إزاءه^(٢).

فهو يركِّز على النظم الذي هو سرُّ الإعجاز وكلامه في النظم هنا تلحظ أصداءه في حديث عبدالقاهر الجرجاني، المتوفى سنة (٤٧١هـ)، في كتابه «دلائل الإعجاز».

(١) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز: ص (٢، ٢٧).
 (٢) الإعجاز في دراسات السابقين، عبدالكريم الخطيب، ط (١)، مصر: دار الفكر، عام ١٩٧٤م، ص (١٨٧).

خامسًا: الباقلاني^(١) ونظرية الإعجاز.

لقد خصَّص الباقلاني الفصل الثالث من كتابه «إعجاز القرآن» في بيان وجه الإعجاز في القرآن وبيَّن أنَّه يتضح من وجوه ثلاثة: أولها: «ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب، وذلك ممَّا لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه».

ثانيها: «أنَّه أتى بجملة ما وقع وحدث، من أمور عظيمة ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلَّا بالعلم والنبوة».

ثالثها: «أنَّه بديع النظم، عجيب التأليف، مُتناهٍ في البلاغة إلى الحدِّ الذي يعلم عجز الخلق عنه»، ويبيِّن الباقلاني أنَّ القول للعلماء هنا، مجمل ويقول: «ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها»^(٢).

ويمضي الباقلاني - رحمه الله - في تفصيل الوجه الخاصَّ بديع النظم الذي تضمَّن الإعجاز على وجوه متعددة كالتالي: الوجه الأوَّل: «ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنَّ نظم القرآن على تصرف وجوهه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»^(٣).

الوجه الثاني: «أنَّه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على

(١) هو محمد بن الطيب محمد بن جعفر بن القسم، القاضي أبو بكر الباقلاني، البصري، صاحب التصانيف في علم الكلام، ذكره القاضي عياض في طبقات الفقهاء المالكية، الوافي بالوفيات (١٧٧/٣).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، قدَّم له محمد شريف سكر، ط (٣)، بيروت: دار إحياء العلوم، عام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص (٦٢-٦٥).

(٣) المصدر السابق: ٦٦.

هذا الطول، وعلى هذا القدر»^(١).
الوجه الثالث: أنّ عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين،
على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، فهو على حدّ
واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه. ولا
انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا.

وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات
الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحدٍ لا
يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام النَّاس عند إعادة ذكر القصة
الواحدة، تفاوتًا عظيمًا، واختلافًا كثيرًا، وأمّا القرآن فيما يعاد فيه
ذكره من القصة الواحدة. غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على
نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنّه ممّا لا يقدر عليه
البشر^(٢).

الرابع: أنّ كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل،
والعلو والنزول، والتقريب والتباعد، وغير ذلك ممّا ينقسم إليه
الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ويمثل
لذلك بوصف كثير من الشعراء بالنقص، عند التنقل من معنى إلى
غيره، والخروج من باب إلى سواه، حيث يقول: «ألا ترى أنّ كثيرًا
من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره،
والخروج من باب إلى سواه، حتّى أنّ أهل الصنعة اتفقوا على تقصير
البحثري مع جودة نظمه، وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى
المديح، وأطبقوا على أنّه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنّما اتفق
له في مواضع معدودة خروج يُرتضى، وتَنقُلُ يستحسن»^(٣).

(١) المصدر السابق: ٦٧.

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٦٨-٧٠)، (بتصرف يسير).

(٣) المصدر السابق: (٧٠).

وأما القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الأحاد، وهذا أمرٌ عجيب، تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف^(١).

الخامس: أنّ نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا^(٢).

السادس: أن الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاقتصار والجمع والتفريق والاستعارة، والتصريح والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن، وكل ذلك ممّا يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة^(٣).

السابع: أنّ المعاني التي يتضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة ممّا يتعدّر على البشر^(٤).

الثامن: وهو أنّ الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف الكلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في

(١) المصدر السابق: (٧٠، ٧١).

(٢) المصدر السابق: (٧١).

(٣) المصدر السابق: (٧٥-٧٦).

(٤) المصدر السابق: (٧٦).

واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصسه برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه^(١).

التاسع: أنّ الحروف التي بني عليها كلام العرب، تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً؛ ليدل بالمذكور على غيره؛ وليعرفوا أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم^(٢).

العاشر: فهو أنّه سهّل سبيله، فهو خارج عن الوحشي^(٣) المستكره، والغريب المستكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوّه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به^(٤).

والخلاصة: أنّ الذي يظهر عند الباقلاني مقدّمًا من أوجه الإعجاز هو البلاغة والنظم.

وبعد هذا الاستعراض لأوجه الإعجاز عند كلّ من الرّماني والخطابي والباقلاني، وهم يمثلون خلاصة ما قيل في الإعجاز حتّى عصرهم، يتبين لنا أنّ أوجه الإعجاز الشائعة، والمعتمدة عند العلماء الراسخين في دراسة الإعجاز القرآني هي:

(١) المصدر السابق: (٧٧).

(٢) المصدر نفسه: (٧٩).

(٣) الكلام الوحشي: الكلام الغريب، وغير المستعمل.

(٤) المصدر السابق: (٨٢).

- ١- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة .
 - ٢- التحدي للكافة .
 - ٣- البلاغة والنظم .
 - ٤- الأخبار الصادقة عن الغيوب .
 - ٥- نقض العادة .
 - ٦- قياسه بكل معجزة .
 - ٧- صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس .
- وقد أهملت الصرفة؛ لأنّ الكلام هنا في وجوه الإعجاز المتعلقة بمحتوى القرآن الكريم^(١) .
- سادساً: عبدالقاهر الجرجاني ونظرية النظم .

لقد جاء عبدالقاهر الجرجاني مهتماً بقضية الإعجاز، فاهتم بكلّ ما كتب في هذه القضية، فرأى أنّ وجه الإعجاز يبدو جلياً في فكرة (النظم) وهذه الفكرة ممتدة جذورها حيث ترجع إلى ما كتبه النحاة والبلاغيون من قبله ولكنها استوت على سوقها بين يديه . حيث كتب كتابه القيم «دلائل الإعجاز» الذي قطع به شوطاً بعيداً في إدراك الإعجاز، فأعطى فكرة النظم صورتها الواضحة، وميّزها تماماً ممّا عساه أن يعلق بها فاستبعد أن تكون الكلمات المفردة في القرآن هي سرّ الإعجاز واستبعد كذلك تركيب الحركات والسكنات في الجمل القرآنية، ولا في المقاطع والفواصل ولا في الاستعارة والمجاز؛ لأنّه لو اعتبر واحداً من ذلك لقصر الإعجاز على بعضه، والقرآن معجز جميعه، يقول: «فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم عن القرآن في شيء ممّا عدّدناه، لم يبق إلا أن يكون في

(١) ينظر: نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، د/ أحمد حيدر محمد عمّار، ط(١).

بيروت: دار الفكر المعاصر، عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص(٨٨).

النظم؛ لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا «النظم» و«الاستعارة» ولا يمكن أن تجعل «الاستعارة» الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها؛ لأن ذلك يؤدي أن يكون الإعجاز في أي معدودة، وإذا امتنع ذلك فيها ثبت أن النظم مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. وإذا تبين أنه في النظم والتأليف، والنظم ليس شيئاً غير توخي معاني النحو، وأحكامه فيما بين الكلم»^(١).

ومن هنا يتضح نضج نظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني - رحمه الله تعالى -.

وإذا ما انتقل الحديث إلى عصر النهضة الحديثة نجد الحديث عن قضية الإعجاز والبحث في وجوها مستمرة عند الدارسين، وسيقتصر الحديث هنا على ثلاثة منهم وهم: مصطفى صادق الرافعي، ومحمد عبدالله دراز، وسيد قطب - رحمهم الله جميعاً -، فلنقف قليلاً الآن عند الرافعي ونظرية الإعجاز عنده.

وأول ما نجده عنده هو شرحه لحقيقة الإعجاز إذ يقول: «أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر من الآثار الإلهية، ويشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأثها مفرغة إفراغاً من ذوب تلك المواد كلها»^(٢).

فكلامه يشمل كل جوانب الإعجاز القرآني، وهو يثبت أن

(١) دلائل الإعجاز: (٣٩١، ٣٩٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق عبدالله المشاوي، ط(١)، مصر: مكتبة الإيمان بالمنصورة، عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص(١٣٤).

القرآن الكريم معجز بدليل عجز العرب عن المعارضة .
ولكنه يرى أنّ الوجه المقدّم في إعجاز القرآن يتمثل في
«نظمه» .

ومظاهر الإعجاز في نظم القرآن عنده ثلاثة، حيث خصص
لكلّ واحد فصلاً، وهي كالتالي :

المظهر الأوّل: في الحروف وأصواتها .

المظهر الثاني: في الكلمات وحروفها .

المظهر الثالث: في الجمل وكلماتها وعند حديثه عن المظهر
الأوّل نجده يركّز على التلاؤم الصوتي في القرآن، ويقول عنه: «إنّه
ممّا لا يتعلّق به أحد، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه،
لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك
لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم
والترقيق، والتفشي والتكرير»^(١) .

وعند كلامه عن الكلمات وحروفها، بيّن أنّ في كلمات القرآن
أصواتاً ثلاثة :

الأوّل: صوت النفس، وهو إيقاع الألفاظ الموسيقي، ونغمها
الفني .

الثاني: صوت العقل، وهو الصوت المعنوي، الذي يتعلّق
بمعاني القرآن ومخاطبتها للفكر والعقل .

الثالث: صوت الحسّ: وهو أبلغ الأصوات شأنًا، وهو اجتماع
إيقاع الألفاظ، وروعة المعاني، أي هو اجتماع صوت النفس،
وصوت العقل معاً^(٢) .

(١) المصدر السابق: ص (١٨٣) .

(٢) انظر: المصدر السابق: (١٨٧-١٨٨) .

ثانيًا: الإعجاز عند الدكتور محمد عبدالله دراز^(١) - رحمه الله -، حيث يوجد له كتاب رائع في الإعجاز أودع فيه مكنون أفكاره، وماهداه الله إليه من التوفيق، وهو كتاب قيمٌ من أجود ما كُتب في العصر الحديث، وقد سمّاه «النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن». ويرى فيه أن إعجاز القرآن من ثلاثة نواحٍ.

الأولى: الإعجاز اللغوي، ويرى أنّه هو أظهر وجوه الإعجاز؛ لأنّه هو الذي وقع به التحدي.

الثانية: الإعجاز العلمي.

الثالثة: الإعجاز الشرعي الاصطلاحي التهذيبي الاجتماعي.

ثمّ نراه يذكر الجمال اللفظي للقرآن، ويُسجّل أهم خصائص أسلوبه، ويذكر منها النقاط التالية:

١- القصد في اللفظ، والوفاء بالمعنى.

٢- خطاب العامّة، وخطاب الخاصّة.

٣- إقناع العقل، وإمتاع الوجدان.

٤- البيان والإجمال^(١).

ولقد تميّز حديثه عن الإعجاز في كتابه هذا بالعرض الأدبي المؤثر بأسلوب رفيع جميل، كأنّه قد استقى من رحيق هذا الإعجاز القرآني روحًا يتحدث بها عن القرآن.

ثالثًا: سيد قطب - رحمه الله - وكتابه التصوير الفني في القرآن.

أمّا سيد قطب - رحمه الله - وإن كان لم يؤلف كتابًا خاصًا بالإعجاز؛ إلّا أنّه قد سجّل في كتابه التصوير وجهًا جديدًا من وجوه الإعجاز البياني القرآني، فلم يتجه إلى مفردات وتراكيب القرآن وحدها وإنّما اتجه إلى التصوير الذي سمّاه «الأداة المفضّلة في

(١) ينظر: النبأ العظيم، (الكويت: دار القلم)، ص: (٧٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٧).

أسلوب القرآن الكريم».

وإلى ذلك يشير؛ حيث يقول: «التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبرّ بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدّدة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانيّ شاخصاً حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية»^(١).

وبيّن أنّ مرحلة إدراك الخصائص العامّة الموجدة للجمال الفنّي القرآنيّ، تكمن في «التصوير الفنّي» في الأسلوب القرآنيّ^(٢). وهو على امتداد كتابه هذا يدلّل على نظرية التصوير الفنّي من القرآن الكريم ويكثر من الأمثلة والتحليل الواضح البيّن. وقد وُفق في ذلك توفيقاً عظيماً.

وهكذا بعد هذا العرض الموجز نجد العلماء يؤكدون على قضية الإعجاز الواضحة الساطعة في الكتاب العظيم. ويؤكدون على أنّ التحدي في القرآن قد كان في نظمه وصحة معناه. نقل الزركشي في البرهان عن ابن عطية قوله: «إنّه الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه - أنّ التحدي إنّما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه»^(٣)، وهذا لا يمنع من وجود وجوه أخرى للإعجاز القرآني، فقد جمع ما لا يحاط به فهو من عند المحيط بكلّ شيء علمًا؛ ولذا يظل إعجاز القرآن مستمرّاً على مدى العصور والأيّام في كلّ زمن يمدّنا بوجه جديد يتبين لنا من خلاله سرّاً من أسراره التي لا تنتهي.

(١) التصوير الفنّي، لسيد قطب، ط(٨)، بيروت: دار الشروق، عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص(٣٦).

(٢) ينظر: المصدر السّابق: (٣٤، ٣٥).

(٣) البرهان للزركشي: (٩٧/٢).

فالقُرآن الكريم سيظل مدى الأيّام نبعًا غنيًا للدارسين في كلِّ
جيل، ممتد الأفق، رحبًا سخيا، يفوت طاقة كل عالم دارس، وهذا
في حدِّ ذاته وجه من أوجه إعجازه.

(ب) خصائص القسم المكي في القرآن، وسور الحواميم

أولاً: سور الحواميم من القسم المكي في القرآن: ومن أشهر الأقوال في المكي والمدني هو أنّ المكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بمكة أم بالمدينة على القول الراجح المشهور^(١).

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول، لكن يُردُّ عليه أنّه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنّه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكُمْ﴾^(٢)، فإنّها نزلت بتبوك، وقوله سبحانه: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾^(٣)، وهذه نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء، ففي هذا التقسيم إخلال بالمقصود منه وهو الضبط والحصر^(٤).

وأما في تعيين السور المكيّة والمدنية فقد نقل السيوطي في الإتيان أقوالاً كثيرة في ذلك، من أوقفها ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه النَّاسخ والمنسوخ، إذ يقول: «المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكيّ باتفاق، ثمَّ نظر في ذلك أبياتاً»^(٥).

فيلحظ أنّه يريد بالسور العشرين المدنية المتفق عليها وهي: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد،

(١) البرهان للزركشي: (١/١٨٧)، الإتيان للسيوطي: (١/٢٣).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

(٤) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، ط (٢)، بيروت: دار الكتاب العربي، عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، (١/١٥٩).

(٥) الإتيان للسيوطي (١/٢٣-٢٤).

والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقون، والطلاق،
والتحريم، والنصر».

وأما السور الاثنتا عشرة المختلف فيها فهي: «الفاتحة،
والرعد، والرحمن، والصف، والتغابن، والمطففين، والقدر، ولم
يكن، وإذا زلزلت، والإخلاص، والمعوذتين».

ويريد بالسور المكيّة باتفاق ما عدا ذلك، وهي اثنتان وثمانون
سورة^(١)، وسور الحواميم منها.

«وأما في ترتيب النزول في السور المكيّة فتأتي الحواميم بعد
سبأ والزمر، وبعد الحواميم الذاريات»^(٢).

وأما ترتيب الحواميم في النزول فهي كالتالي.

حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حم عسق، ثم حم
الزخرف، ثم حم الدخان، ثم حم الجاثية، ثم حم الأحقاف،
بحسب ترتيب المصحف.^(٣)

ثانياً: خصائص المكي

للسور المكية ضوابط وخصائص تتميز بها عن المدنية وهي

كالتالي:

(أ) الضوابط المميزة للمكي وتتمثل في النقاط الآتية:

١- كل سورة فيها لفظ «كلاً» فهي مكيّة، وقد ذُكر هذا اللفظ في
القرآن ثلاثاً وثلاثين مرّة، في خمس عشرة سورة كلّها في النصف
الأخير من القرآن.

٢- كلُّ سورة فيها سجدة فهي مكيّة لا مدنية.

٣- كلُّ سورة فيها حروف التهجي فهي مكيّة، سوى البقرة، وآل

(١) مناهل العرفان للزرقاني: (١/١٦٣).

(٢) البرهان، للزركشي: (١/١٩٣).

(٣) المصدر السابق: (١/١٩٣).

عمران، وفي الرعد خلاف.

٤- كلُّ سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكيّة سوى البقرة.

٥- كلُّ سورة فيها يَأَيُّهَا النَّاسُ وليست فيها يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فهي مكيّة إلاّ سورة الحج^(١).

(ب) الخصائص الموضوعية والبيانية.

تتميز السور المكية بالمواضيع والخصائص البيانية الآتية، وهي

كالتالي:

١- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرّسالة، والبعث والجزاء، وذكر القيامة وأهوالها، والنّار وعذابها، والجنّة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

٢- وضع الأسس العامّة للتشريع، و الفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح طرائق المشركين وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرًا للمشركين، وتسليّةً للرسول ﷺ^(٢).

٤- قصر الآيات والسور وإيجازها، وحرارة تعبيرها، وتجانسها الصوتي البارز مع قوّة الإيقاعات وبخاصّة إذا قورنت بالسور المدنية^(٣).

ومن الطبيعي أن يكون الخطاب الذي يتصدّى لهذه الظروف لا يمكن أن ينطلق بأسلوب المواجهات العقلية أو المنطقية

(١) مناهل العرفان للزرقاني: (١/١٦٢).

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن، خليل مناع القطّان: ص(٦٣).

(٣) علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، د/عدنان محمد زرزور، ط(١)، بيروت، الكتب الإسلامي، عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص(١٤٣).

المجرّدة في الأسلوب، وإثمالاً بد أن ينطلق بأسلوب الجرعات المركزة المتدفّقة التي تحرّك النفوس الجامدة، وتهز القلوب العنيدة، ومتى انطلق الكلام بهذا الأسلوب فإنّ قلبه العام يأتي تلقائيّاً محدود الحجم ومتتابع الإيقاع^(١).

٥- كثرة الفواصل القرآنية، وقصرها، وتجدها بما يتناسب مع الصورة والموقف.

٦- كثرة القسّم والتشبيه والأمثال. إذا ما عورضت بالآيات المدنية^(٢).

٧- تكثيف اللغة التصويرية من أبرز المظاهر البيانية في القسم المكي؛ حيث يتم في هذا الأسلوب تشخيص المعاني المجرّدة، وتقريب البعيدة، وتحقيق أغراض الخطاب اللغوية. المتعددة في أوجز عبارة، وأوفى بيان.

ثالثاً: من خصائص الحواميم:

(أ) الخصائص المشتركة بين هذه السور الكريمة تلخص في النقاط الآتية:

- ١- تشترك في كونها جميعاً من القسم المكي في القرآن، نزلت في المراحل المتقدّمة من الدعوة المحمدية.
- ٢- وتشترك في الابتداء بالحروف المقطّعة «حم»، وقد سميت جميعها سور الـ«حواميم».
- ٣- كلُّ سورة منها استفتحت بالكتاب، أو وصفه مع تفاوت المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظم.^(٣)

(١) يُنظر: مقدّمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د/ سيّد عبدالمقصود جعفر، ط(١)، دار الطباعة والنشر الإسلامية: ١٤١٣هـ، ص(١٠٧).

(٢) علوم القرآن، د/ عدنان محمّد زرزور، ص: (١٤٣، ١٤٤).

(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا، ط(٢)، دار الاعتصام، عام ١٣٩٨هـ، ص(١٣٠).

٤- قضية الرّسالة والقرآن الكريم خاصّة فقد ركزت عليه هذه السور كلّها، وتلمس وحدتها الموضوعية الفنية فيها كما سيأتي بيان هذه الوحدة في سورة فصلت حول هذه القضية بأمر الله تعالى وتوفيقه.

٥- عرض قضية التوحيد وأدلة الربوبية، وبخاصّة خلق السموات والأرض، والاهتمام بتقرير الرّسالة واليوم الآخر عبر العرض المتكرّر المتعدّد.

والحقيقة أنّ هذه السور العظيمة وثيقة العلاقة والصلة في الموضوع المطروق؛ فقد اتحدت في الأغراض وهي متوالية في ترتيب المصحف ومتتالية.

(ب) الاختلاف بين هذه السور في الخصائص:

بما أنّ مواضيع السور السبع حول مضمون واحد، وهو مضمون العقيدة؛ إلّا أنّ لكلّ سورة طريقة في العرض، ودلالة في السياق، وبهذا نجد الخصوصية والطابع المتميّز لكلّ سورة من هذه السور الكريمة. وإذا كان هناك تمثيل على ذلك فهو ما يلحظ بين سورتَي غافر وفُصِّلت المتتاليتين من اختلاف في طريقة العرض والأسلوب، وإنّ اتفقتا في الموضوع، حيث إنّ كثيراً ممّا ورد ذكره في سورة غافر مجملاً، ورد ذكره في سورة فُصِّلت، وهذا ما يتضح من خلال النقاط الآتية:

أولاً: يوجد أنّ الابتداء في السورتين متشابه حيث كان عن المصدر المنزّل وعن التنزيل نفسه؛ ولكنّه أكثر من ذلك في سورة فصلت حيث ذكرت نعوت كثيرة للقرآن.

ثانياً: ذكر الجدال بالباطل في سورة غافر، وفي سورة فصلت انتهى هذا الجدال إلى الإعراض الكامل قلباً وسمعاً واحتجاباً.

ثالثاً: في غافر دعوة الملائكة للمؤمنين، وفي فصلت نزول

الملائكة على المؤمنين بالأمن والبشارة.

رابعًا: في غافر مشاهد قصيرة متفرقة للأخرة، وفي فصلت تفصيل لما أُجْمِلَ متكامل للحشر والحساب.

خامسًا: الاشتراك في الحديث عن عاد وثمود وموسى في السورتين، واختلاف في طريقة العرض.

وأخيرًا يلمس أنّ ما أُجْمِلَ ذكره في غافر فُصِّلَ في سورة فصلت، والميزة الدقيقة في الاختلاف بين السور، إنّما هو في طريقة العرض، والأسلوب، فلكلّ سورة طابعٌ خاصٌّ تتميز به عن غيرها، في الإيقاع والطريقة التي تتناول بها الأغراض والمعاني، فلا تجد هنالك تكرارًا أو طريقةً واحدةً رتيبةً، تبعث السّامة والملل، بل تجد لكلّ سورة روحًا يسري فيها، يميّزها عن كلّ السور.

رابعًا: الحروف المقطّعة في أوائل السور

ورد في كتاب الله تعالى تسعٌ وعشرون سورةً أُفْتُتِحَتْ بحروف

التهجّي، فيها السبع الحواميم، وهي كالتالي:

- ١- سورة البقرة. ٢- سورة آل عمران ٣- سورة الأعراف. ٤- سورة يونس. ٥- سورة هود. ٦- سورة يوسف. ٧- سورة الرعد. ٨- سورة إبراهيم. ٩- سورة الحجر. ١٠- سورة مريم. ١١- سورة طه. ١٢- سورة الشعراء. ١٣- سورة التّمل. ١٤- سورة القصص. ١٥- سورة العنكبوت. ١٦- سورة الروم. ١٧- سورة لقمان. ١٨- سورة السجدة. ١٩- سورة يس. ٢٠- سورة ص. ٢١- سورة غافر. ٢٢- سورة فصلت. ٢٣- سورة الشورى. ٢٤- سورة الزخرف. ٢٥- سورة الدخان. ٢٦- سورة الجاثية. ٢٧- سورة الأحقاف. ٢٨- سورة ق.
- ٢٩- سورة القلم.

هذا وقد انقسم العلماء إلى فريقين في القول عن معاني هذه

الحروف المقطّعة:

أولهما: أنّ هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، ونُقِلَ هذا عن الصحابة والتابعين وأئمة المفسرين سلفاً وخلفاً.

فقد روي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - في روايات ضعيفة، وإلى مثل هذا التفسير مال القرطبي وأبو حيّان والرازي والسيوطي^(١).

أمّا القول الثاني: فيمثّله جمهور العلماء، وهو أنّ لهذه الحروف معاني عدّة. ومن أوجه ما قيل في ذلك أنّها مكّملة للتحدي بالقرآن الكريم، وامتّمة لإعجازه، وهذا الرأي نُسب إلى قطرب والفرّاء وغيرهما^(٢)، ففي هذه الأحرف إشارة إلى أنّ القرآن مؤلف من هذه الأحرف التي تعرفونها، فدونكم إيّاها إن كنتم تستطيعون.

وإلى مثل هذا القول مال ابن كثير، حيث يقول: «قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بُد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظّمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ذكر الأمثلة على ذلك، وقال: وغير ذلك من الآيات على صحة ماذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم»^(٣).

ولقد قام العلماء بدراسة لطبيعة هذه الحروف. من أوجهها

(١) الجامع لأحكام القرآن، لعبدالله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي: (١/١٥٤)، البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبدالموجود وآخرون، ط(١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م: (١/١٥٨)، التفسير الكبير للفخر الرازي، ط(٣)، بيروت: دار إحياء التراث العربي: (٣/٢) الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية: (٣/٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١/١٥٥)، البحر المحيط(١/١٥٧)، تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، عناية محمد عبدالسلام شاهين، ط(١) (بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٥هـ-١٩٩٥م): (١/٣٧، ٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، قدّم له الدكتور يوسف عبدالرحمن المرعشلي، (بيروت: دار المعرفة (١٤١٣هـ-١٩٩٣م) (١/٤٠).

ماكتبه الزمخشري في الكشاف؛ حيث يقول: «واعلم أنّك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر سواءً، وهي الألف واللام والميم والصاد والرّاء والكاف والهاء والياء والعين والطّاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة، على عدد حروف المعجم، ثمّ إذا نظرت في هذه الأربعة عشر، وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك؛ أنّ فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها، الألف واللام والميم والرّاء والعين والطّاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها، الألف والكاف والطّاء والقاف. ومن الرخوة نصفها، اللام والميم والرّاء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون. ومن المطبقة نصفها، الصاد والطّاء، ومن المنفتحة نصفها، الألف واللام والميم والرّاء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون.

ومن المستعلية نصفها، القاف والصاد والطّاء، ومن المنخفضة نصفها، الألف واللام والميم والرّاء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقة نصفها، القاف والطّاء، ثمّ إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقّت في كلّ شيء حكمته»^(١).

وكانت إفادة الزمخشري من الباقلاني كبيرة في هذا المجال^(٢). بل إنه قد نقل كلام الباقلاني كله.

(١) الكشاف للزمخشري (١/٣٩، ٤٠).

(٢) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني: ص (٧٩-٨١).

المبحث الثاني خصائص سورة فصلت

خصائص السورة:

(أ) تلاوة الرسول ﷺ للسورة على عتبة بن ربيعة واختياره لها في الرد عليه، فيه موافقة للموقف المتمنت من قبل المعرضين، وهذا يؤكد لنا ما اختُصَّت به هذه السورة الكريمة من المعاني والأغراض، فقد جاء فيها الإنذار بالعذاب المُهْلِك لهم، وقد جاءت من أولها إلى آخرها على أعظم ما تكون من القوَّة والفخامة والصرامة في الخطاب، وهذا ما يوافق المواقف المعرضة، ولقد كان لاختيار الرسول ﷺ لها في الرد على عتبة بن ربيعة الأثر البالغ في نفسه، فقد روى ابن إسحاق هذه القصة حيث يقول: حَدَّثَنِي يزيد بن زياد مولى ابن هاشم، عن محمد بن كعب، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عتبة بن ربيعة كان سيِّداً حليماً. قال ذات يوم وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالسٌ وحده في المسجد: يامعشر قريش. ألا أقوم إلى هذا فأكلّمه أموراً لعلّه أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء. ويكف عنّا؟ - وذلك حين أسلم حمزة بن عبدالمطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون - فقالوا: بلى ياأبا الوليد، قم فكلّمه، فقام عتبة حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: «يا ابن أخي إنّك منّا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آباءهم فاستمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ قل ياأبا الوليد أسمع، فقال: «يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت من هذا القول مالاً، جمعنا لك

أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنّما تريد شرفاً، شرفناك علينا حتّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتّى نبرئك منه، فإنّه ربما غلب التابع على الرجل حتّى يُداوى منه. ولعلّ هذا الذي يأتي شعر جاش به صدرك فإنكم لعمرى يا ابن عبدالمطلب، تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد، حتّى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع منّي قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾، فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى بيده خلف ظهره معتمداً عليها، يستمع منه، حتّى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثمّ قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض - يحلف بالله - لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أنّي والله قد سمعت قولاً ما سمعت لمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يامعشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي. خلّوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأً. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، كنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم»^(١).

(١) سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار تحقيق، وتعليق محمد حميد الله، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ص (١٨٧، ١٨٨).

هذا ولقد ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير في تفسيره^(١).

(ب) ومن الخصائص:

نعوت القرآن الكريم في السورة:

لقد اختصت سورة فصلت بوصف القرآن الكريم، وبيان عظيم قدره بمالم يوجد في غيرها من أقرانها، فقد جاء وصف القرآن في السورة في عشر صفات أشار إليها الرازي في تفسيره^(٢):
أولها: كونه تنزيلاً، والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور.

«والتنزيل يكون من علوٍ إلى أسفل، والإنزال كذلك، والفرق بينهما أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إلى الإنزال منجماً ومرة بعد أخرى، والإنزال عام»^(٣).

ثانيها: كون هذا التنزيل من الرحمن الرحيم، فهو رحمة للعالمين، فكونه تعالى رحماناً رحيمًا، صفتان دالتان على كمال الرحمة، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة^(٤).

ثالثها: كونه كتاباً، وهذا الاسم مشتق من الجمع؛ لأنه قد جمع فيه علوم الأولين والآخرين^(٥).

رابعها: قوله تعالى «فصلت آياته». وصف لكتاب أي كتاب

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٩٨، ٩٩).

(٢) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ط (٣)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي). (٢٧/٩٤، ٩٥).

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي. (بيروت: الكتب العلمية) (٥/٤٠).

(٤) تفسير الرازي (٢٧/٩٤).

(٥) المصدر السابق: (٢٧/٩٤).

مفصل الآيات، والتفصيل هو التبيين، وفصلت أي بُيِّنَتْ^(١)، وهو مشتقٌ من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني^(٢).

خامسها: قوله (قرآنًا)، والقرآن: الكلام المقروء المتلو، وكونه قرآنًا من صفات كماله، وهو أنه سهل الحفظ، سهل التلاوة^(٣).

سادسها: قوله (عربيًا) ووصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل، والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب، يقول ابن فارس: «لأنَّ لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان»^(٤).

سابعها: قوله تعالى: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، والمعنى إنَّا جعلناه عربيًّا؛ لأجل أنَّنا أنزلناه على قومٍ عربٍ بلغة العرب؛ ليفهموا منه المراد، ويجوز أن يكون قوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، متعلقٌ بقوله «تنزيل» أو بقوله «فصلت» أي تنزيل من الله لأجلهم، أو فصلت آياته لأجلهم، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله، وما بعده، أي قرآنًا عربيًّا كائنًا لقومٍ عرب، لئلا يفرق بين الصلات والصفات^(٥).

ثامنها وتاسعها: قوله: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا»، والبشير: اسم للمبشِّر، وهو المخبر بخبرٍ يسر المخبر، ويقال بشرت فلانًا أبشَّره تبشيرًا؛ وذلك يكون بالخير، ورُبما حمل عليه غيره من الشرِّ، وذلك جنسٌ من التبكيث، فأما إذا أُطلق الكلام إطلاقًا، فالبشارة بالخير، والندارة بغيره^(٦).

(١) البصائر (٤/١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، (١١/٣١٤).

(٣) المصدر السابق (١١/٣١٤).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبدالسلام محمَّد هارون (بيروت: دارالجيل) (٤/٣٠٠).

(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي: (٢٧/٩٤).

(٦) معجم مقاييس اللغة: (١/٢٥١).

والنذير: المخبر بأمرٍ مخوِّف. فهو بشير للمطيعين بالثواب،
ونذيرٌ للمعرضين بالعذاب.

الصفة العاشرة: كونهم معرضين عنه، لا يسمعون ولا يلتفتون
إليه، فهذه هي الصفات العشر التي وصف الله القرآن بها^(١).

وأجد أنّ هذه لا تدخل في نعوت القرآن، وإن كان قد جعلها
الرازي من نعوته، حيث إنهم قد أعرضوا عمّا ذُكر من نعوت
وصفات عن القرآن الكريم، ولقد ذكر في السورة الكريمة حفظ هذا
القرآن، وأنه من لدن حكيمٍ خبيرٍ في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢). وأجد الصفة العاشرة
تتضح في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣). فهو تنزيلٌ من حميد، والحميد هو المحمود حمداً
كثيراً أي مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد،
وإنما يحمّد الكلام إذ يكون دليلاً للخيرات وسائقاً إليها، لا مطعن
في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيراً؛ لأنه يجده مجلبةً
للخير الكثير، ويحمّد قائله لا محالة خلافاً للمشركين، وفي إجراء
هذه الأوصاف والنعوت على القرآن الكريم فيه إيماء إلى حماقة
الذين كفروا به وسفاهة آرائهم إذ فرّطوا فيه^(٣).

(ج) - ومن الخصائص الظاهرة في السورة الكريمة مايلي:

- ١- التركيز على موضوع الوحي والرّسالة حيث ذكر فيها فصلاً بعد
فصل من أوّل السورة إلى آخرها.
- ٢- ذكرت السورة الكريمة عن الخلق الأوّل للكون تفاصيل لم تلاحظ
في غيرها من السور.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: (٢٧/٩٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١١/٣٠٩).

- ٣- الاهتمام بموضوع العقيدة بكلِّ محاوره، وهي تشارك في هذه الخاصة بقية السور المكية في الاهتمام بهذا الموضوع.
- ٤- الاهتمام بذكر جوانب من الصفات الإنسانية السلبية.
- ٥- تكثيف اللغة التصويرية عند عرض المشاهد، وهذا ما يلاحظ في السور المكيَّة بعامة.
- ٦- جزالة الألفاظ وقوتها، وهذا ما يوافق ظروف وطبيعة الدعوة في تلك المرحلة.
- ٧- تفصيل ما أُجْمِل ذكره في سورة غافر.

الفصل الأوّل الدراسة الموضوعية للسورة الكريمة

ويشتمل على الآتي:
المبحث الأوّل: أبرز أغراض السورة الكريمة
المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في السورة

المبحث الأول أبرز أغراض السورة الكريمة ومقاصدها

أولاً: غرض التقرير:

ويقصد منه التقرير للعقيدة بكلِّ محاورها التي جاء القرآن مقرّراً لها، ومحتفلاً بها، وخاصّة في العهد المكيّ، فقد اشتمل هذا الغرض على تقرير الوجدانية، ونفي الشرك.

وتقرير الرّسالة والوحي واليوم الآخر، وكل هذه المحاور الثلاثة هي أسس العقيدة التي يجب أن تقرّر في النفوس؛ لتقتلع جذور الشرك والضلال من نفوس المدعوين إليها.

ولمّا كانت الدعوة إليها دعوة إلى شيءٍ جديدٍ في واقع المدعوين، جوبهت هذه الدعوة بالإعراض والعنف؛ لأنّها جاءت لتغيّر عقيدة ضالّة استقرّت في نفوس القوم، ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فكانت نفوسهم عند سماع دعوة الحقّ نائرة ثائرة، مقاومة لكلّ من يحاول لمز عبادتهم أو الطعن فيها، فكيف إذا كان الأمر يدعو إلى تقويض هذه العبادة أو هدمها؛ لذا كان تركيز السورة على هذا الغرض واضحاً، وعندما نعلم أنّ السورة الكريمة من السور المكيّة المتقدّمة، والتي نزلت في مراحل الدعوة الأولى، فلا غرو أن تهتم بهذا الغرض الذي استأثر بالجزء الأعظم منها، كما استأثر بالجانب الأكبر من القرآن.

«وممّا يزيد الأمر وضوحاً، ويكشف السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة، فهو طبيعة العقيدة، وما تحتاجه من جهد؛ لتمكينها في النفوس؛ ذلك أنّ القرآن في دعوته لا يخاطب نفوساً خالية، ولا يسطّر عقيدته في صفحات بيض، يثبّت فيها ما يريد، بل إنّ كل مخاطب بالدعوة الجديدة هو في الواقع مؤمن بعقيدة تملأ نفسه،

وتستقر في وجدانه؛ ذلك أنّ حاجة الإنسان إلى عقيدة، أيًا كانت قيمتها سامية أو هابطة، يكاد يكون أمرًا فطريًا، بل غريزةً من الغرائز المركوزة في الطبيعة البشرية، والغرائز لا بد أن تحقّق نفسها في واقع تتمثّل فيه»^(١).

فمن هنا نعلم مدى صعوبة الدعوة إلى العقيدة، حيث احتفى بها القرآن كلّ هذا الاحتفاء، وأوّل ما يواجها في السورة الكريمة، منها تقرير محور الألوهية الواحدة في مطلع السورة.

ولقد اتخذ التقرير للألوهية في السورة الكريمة طريقتين اثنتين، أولهما: الطريق المباشر في التقرير.

وثانيهما: الطريق الاستدلالي غير المباشر، ويتضح الطريق الأوّل في مقدمة السورة بعد ذكر مقولة المشركين وعنادهم، وعدم تسليمهم بما جاء به النبي ﷺ من تقرير ودعوة للألوهية. ويظهر قولهم هذا في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءِ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾^(٢)، فالآية تُبيّن أنّ الرسول ﷺ واجه في مكة طغاةً متجبرين، وقفوا بكلّ بجاجة في وجه الدعوة إلى الله.

والآية تصوّر لنا طغيان هؤلاء القوم واستكبارهم عن الإيمان، واستخفافهم بالآيات، والمراد بالأكثثة: جمع كنان وهو الغطاء، وتفسير الأكثثة بالأغطية، هو الذي عليه جمهور المفسّرين^(٣).

(١) أسلوب الدعوة القرآنية، بلاغة ومنهجا، عبدالغني محمد سعد بركة، الطبعة الأولى (مصر: مكتبة وهبة، عام ١٤٠٣/١٩٨٣م) ص (٣٥٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) انظر: جامع البيان عن تأول آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر (دار التربية والتراث - مكة المكرمة) (٢١/٤٣٠)، وتفسير الكشّاف (١٨٠/٤).

وانظر: روح المعاني، للعلامة الألويسي البغدادي (ط ٤، بيروت: دار إحياء التراث =

ومعنى «وقر» أي صمم وثقل يمنع سماع الكلام، والمعنى :
قلوبنا في أغطية لا يصل إليها كلامك، وفي آذاننا صمم لا نسمع
دعوتك، وبيننا وبينك حاجز يحول بيننا وبين الإيمان، فافعل
ماشتت، فإننا ثابتون على ديننا، ندافع عن آلهتنا.

وأمام هذا الجحود والعناد البارز، والاستهزاء من قبل
المشركين، يؤمر النبي ﷺ بالمضي في الدعوة إلى الله، والصدع
بالتوحيد وتقريره في قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١).
فالآية جاءت ردًا على موقف المشركين السابق، وهي من شواهد
التقرير المباشر للألوهية؛ لأنَّ فيها إعلانًا وأمرًا بالصدع بها،
والدعوة إليها، وبيانًا لشخصية الرسول ﷺ، فما هو إلا بشرٌ مثلهم
يتلقى الوحي من الله، ويبلغ النَّاس ما يوحى إليه ربُّه من الرحمة
والسعادة لهم، فهو رسول الله من البشر، وليس باله ولا شريك ولا
مَلَكٍ حُصَّ بالرسالة والوحي.

وكون الرسول من البشر هو الأولى والأحكم، حتى يتلقوا
الرَّسالة عن وعي وإدراك، فلا تنافي بين البشرية والرَّسالة.
فالآية الكريمة كما مرَّ، فيها صدعٌ بالتوحيد والرَّسالة (٢)، وأمر
بالاستقامة والاستغفار من الشرك. ومعنى استقيموا إليه: أي استتوا
إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة (٣)، وضمن استقيموا إليه معنى

= العربي، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م (٩٦/٢٤).

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية
الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد(بيروت: دار الكتب العلمية، عام
١٤١٣هـ/١٩٩٣م) (٤/٥).

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/١٨١).

التوجه؛ فلذلك تعدي «بإلى»، أي وجهوا استقامتكم إليه^(١).
 واستغفروه ممّا كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل^(٢)،
 والاستغفار طلب المغفرة قولاً وفعلاً^(٣)، والتقرير في الآية يتضمن
 مبدأين يتعلقان بأصل التوحيد، الأوّل: يُقرّر بأنّ الله واحدٌ في ذاته،
 والثاني: يقرّر أنّ العبادة تصرف لله وحده دون غيره، خاصّةً به.
 وقد استخدمت الآية في معنى التقرير أسلوب القصر بـ«إنّما»
 والقصر فيه توكيد، وتقرير الألوهية الواحدة هنا منكر من قبل
 المشركين؛ ولكنّه لم يُعبأ بإنكارهم؛ لوجود الأدلّة والبراهين
 الواضحة على ذلك، وسيأتي بيان هذا الأسلوب الرفيع في الدراسة
 البلاغية مفصلاً بإذن الله تعالى، هذا والآية كما مرّ شاهدٌ على طريقة
 التقرير المباشر.

ومن التقرير المباشر للألوهية الواحدة النهي عن عبادة غير الله؛
 وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
 الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٤)، فالآية الكريمة فيها
 تقرير للألوهية الواحدة؛ لأنّها تنفي الشرك، وثبتت التوحيد، فالنهي
 عن السجود للشمس والقمر؛ لأنّهما مخلوقان من مخلوقات الله،
 تحت تصرفه وقدرته، وأنّها لا تستطيع تقديم الضرّ والنفع، وأنّ الله
 هو المسخّر لهما؛ لنفعكم أيّها النّاس.

ولمّا كانت الشمس والقمر من أحسن الأجرام المشاهدة في
 العالم العلوي؛ نبّه تعالى على ضعفهما، فهما مخلوقان تحت قهره،
 وفيه إشارةٌ إلى نزولها عن درجة الإلهية، والنهي عن السجود بمعنى

(١) البحر المحيط (٤٦٤/٧).

(٢) المصدر السابق (٤٦٤/٧).

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب
 الفيروزآبادي (بيروت: المكتبة العلمية) (١٣٦/٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

لا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادة غيره، فإنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به^(١)، فالآية الكريمة فيها حصرٌ للعبادة، وقصرٌ لها لله دون غيره، فلا تصح عبادته مع الشرك به، وجعل الأنداد له، فأسلوب النهي فيه نفي للشريك، يتبعه الأمر بإثبات التفرد في العبادة لله في قوله «اسجدوا» وفي ذلك تأكيدٌ لنفي الشرك، وفي قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، فيه تأكيدٌ للمعنى، حيث أنَّ المخلوق لا يصل إلى مستوى الخالق، فهو تحت قهره وسلطانه.

وفي تقديم الضمير المنفصل «إِيَّاه» على العامل، فيه معنى التخصيص ، فلا تصح عبادته مع عبادة غيره.

هذا ولم يُلحَظ للمفسرين كلامٌ حول عادة العرب في عبادة الشمس والقمر، إلا ما وجد من كلام للزمخشري في قوله: «ولعلَّ ناسًا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر، كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنَّهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنها عن هذه الوسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصًا إن كانوا إِيَّاه يعبدون، وكانوا موحدين غير مشريكين»^(٢).

ويذكر الطاهر بن عاشور أنَّه لم يقف على أنَّ العرب في زمن نزول القرآن كان منهم من يعبد الشمس والقمر، ويبيِّن بأنَّه لم يظهر في كلام الزمخشري السابق وقوف على ذلك.

ويقول: ولكنَّ وجود عبادة الشمس في اليمن أيَّام سبأ، قبل أن يتهودوا، يقتضي بقاء أثارة^(٣) من عبادة الشمس في بعض بلاد العرب، وقد ذكر من أصنام العرب صنمٌ اسمه «شمس». وبه سُمِّوا عبد شمس، وكذلك جعلهم من أسماء الشمس الإلهة، قالت ميَّة

(١) ينظر تفسير الطبري (٤٧٤/٢١)، وتفسير ابن كثير (١١٠/٤).

(٢) تفسير الكشَّاف للزمخشري (٢٠١/٤).

(٣) أثارة: بقية.

بنت أم عتبة :

تروّحنا من اللعباء عصرًا فأعجلنا الإلهة أن تؤوبا
وكان الصنم الذي اسمه شمس يعبده بنو تميم، وضبة وتيم
وعكل وأد^(١)، وكنت وقفت على أن بعض كنانة عبدوا القمر^(٢).

ثانيًا: التقرير غير المباشر للألوهية الواحدة، عن طريق
الاستدلال بمظاهر القدرة والعظمة في الخلق، ويتضح ذلك في قوله
تعالى: ﴿قُلْ أَيِّنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا
ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

فالآية فيها عرض لدلائل القدرة في الكون، والتصرف في
شؤونه، وفي ذلك تقرير للألوهية المتفرّدة لذي الملك والسلطان،
التي تُبرهن على أنه واحد لا شريك له، وفيها كشف للمشركين عن
فضاعة وشناعة الكفر والإشراك بالله، وهم يشاهدون آثار عظمة الله
وقدرته في هذا الكون الذي، يمثل دلالة الاستحقاق للألوهية.

ولقد جاء في الآية الأسلوب الإنكاري في الاستفهام، والذي
حمل التعجب والتوبيخ لصنيعهم في حق ربّهم وخالقهم، والإنكار
في الآية: «إنكاراً من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو
الخالق لكل شيء»^(٤).

والأنداد: هم الأكفاء الذي يُطاعون في معاصي الله، وقوله:
﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي خالق جميع الموجودات، وكل مادونه مملوكٌ
له، فكيف يجوز له نذ من مخلوقاته^(٥)، فالآية فيها احتجاج من الله

(١) وعُكل، وأد.

(٢) التحرير والتنوير (١١، ٢٩٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/١٠٠).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٢١/٤٣٤)، وتفسير النسفي للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن
محمود النسفي (طبعة دار الفكر) (٤/٨٨)، تفسير أبي السعود (ط٢، بيروت: إحياء التراث =

تعالى على فساد قولهم، بأنَّ من خلق الأرض في يومين، وأنتمَّ منافعها في يومين، والسموات في يومين، كيف يُعقل الكفر به^(١). وفي هذا الاستدلال تقرير للألوهية الواحدة وإثبات أحقيتها، لمن كان هذا خلقه وصنعه سبحانه، فهو العلي القدير.

ومن التقرير غير المباشر؛ الترغيب في الاستقامة على التوحيد، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢).

ففي الآية ترغيب واحتفاءً بمن وحَّد الله واستقام على ذلك، فالتعريف في قوله «ربنا الله» يفيد الحصر بمعنى لا ربَّ لنا إلاَّ الله. يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي وحده لا شريك له، وبرئوا من الآلهة والأنداد (ثمَّ استقاموا) على توحيد الله، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غير به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى^(٣).

وفي معنى الاستقامة ذُكرت أقوال متعدِّدة، من ذلك ما ذكر الطبري في تفسيره، عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بأنَّها التوحيد الخالص الذي لا يعدل بشركٍ ولا بغيره^(٤). وذهب الحسن وقتادة وجماعةٌ إلى أنَّ معناه استقاموا بالطاعات، واجتناب المعاصي. وتلا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذه الآية على المنبر، ثمَّ قال: استقاموا والله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب^(٥).

= العربي ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م (٤/٨)، روح المعاني (٢٣/١٠٠).

(١) تفسير الرازي (٢٧/١٠١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٣) تفسير الطبري (٢١/٤٦٤).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (٢١/٤٦٤).

(٥) المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/١٤).

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله»^(١).

والخلاصة: أن الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهو القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها^(٢).

فالآية فيها ترغيب في الاستقامة على التوحيد، والطاعة المطلقة لله تعالى في كلّ أوامره ونواهيه، وفيها معنى الإعلان والجهر بالتوحيد في قوله تعالى: «قالوا ربنا الله».

ومن التقرير غير المباشر إنذارهم بعذاب الأمم المكذّبة للرّسالة ودعوة التوحيد، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١١﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا لَكِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٣).

فحال هذه الأمم مثل حال كفّار قريش، وقد أهلكوا لما كذبوا، «فالرسل جاءتهم تدعوهم إلى التوحيد، بأن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، فقالوا لرسولهم إذ دعوهم إلى الإقرار بتوحيد الله: لو شاء ربنا أن نوحده لأنزل ملائكة من السماء، فقالوا لرسولهم: إنّا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدقين به»^(٤).

هذا ويلحظ أنّ كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى التعميم في المراد من كلمة (الرسل) فأدخلوا الرسل السابقين، وهذا مخالف للخطاب في «أرسلتم» والإخبار في «جاءتهم»، وقد قال الزمخشري:

(١) البصائر (٤/٣١٢).

(٢) المصدر نفسه (٤/٣١٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٤) تفسير الطبري (٢١/٤٤٣).

«فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم: (فإنما بما أرسلتم به كافرون)؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح، داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل، ممن جاء من بين أيديهم، أي من قبلهم وممن يجيء من خلفهم أي من بعدهم، فكأن الرسل جميعًا قد جاؤهم.

وقولهم: «فإنما بما أرسلتم به كافرون» خطابٌ منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم»^(١).

ومن هنا يتضح أنّ الكفر برسول واحدٍ يُعتبر كفر بجميع الرسل السابقين واللاحقين؛ لأنّ دعوتهم واحدة، وهي دعوة إلى التوحيد، وإفراد الله عزوجلّ بالعبادة دون غيره، ويتضح في الآية الكريمة مطابقة حال هؤلاء المكذبين من الأمم السابقة لحال كفّار قريش في الكفر، ورد دعوة التوحيد.

ومن التقرير غير المباشر تصوير حال المشركين يوم القيامة عند ربّهم، وسؤالهم في ذلك اليوم عن الشركاء والأنداد، الذين أشركوا بهم، فإذا هم ينكرون الشرك والشركاء، وفي ذلك ترهيبٌ للمشركين في استمرارهم على الشرك، وتقرير للتوحيد.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حِسَابٍ ﴿٤٨﴾﴾^(٢).

ففي الآية يقول الله تعالى ذكره: ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين به في الدنيا الأوثان والأصنام. أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي (قالوا آذناك) أي أعلمناك مامنًا من شهيد يشهد أنّ لك شريكًا»^(٣).

(١) تفسير الكشاف (٤/١٨٦).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٣) تفسير الطبري (٢١/٤٨٨)، وانظر المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/٢٢).

فالمشهد في الآية الكريمة فيه تقرير للألوهية في نفوس هؤلاء المعرضين؛ حيث ينتفي أمر الشرك والشركاء في ذلك اليوم، وفي هذا العرض تحذيرٌ لهم بأن يرجعوا عن الشرك قبل أن يأتي هذا اليوم فيكونوا من الخاسرين.

ومن التقرير غير المباشر للألوهية تقرير الوحي والرّسالة، وفي تقريرها تقرير لمضمونها، وهي الدعوة إلى الألوهية، ومن ذلك - أيضاً - تقرير اليوم الآخر، وفي تقريره تقرير للألوهية؛ لأنّ كل من آمن بهذا اليوم فهو مؤمن بالألوهية الواحدة، وسيأتي تفصيل الحديث عن التقرير للوحي واليوم الآخر.

وكل ما مضى كان في الحديث عن تقرير الألوهية الواحدة، والمتأمل في ذلك يحظ التسلسل والترابط المعنوي الدقيق، بالإضافة إلى التنوع في أسلوب العرض، فالحديث عن الألوهية الواحدة يلحظ في بداية السورة وفي وسطها ونهايتها. وكل هذا الاهتمام والتنوع في العرض لهذه القضية ما هو إلاّ مواجهة للواقع المؤلم، الذي أصرّ عليه كفّار مكّة آنذاك.

فقد جاء الأسلوب المتنوع ما بين إنكارٍ وتوبيخ، ونفيٍ ونهيٍ عن الشرك، واستدلال بالأدلة والبراهين البارزة من الخلق للسماء والأرض، وجاء في نهاية السورة كما مرّ تصوير حال المشركين في نهاية المطاف بأنّهم يوم القيامة قد تبرّءوا من الشرك والشركاء، وأثبتوا هذه الحقيقة التي طالما أنكروها مع وجود الأدلة والبراهين الحسيّة.

ثانياً: تقرير الوحي والرّسالة:

وعن تقرير الوحي والرّسالة وردت آياتٌ كثيرةٌ تشير إلى أهمية هذا التقرير.

وهذا التقرير في السورة جاء على مراحل كالآتي:

أولها: التقرير المباشر ويظهر في ابتداء السورة في الإخبار من الله تعالى بأن هذا الوحي تنزِيلٌ من عنده، وقد جعل هذا الخبر مجرداً من التوكيد، حيث نُزِلَ منزلة الأخبار المؤكدة التي لا تنكر، نظراً لتحقيقه، ووجود البراهين والأدلة التي تصدق ذلك، فلا ينبغي أن ينكر. وجاء مع ذلك وصف هذا التنزيل بالأوصاف العظيمة التي لا تليق إلاً به لأنه من عند الله، ويتضح ذلك كله في قوله تعالى:

﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١).

ويظهر هذا التقرير - أيضاً - في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢).

فقد تضمنت الآية تقرير مبدأين أولهما إثبات البشرية والرسالة لمحمد ﷺ، والثاني إثبات أن الرسالة إلهية موحى بها من قبل الله سبحانه وتعالى (٣).

ثانياً: الرد على أقوال المنكرين المعرضين، والآية السابقة كانت ردّاً على قولهم: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٤)، حيث يعلنون الإعراض والتعامي وعدم السماع له.

ومن أقوالهم التي جاء الرد عليها: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هٰذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٥). حيث جاء الرد عليهم هنا

(١) سورة فصلت، الآية: ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٣) تفسير سورة فصلت، للدكتور محمد صالح علي مصطفى (ط ١، الرياض: دار النفائس،

١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص (٨٦).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

بالتهديد بالعذاب الشديد في قوله تعالى: ﴿ فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).
 وقولهم هذا مكشوف بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ﴾ (٢).

والردود في السورة الكريمة تتوالى في تقرير الحق الذي أعرضوا عنه في مناقشة لهم تبين أنهم في عنادهم هذا ما طلبوا الحق وأرادوه، بل أرادوا الغي واستحبوه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (٣)، ففي الآية بيان أنه على أي طريقة كان فإنهم سيجدون لأنفسهم طعنا فيه؛ لأن قصدهم العناد فيما يتعللون به، ليستمروا في إعراضهم بما يخلقون من التكذيب. وتكلف الأعذار الباطلة؛ ليستتروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم.

ثالثاً: التقرير غير المباشر عبر المناقشة التي تسير الإنكار المتمكن في نفوسهم، بأن يستحضروا في عقولهم إن كان هذا الوحي المنزل من عند الله، ثم كفرا به فماذا سيكون حالهم، وفي هذا مجارة للخصم حتى يستنزل طائر الإنكار من نفسه بأن يتفكر في دلائل هذا القرآن، فإن رآه حقاً فلم يعدل عنه إلى الضلال، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ (٤).

رابعاً: الوعد من الله تعالى لنبيه بتقرير وتمكين هذا الوحي المنزل في توضيح دلائله التي تبرهن على صدقه في الآفاق والأنفس.

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

في قوله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١). فافتاحية السورة بالحديث عن القرآن الكريم، والرد على الشبه ونقضها والمجادلة المنطقية لهم، كلُّ هذا تقرر للوحي والرّسالة.

تقرير اليوم الآخر وهو المحور الثالث من محاور العقيدة:
وأوّل ما يلحظ في السورة منه ما في مقدمتها من الابتداء بتهديد المشركين الذين لم يؤمنوا بالآخرة في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢).
يقول الطبري: «وهم بقيام الساعة، وبعث الله خلقه أحياءً من قبورهم، من بعد بلائهم وفنائهم منكرون»^(٣).

وهنا واضح أنّ كل مشرك هو كافرٌ بالآخرة، وقرن - أيضًا - عدم إيتائهم للزكاة بكفرهم بالآخرة؛ لأنّ الصفات الذميمة لا تتعلق إلاّ بالكفرة، ولولا كفرهم بها لما أشركوا ومنعوا الزكاة. يقول البيضاوي: «حالٌ مشعرةٌ بأنّ امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة»^(٤).

وبهذا يتضح الترابط بين جزئيات الدعوة إلى الألوهية وتقريرها، وتقرير اليوم الآخر؛ لأنّها تصب في معين واحد، وفي قوله تعالى «وهم كافرون»: هم ضمير فصل يؤكد مع الاسمية ثبوتهم في كفرهم واستقرارهم على حالهم، فالآية فيها بيان لإنكارهم للآخرة وجحودها بالكلية^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٧.

(٣) تفسير الطبري (٤٣١/٢١).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣٤٩/٢).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٤٩٤/٢١)، وانظر المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٤/٥)، تفسير

الرازي (٩٩، ٢٧).

ويأتي - أيضًا - في ختام السورة بيان لشكهم المستفيض في لقاء ربهم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٤) (١). ففي الآية تهديد لهم على هذا الشك، يتضح في أداة التنبيه «ألا» وختم الآية بقوله «محيط» أي محيط بهم لن يفلتوا من عذابه.

وفي التهديد لهم في كفرهم باليوم الآخر، تقرير لهذا اليوم، وأن الأجدر أن يؤمنوا به؛ لأنه واقع لا محالة، فإن لم يؤمنوا فإن مصيرهم ينتظرهم فيه والنفوس عندما تتأمل مثل هذا التهديد لا شك أنها تعقد التخيل في المصير المنتظر.

ويأتي التقرير المباشر المؤكد لهذا اليوم في التصوير لمشاهد يوم القيامة ليتقرر ذلك في النفوس ويتحقق. «وهي عرض لما يقع فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعًا، بل إنَّ هذا الطريق أشد توكيدًا لهذه القضية وتشخيصًا» (٢).

وفيما يلي عرض للآيات التي استعرضت المشاهد المصوّرة لليوم الآخر:

أولها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون (٢٠) (٣).

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضلّنا من الجن والانس نجعلهمما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ (٢٩) (٤).

وثالثهما: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا أءاذنك ما منّا من شهيد﴾ (٤٧) وذلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص (٤٨) (٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (مصر: دار الشروق، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م). (١٣٠٣/٥).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٧، ٤٨.

فهذه الآيات الكريمة تصور حالة هؤلاء المشركين يوم القيامة، وما هم فيه عند الحشر، وفي وقت العرض من كربٍ عظيمٍ، ولن أكثر هنا من الشرح المفصل؛ لأنّ هذه المواضع سوف تأتي مفصّلةً في الفصل الثاني، من مبحث الصورة الفنية بإذن الله تعالى، وهنا ذكرنا هذه الآيات للاستدلال بها على تقرير اليوم الآخر، فالسمة الغالبة على هذه المشاهد في الآيات الكريمة، هي الاستحضار للمشهد وإحياؤه، حتّى يصبح مشهداً محسوساً، ولتزداد النفوس المنكرة له يقيناً وتوكيداً وإقراراً.

والذي يلمس في هذه المشاهد المعروضة من الآيات كما يشير سيد قطب - رحمه الله - هو أنّها كلها «مسوقة لأداء الغرض الديني، ذلك الغرض الأوّل للقرآن؛ ولكنّها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني»^(١).

وممّا يزيد الأمر تهويلاً أن هذه المشاهد تصوّر حالة هؤلاء المشركين المنكرين، وهم في ذلك اليوم يتكلمون ويتحاورون مع جلودهم، ويتبرأون ممّا كانوا عليه من الشرك، وفي هذا التصوير لحالهم انتزاع لما في نفوسهم من جذور الشرك والإنكار لليوم الآخر، وفي ذلك تقرير له في النفوس.

وفي التقرير لليوم الآخر وما فيه من بعث وحياة بعد الموت طريق آخر، وهو الاستدلال القياسي بما هو قريبٌ مُشاهدٌ أمام العيان، وهو إحياء الأرض بالماء بعد جديها ومواتها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْفِقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

فالعقل يلمس في هذا المشهد المقارنة ليعقد بين الصورتين،

(١) مشاهد القيامة، سيد قطب، (ص ٤٧). (ط ٧، بيروت: دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣). ص: ٤٧

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

صورة إحياء الأرض بعد موتها وصورة إحياء الميت بعد الموت، ليتأمل ويقتنع، فمن استطاع على إحياء الأرض الميتة فلا شك أنه هو المستطيع على أن يبعث الحياة في الموتى، والقرآن دائماً يستخدم الصورة المحسوسة القريبة من ذهن الإنسان وواقعه. وفي هذه المقايسة دليلٌ على إثبات البعث، وتقريره بعد الموت.

فمن هنا وبعد هذا العرض الطويل يلحظ المتأمل أنّ السورة الكريمة قد اهتمت اهتماماً بالغاً بغرض التقرير للعقيدة بكلّ محاورها الثلاثة التي استأثرت بالجانب الأعظم من السورة، وفيما سبق من عرض لهذا الغرض، ومحاووته يتضح الآتي:

أولاً: تنوع الأسلوب في تقرير العقيدة، ولا يعد هذا إلاّ معالجة للموضوع، وتثبيتها له في النفوس، فهو إثبات للموضوع من طرقٍ متعددة، فكأنّه تكرار للموضوع، وهو ليس بتكرار، وإنما هو توارد مستمر يثبت الموضوع في النفوس ويغرسه من موارد متنوعة.

ثانياً: استخدام الحجج المقنعة في إثبات الألوهية الواحدة من مثل خلق الأرض والسماء والشمس والقمر وعرض القدرة والإحاطة.

ثالثاً: مجادلة المشركين عن طريق الإقناع العقلي والتأثير الوجداني.

رابعاً: ترهيب المشركين بالعذاب في الدنيا والآخرة، وعرض مشاهد من مصارع الغابرين من الأمم المكذبة لعقد المقارنة والاتعاظ.

خامساً: تقرير اليوم الآخر عن طريق المشاهد الحيّة المشخصة.

سادساً: الاهتمام بقضية الرسالة والوحي من بداية السورة إلى نهايتها ونقض أقوال المشركين والرد عليها.

وأما أغراض السورة المتبقية والتي سيأتي الحديث عنها، فقد

أتت خادمة لهذا الموضوع الذي اهتمت به السورة.

ثانياً غرض الترهيب:

استخدمت السورة هذا الغرض، وسيلة لهزّ نفوس المنكرين وإنذارهم من الشرك والضلال، فهناك ترهيبٌ بالعذاب الدنيوي، وترهيبٌ من العذاب الأخروي الذي سيلحق بهؤلاء المنكرين، وأسلوب القرآن الكريم، يراعي الفطرة البشرية في دعوته، وما جُبلت عليه من ميولاتٍ، ويصل إلى النفوس من منافذ التأثير فيها، فالترهيب في السورة قد بدأ بكلمة «ويل» في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾. (١)

«وويلٌ»: كلمة تستعمل في العذاب والهلاك، أو تعني شدة الشرِّ كما قال الخليل (٢).

والتنكير في ﴿ويلٌ﴾ لتهويله، والاسمية فيه لثبوته. وفي اللسان يقول: «قال أبو إسحاق إن رفع «ويلٌ» أجود في القرآن والكلام؛ لأنَّ المعنى قد ثبت لهم هذا» (٣).

وأول ما يواجهنا في السورة الكريمة منه ما نجده من إنذار وترهيب بالعذاب في الدنيا للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِمَاءٍ أُرْسِلَتْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (٤). وهذا إجمالٌ في التهديد في عاقبة كلِّ من عاد وثمود، يأتي بعده التفصيل في عذاب كلِّ منهما في قوله تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ (٥). وعن قوم ثمود

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) المحرر الوجيز (١/١٧٠)، وانظر البصائر (٥/٢٨٩).

(٣) لسان العرب (١١/٧٣٨).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣-١٤.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٦.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ
الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) (١).

فالترهيب بالعذاب الذي وقع وحلَّ بعادٍ وثمرود، قد جاء في موقع من السورة عظيم، فبعد أن بيَّن تعالى لكفار قريش الحُجج والبراهين الواضحة في خلق السموات والأرض؛ أعقب تعالى بعد ذلك ذكر الإنذار بالعذاب في الدنيا لهم إن هم استمروا على غيِّهم، بما حلَّ بقوم عادٍ وثمرود من قبل. فجاءت الآيات واصفةً للعذاب الذي نزل بهم جزاء كفرهم واستكبارهم، حيث كان العذاب ريحًا باردةً تصوت في هبوبها، تقتلع كل ما تصادفه وتبيده.

(والصرصر): الريح الشديدة التي تقطع القلوب بصوتها.

ذكر الطبري اختلاف أهل التأويل في معنى الصرصر، حيث قال: بعضهم عنى بذلك أنَّها ريحٌ شديدةٌ. وقال آخرون: بل عنى بها أنَّها باردة.

ولمَّا عرض هذين القولين رجَّح الأوَّل منهما. ويقول: وذلك أنَّ قوله «صرصرًا» إنَّما هو صوت الريح إذا هبَّت بشدَّة (٢).

ثمَّ إنَّه زيد في التهويل بوصف الأيام بأنَّها نحساتٍ، ونحسات كما يقول الطبري ويُرَجَّح بمعنى: أيَّام مشائيم ذات نحوس؛ لأنَّ ذلك هو المعروف من معنى النَّحس في كلام العرب (٣).

فالآيات الكريمات صورت بكل دقة ما حاق بعادٍ من العذاب بالريح المنضغطة المندفعة بشدَّة، والتي استمرَّت عليهم في أيام وصفت بأنَّها نحسات، وفي هذا الوصف دليلٌ على شدَّة ما حاق بهم، حتَّى أصبحت الأيام بنفسها هي النحس، وقد عبَّر عن إصابتهم

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) تفسير الطبري (٢١/٤٤٤، ٤٤٥).

(٣) المصدر نفسه (٢١/٤٤٧).

بالعذاب بالذوق؛ زيادةً في وقع العذاب عليهم، وشدة إحساسهم بمرارته.

وأما قوم ثمود؛ فقد أحاطت بهم الصاعقة التي أخذتهم. والصاعقة: من الصعق. وهي النار التي يرسلها الله مع الرعد الشديد، والصاعق: ما يصعقون به أي يموتون.^(١)

ويُلاحظ في هذه الآيات الكريمات أنها جاءت للموعظة والترهيب لكفار قريش، وقد جمعت بين العذاب الحسي الذي أوقعته الصاعقة، والعذاب المعنوي المتمثل فيما يُصيبهم من خزي وذُل واستكانة، وفيه إحاطة بكل ما يثير الفرع في النفس ويملوها رهبةً. كذلك ما يلاحظ في دقة اللفظة القرآنية التي تُعبر عن الحركة والصوت، وهي ألفاظ جاءت لتزيد من تصوير المشهد، ونقله حيًا، ممّازاد في عنصر الترهيب.

ولا ننسى ما في التنكير للكلمات من دورٍ في تدعيم معنى التهويل لهذا العذاب. من مثل «ريحًا»، و«صرصرًا» و«نحساتٍ»، والتعبير بلفظة الإذاعة في العذاب.

وأما الحديث عن صورة العذاب في هذه الآيات؛ فسيأتي في مبحث الصورة الفنيّة مفصلاً.

وما يلمس في عنصر الترهيب بالعذاب هنا أنّه قد جاء موافقاً لمقتضى المقام؛ حيث أتت قصّة عاد وثمود وذكر مصيرهما لترهيب كفّار قريش، فهم مثل قريش في إنكارهم للرسالة والكفر بها، وقد فصّل في قصّة عاد؛ لأنّها ألصق بحال كفّار مكّة، لأنّ كفرهم كان بسبب الحميّة والأنفة ممّا ينشأ عنه الاغترار بالقوّة والنفس. والآيات الكريمات قد عرضت أقصى ما وصل إليه قوم عادٍ من العتوّ والضلّال في قولهم «مَنْ أَشَدُّ مَنَاقُوّةً» حيث يأتي في الآيات طريق الترهيب بعد

(١) ينظر اللسان، مادة «صعق» (١٠/١٩٨).

ذكر هذه المظاهرة بالقوة التي وصلت إلى غايتها؛ ليلفت الانتباه ويوجّه العقول والأنظار باستفهام إنكاريّ، يهزّ الأعماق وهذا ما يظهر في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(١)، ثم تتوالى الآيات في ذكر عذابهم.

«وهكذا نرى تصريف القرآن في القول بحسب المقام، ولكلّ مقام مقال، فترى لكلّ لفظة وقصة موقعها، بحسب السياق، وبحسب مايناسب كل حالة من حالات المخاطبين، فتجده قوة وفخامة في الألفاظ، ورهبة وعنفاً في المعاني؛ لذلك كان الكافرون يرهبون سماعه، ويصدون عنه صدوداً. ويفرّون منه كما تفرّ الحُمُر من رميات السّهام»^(٢).

أولم ترتجف نفس عتبة بن ربيعة هلعاً ورهبةً حينما قرأ عليه الرسول ﷺ آيات هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٣). فما كان منه إلا أن طلب من النبي ﷺ أن يكف عن القراءة، رهبةً ممّا سمع، وخوفاً؛ لأنّه وعى ما سمع من آيات النذر المؤثرة البالغة.

وهذا ما يزيدنا تأملاً في حكمة اختيار النبي ﷺ لهذه السورة وتلاوتها عليه.

والآية الكريمة كما مرّ، قد جمعت العذاب النفسي والمادّي، وأفادت التحقير لشأنهم.

ففي قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ دلالةً على أنّ العذاب أتاهم من فوقهم، ورأوه كما يُرى السحاب عالياً، آتياً من قبّل السماء،

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم إبراهيم المطعني(القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)(١/٢٧٠).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٣.

«وممّا زاد في تحقيرهم بأن أخبر أنّه أهلكتهم لأجل ما تعززوا به من قوّة أبدانهم، ووثاقة خلقهم بما هو أطف الأشياء جسمًا، وهو الهواء، فقال: ريحًا: أي عطبة. وصرصرًا: شديدة البرد والصوت والعصوف حتّى كانت تجمّد البدن ببردها، فتكون كأنّها تصره أي تجمعه في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوته، وتقطع القلب بصوتها، فتقهر شجاعته، وتحرق بشدّة بردها كل ما مرّت عليه»^(١).

ومن الآيات التي تدخل تحت العذاب الدنيوي قوله تعالى: ﴿فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وهذه الآية الكريمة جاءت بعد مقولتهم الجائرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣). فجاء الرد عليهم بالتهديد المناسب، وهو توعّد لهم بالعذاب في الحياة الدنيا.

والطبري حمله هنا على أنّه عذابٌ أخروي، وهذا ما لم يتفق مع ما ذهب إليه ابن عبّاس من أنّه وقعة بدر، أو غيرها، كما ذكر ذلك كثيرٌ من المفسرين^(٣).

وأما الترهيب بالعذاب في الآخرة، فيتمثّل في ترهيب كفّار قريش يوم القيامة، وهو يحشرون ويوزعون وتشهد عليهم الجلود كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٤) حتّى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون^(٥) وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرّة وإليه ترجعون^(٦) الآيات^(٤).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدّين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ط ٢، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢): ١٧/١٦٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٣) الكشّاف للزمخشري (٤/١٩٢)، البحرالمحيط (٧/٤٧٣)، تفسير أبي السعود (٨/١٢)، روح المعاني (٢٣/١١٩).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢١.

فهذه صورة لهم يوم الحشر تزيد النفوس رهبةً وخوفاً.
والحشر: هو الجمع مع السوق^(١).
والوزع: حبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو كناية عن
كثرتهم، وقيل يساقون ويدفعون إلى النار^(٢).
فالآيات الكريكات تصوّر حالة هؤلاء المشركين يوم القيامة
وهم يساقون إلى مصيرهم المؤلم. فياله من مشهدٍ يحمل الرهبة في
النفوس؛ حيث تنقطع كل أسباب النجاة، فلم يبق لهم شيءٌ يمتنعون
به؛ حيث تشهد عليهم جلودهم التي هي من أنفسهم، تكشف
أسرارهم، وتُعلن ذنوبهم. إنّه مشهد المفاجئة المتحقّق، حيث
سيكون المجيء إلى النار ودخولها محققاً، يؤيد ذلك التعبير بـ«إذا»
دون «أن» للإشارة إلى تحقق المجيء ودخول النار.

ويزداد المشهد حسرةً عندما يبدأ الحوار بينهم وبين جلودهم؛
حيث يتعجبون من شهادتها عليهم في قولهم: ﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾،
وفي هذا دلالةٌ على تصرف اليأس يدع أصل القضية، وينفس عمّا
يضيق به بما يشاء من لغو الحديث، وهو يعلم أنّه لن يقدم أو يؤخر
شيئاً من موقفه، فقد بان هلاكه، وواضح أنّ ما في الاستفهام من
إنكارٍ وتوبيخٍ وتعجبٍ، يُترجم عن مشاعرهم، وقد فوجئوا بما لم
يكن في حسابهم^(٣).

وأي موقفٍ أشد رهبةً من هذا الموقف، ثمّ إنّ الآيات تختم
بانتهاؤ هذا المشهد باستقرارهم في النار، في قوله تعالى: ﴿فَإِن
يَصْبِرُوا فَلَإِنَّ أَوْلَىٰ لَهُمْ وَإِن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(٤)، فقد

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٦٦).

(٢) روح المعاني (٢٣/١١٤).

(٣) ينظر: أسلوب الدعوة القرآنية، بلاغة ومنهاجاً، عبدالغني بركة: ص (١٣١)، بتصرف يسير.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

ألقوا في أسفل دركات النَّار، وصبرهم فيها غير متوقع، يفيد ذلك التعبير بـ«إن» دون «إذا» التي تفيد التحقق، فهم قد تركوا في النَّار يصطرخون فيها، يصارعون فيها الأهوال، وتمضي الآيات إلى شأن آخر. هذا هو التعبير والتصوير القرآني الحي.

وسياتي بيان تفاصيل التصوير في هذا المشهد في مبحث الصورة الفنية بإذن الله تعالى، إنه مشهد فيه إنذار للمعاندين، وترهيبٌ للمشركين.

ومن مشاهد الآخرة المفزعة في السورة؛ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الضَّالِّينَ أَضْلَانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا سَحْتًا أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾^(١)، ففي الآية ترهيبٌ للضالين والمضلين، والترهيب للمضلين أشد؛ بحيث إنَّ موقفهم سيكون من أسوأ المواقف وأشدّها وطأة، وتصوير رهبة الضالين وحسرتهم وإلقائهم اللوم على من أضلهم، وهذا بيان لمدى ما بهم من حسرة وندامة، وتمنيهم لو أنهم لم يكونوا معهم في هذا الموقف المخزي.

ومما يلمس في عنصر الترهيب في السورة استخدام صيغة المضارع المؤكّد بلام التوكيد والنون الثقيلة، والذي يحمل الصرامة في التوعد والتوكيد له.

ولقد جاء في المواقع المناسبة؛ حيث جاء بعد قول المشركين عن القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعَوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾^(٢)، حيث جاء قوله تعالى بعدها: ﴿ فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣)، فانظر إلى التوكيد باللام والنون، والتنكير في كلمة «عذابًا» و«شديدًا» والعطف

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

عليها بفعل مضارع آخر مؤكد باللام والنون ومجيء صيغة التفضيل «أسوأ» التي تدل على أنّ عذابهم سيكون شديداً عظيماً، وكل هذا أدخل وأعظم في الترهيب.

وجاءت هذه الصيغة في موقع آخر من السورة بعد الحديث عن الإنسان اليئوس القنوط من رحمة الله، الجاحد لنعمه.

في قوله تعالى: ﴿ فَلَنْبِتَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْدِيْقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ (١). وهذه الصيغ لها أثرها في ترهيب الكافرين والمشركين بما سينتظرهم.

وأما الترهيب المفتوح، والوعيد الملفوف المخيف، فيلاحظ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢)، ومعنى يلحدون في الآية: مأخوذ من أَلْحَدَ الحافر، إذا مال عن الاستقامة فحفر في شقّ. فاستعير للانحراف. (٢).

ورجّح الطبري أنّ المقصود بالإلحاد هو العموم في آيات الله سواء كانت تنزيلية أو كونية (٣).

فالتهديد قد بدأ ملفوفاً؛ لكنّه مخيف. وفي قوله تعالى: ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾، أي هم مكشوفون لعلم الله، وهم مأخوذون بما يلحدون مهما غالطوا والتوا (٤). ثمّ يأتي التصريح بالتهديد في قوله: ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٥)، وفي هذا تعريضٌ بهم، وبما سينتظرهم من الإلقاء في النار، الذي يحمل الذعر والخوف. يدل على ذلك حرف الجر «في»، الذي يدلُّ على الهوة

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) الكشّاف للزمخشري: (٤/١٩٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/٤٧٨).

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٥/٣١٢٦).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

البعيدة في النار، فقعرها بعيد، وهذا ترهيبٌ شديدٌ ؛ حيث إنَّه الحقيقة بعينها، فليس هناك ترهيبٌ مجرد، بل هو الواقع الذي سيواجهون به .

يقول سيد قطب : «وتنتهي الآية بتهديد آخر ملفوف في قوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، والأمر هنا مستعمل في التهديد أو في الإغراء المُكنى به عن التهديد»^(١) .

وصيغة الأمر هنا تزيد من حِدَّة الخطاب الصارم الذي يحمل معنى الغضب الشديد من الرحمن الرحيم، فيا لحسرة كل من شمله هذا الخطاب .

هذا وقد لاحظنا فيما سبق أنَّ السورة قد ركزت على هذا الغرض؛ لأنَّه هو المناسب لحالة الإعراض التي كثرت في السورة الكريمة، فقد أطنبت في عرض أقوال المعرضين وتعتهم والرد عليها، وفي الردود تهديدٌ وتوعدٌ بالعذاب، وهو أدخل في مقام الترهيب، وإذا تيقنا من أنَّ السورة الكريمة قد نزلت في مراحل الدعوة الأولى، فإنَّ التركيز على هذا الغرض هو المناسب لهؤلاء القوم المستكبرين؛ حيث جاءت الألفاظ قويَّة، فخمة، والأسلوب شديدًا عنيفًا، والفقرات متتابعة سريعة، وهذا ما سيتم تفصيله بمشيئة الله تعالى في المباحث القادمة .

ثالثًا: غرض الترغيب:

وإن كان لغرض الترهيب النصيب الأوفر من السورة بمقارنته بهذا الغرض؛ إلَّا أنَّه قد تمَّ في السورة الكريمة المقابلة بين الغرضين .

فلمَّا ذكر تعالى ما للجاهلين وعيدًا وتحذيرًا، ذكر ما لأضدادهم وعدًا وتبشيرًا، وأوَّل ما يلقانا من آيات هذا المقام قوله

(١) المصدر السابق (٥/٣١٢٦) .

تعالى عقب ما ذكر من أحوال الجاهلين وصبرهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨) (١).

ويُلحظ في الآية أنه قد أُعرى الخبر عن الفاء: «فقال إيداناً بعظم الجزاء؛ لأنَّ سببه رحمة الرحيم، ولو كان بالفاء لآذنت أنه على مقدار العمل الذي هو سببه (لهم أجر) أي عظيم، غير ممنون أي مقطوع» (٢).

وقد جاء هذا الخبر مؤكِّداً؛ لتزداد النفوس به يقيناً ورغبةً؛ وذلك إذا علمنا ما تحتاج إليه تلك الفترة المتقدمة من الدعوة إلى الدين إلى عنصر الترغيب المؤكِّد؛ ليعلم كل من يدخل هذا الدين أنَّ له عند الله الأجر العظيم، فيزداد على دينه ثباتاً ورغبةً.

ومن آيات الترغيب في السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (٣١) ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (٣٢) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) (٣)، جاءت هذه الآيات الكريمة بعد استيفاء الكلام على ما أصاب الأمم الماضية المكذبة، وما سيصيب المشركين من عذابٍ في الدنيا والآخرة، وما أُعدَّ لهم. وفي ذلك عبرة لهؤلاء المشركين الذين حاربوا الدعوة إلى الله، وحاربوا رسولها، وبعد ما أنذروا بما سيحل بهم في الآخرة، تشوقت النفس

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) نظم الدرر (١٧/١٤٨).

(٣) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٤.

بعد هذا العرض إلى معرفة أحوال المؤمنين وحظهم، فجاء الترغيب في ذكر حالهم، مفتتحاً بأداة التوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، وفي ذلك بيان عظيم لكل نفس متطلعة مترقبة، وافتتاح الجملة بحرف التوكيد منظور فيه إلى إنكار المشركين، ففي توكيده تثبيت وترغيب لكل مؤمن، وتحسّر وقمع لكل مشرك معرض.

والترغيب في الآيات الكريمة يتمثل في الترغيب في التوحيد، والاستقامة على الطاعة في كل ما أمر الله، والانتهاز عن كل ما نهى عنه.

ثم أعقب ذلك بالترغيب والتبشير لهم منذ أن تنزل عليهم الملائكة بالبشرى عند نزول الموت^(١)، «والتنزل يكون من علو، وفيه تعظيم وتكريم لمن ينزلون، ومن ينزل عليهم. والتنزل يكون بالتتابع، وهو يفيد تكرار نزول الملائكة»^(٢).

فالملائكة تنزل عليهم تقول لهم: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣). وهذا القول فيه تبشير وإيناس لهم.

وقوله: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ نهي عن الخوف والحزن. والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار. والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً، وقيل: لا تخافوا على ما تقدموا عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم^(٣).

والبشرى: الخبر السار، وبشّرته، أبشّرته وبشّرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه؛ وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٦٦/٢١).

(٢) تفسير سورة فصلت، د/ محمد صالح علي مصطفى، ص (٢٠٥).

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري (١٩٤/٤).

الماء في الشجر^(١).

وقد ذكر الفيروزآبادي أنّ البشارة وردت في القرآن على اثني عشر وجهًا، لا اثني عشر قومًا باثنتي عشرة كرامة، منها بشارة المستقيمين بثبات الولاية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ الآيات^(٢). فقد جاء الأسلوب عظيمًا في البشارة، حيث إنّه لا بشارة إلاّ مع الأمن، فقد أمنوا من توقع ما سيحصل لهم في المستقبل الذي سيعايشونه من أمور الآخرة، وهذا ما يفيد معنى التّهي عن الخوف كما ذكر الزمخشري في تعريفه سابقًا.

والتّهي عن الحزن يتناول الماضي، فلا تحزنوا على ما أسلفتم، فإنّ الله يخلفكم، ويغفر ذنوبكم، وقدّم الخوف على الحزن؛ لأنّه أعظم منه في العادة.

فالأسلوب فيه نهي عن الخوف، وهذا يتضمن ثبوت الأمن، والتّهي عن الحزن يتضمن ثبوت السرور، وجاءت البشارة في صيغة الأمر وكل هذا يُعدّ من التوكيد للمعنى والتقرير له.

ثمّ جاء الإيناس لهم في تعريف الملائكة بأنفسهم لهم، وأنّهم كانوا أولياء لهم في الدنيا، وها هم أولاء اليوم في الآخرة أولياء لهم، والنّفس لما تعرّف على صديق لها قديم تأنس به، وذلك في قوله تعالى عن قول الملائكة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، ثمّ يزداد عنصر التشويق والترغيب بذكر ما لهم في الجنّة من نعيم، في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٣)، فهنا بيان لما أعدّ للمذكورين في الآخرة. واللام في الموضوعين للاختصاص، أي هو لهم خاصّ بهم، والتعبير هنا بالموصول لإفادة العموم، «وتشتهي» هنا بمعنى: ما تتمناه نفوسهم.

(١) البصائر للفيروزآبادي (٢/٢٠٠).

(٢) انظر المصدر نفسه (٢/٢٠٠، ٢٠١).

وفي قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾ فيه تكريمٌ لهم،
والنُّزْلُ: ما يُعَدُّ للنَّازل من الزاد ليأكله حيث نزوله^(١).

والنُّزْلُ هي الجَنَّةُ، وتسمية ذلك نُزُلًا من باب التكريم، تشبيهاً
بما هو مُتَّبَع في العرف من تكريم الضيف، فهم ضيوف الرحمن فما
أعظم ما يقدم من الرحمن لهم.

وهكذا تنقل الآيات الكريمت لنا هذه المشاهد التي تنطبع في
النفوس، فترغبها إلى الخير؛ لتسعد بقاء ربِّها في الآخرة، وتنال منه
عفوه ودخول جنَّته.

ففي الترغيب تثبيت للمؤمنين، وتعريضٌ بالمشركين، وإرشادٌ
لهم.

وتأتي بقيَّة آيات الترغيب؛ لترغَّب في الدعوة إلى الله حيث أُكِّد
هذا الترغيب عبر الاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي، بمعنى أنّه لا
يوجد أحدٌ أحسن ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وأعلن بأنّه من
المسلمين، ويأتي أيضاً الترغيب في الدفع بالحسنة، حيث يلحظ في
الآيات ترغيبٌ للرسول ﷺ في الدفع بالحسنة فيما يلقاه من أعدائه
عبر صيغة التفضيل «أحسن» وفي ذلك تأكيدٌ لفعالها، فإذا وجدت
حسنتان وكانت إحداهما أحسن، فليدفع بما هو أحسن، وهذا ترغيبٌ
فيه إلحاحٌ في دفع الإساءة بالإحسان، ويظهر الترغيب في تشبيه
انقلاب العدوِّ وتغيره عندما يقابل بالحسنى بالصديق الحميم.

ولمَّا كان الإقدام على هذا العمل يتطلَّب من صاحبه الصبر،
جاء الترغيب في صفة الصبر عن طريق صيغة القصر بـ«ما» و«إلَّا»،
في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٥﴾.

فلا يقدم على هذا العمل إلَّا من كانت صفة الصبر فيهم سجية

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤١٧/٥).

من سجايهم الرّاسخة.

وهكذا نجد الترغيب في السورة قد جاء بعد أن استوفى الحديث عن المعرضين، والترهيب من مصيرهم، وهذا ما يوافق جوّ السورة الكريمة.

فالترهيب فيه تهويل وتوعدٌ وحثٌ من قيمة الكفر وأهله، وفي الترغيب بيان لعظمة منزلة المؤمنين، ومآلهم ترغيبًا في سلوك طريقهم، طريق النجاة والأمن.

والألفاظ في الترغيب سلسلةٌ لِيَنبُتَ، فيها جرسٌ وإيقاعٌ رخي، يناسب مقام الترغيب الذي يحمل البشرى والسعادة، والرضى بما في ذلك من تبشيرٍ بالجنةٍ وما فيها من نعيمٍ مقيمٍ.

مع أنّ السورة الكريمة قد أطنبت في ذكر أحوال المعرضين وترهيبهم بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ فإنّه قد تمّ التقابل بين الغرضين تحقيقًا لقوله تعالى في السورة الكريمة «بشيرًا ونذيرًا»، وهذا ما سيتم بيانه في الفقرة التالية بإذن الله تعالى.

المقابلة بين غرضي الترغيب والترغيب في السورة

لقد تمّ في سورتنا الكريمة عقد المقابلة بين الغرضين، تحقيقًا لوصف الله تعالى لكتابه بصفتي النذارة والبشارة في قوله تعالى:

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾^(١).

فهو بشير لمن آمن واتقى، ونذيرٌ لمن أعرض وتولّى.

وأوّل مقابلةٍ بين الغرضين تلحظ في أوّل السورة الكريمة في ذكرها لحال المشركين ومصيرهم في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾^(٢). أعقبها مباشرةً

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.

ذكر حال المؤمنين؛ لتتم المقابلة التي تؤثر في النفوس عندما تتصور حال المعرضين وتهديدهم، تبدأ تشوّف إلى معرفة حال من آمن كيف سيكون مصيره، فجاء قوله عزّ وجلّ مؤكداً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(١).

وأما المقابلة الثانية فإنها تأتي في ذكر قصة إهلاك كل من عاد وثمود.

حيث قوبلت بذكر حالة المؤمنين التي استثنيت من حالة الهالكين في قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾^(٢).

فالآية فيها بيان لحالة كل نفس تتطلع إلى معرفة حال كل من آمن من هاتين القبلتين كيف سيكون حاله؟ وفي هذا تقابل لطيف دقيق بين غرضي الترهيب والترغيب. حتّى إنّه يلحظ التقابل في السورة بين الحالتين المختلفتين اللتين تؤديان إلى عقد المقارنة المرغبة والمنذرة.

ومن ذلك مقابلة حال من ضلّ وأشرك، فكانت قرناؤهم الشياطين تزين لهم؛ حتّى خسروا أنفسهم، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾^(٣)، بحال من آمن واستقام، فكانت قرناؤهم الملائكة تثبتهم وتهديهم إلى طريق الخير والهداية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٤).

ومن هنا يتضح لنا الجمع بين الغرضين، حتّى نجد الآية

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

الواحدة تجمع بين النذارة والبشارة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

فقد جمعت بين صورتين فيها ترهيبٌ من النار، وترغيبٌ في الجنة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

وبهذه الشواهد يتضح للمتأمل مدى اهتمام القرآن الكريم بهذا الجانب من الجمع بين الغرضين تبشيرًا للمؤمنين، وتثبيتًا وترهيبًا للمعرضين، علّهم أن يرجعوا إلى جادة الصواب، وطريق الرشاد. وأسلوب الترغيب في السورة الكريمة قد امتاز بالهدوء والرقة والسلاسة.

وأما الترهيب فقد امتاز بالعنف والقوة في الألفاظ والحشد السريع.

وقد استخدم في الغرضين أساليب متعددة كالخبر والإنشاء، والحوار والجدال، وتشخيص المشاهد وتجسيدها.

رابعًا: غرض الذم:

وهو غرضٌ بارزٌ في السورة الكريمة، ويظهر جليًا في السورة في ذكر صفات المعرضين، من إشراكٍ وكفرٍ وضلالٍ. ولقد كثر وصفهم بالكفر في أكثر من موضع من السورة الكريمة، ويفهم من هذا الوصف الذم لهم بما يحقّقه كل سياقٍ وصياغةٍ جاء فيها هذا الوصف. هذا بالإضافة إلى ذكر الصفات الذميمة للإنسان الكافر التي نتجت عن صفة الكفر والشرك المتمكنة من خلقه وسائر أفعاله.

وأول ما يلقانا من ذم في السورة، ذم المشركين في إعراضهم

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

عن القرآن، ووصفهم بأنهم لا يسمعون؛ حيث نفى عنهم صفة السمع؛ لأن من لم يسمع القرآن فهو كالأصم الذي لا يسمع في الأصل، وهذا ما يتضح في قوله تعالى بعد وصف القرآن بالوصف الذي لا يليق إلا به: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١)؛ لأن هذا الكتاب الذي بلغ الغاية في الكمال لا يُعرض عنه إلا سفيه ضعيف النفس والعقل.

ومن هنا يفهم معنى الذم في الآية الكريمة.

ثانياً: ذمهم في منع الزكاة^(٢) وكفرهم بالآخرة حيث يظهر في ذلك التشنيع والتشهير بهم عبر التعريف بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣)، والإبهام في الموصول فيه ذم وتحقير لهم.

ثالثاً: ذمهم بوصفهم بصفة الكفر مطلقاً في عدة مواضع من السورة الكريمة، وهي قوله تعالى في الآيات التالية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾^(٤)،
 ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥)،
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٦)،
 ﴿كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾^(٧)، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا

(١) سورة فصلت، الآية: ٤.

(٢) المعروف أن الزكاة لم تفرض إلا على المسلمين، ولكن الطبري يقول: «والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه: لا يؤدون زكاة أموالهم، وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة، وأن قوله في ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ دليل على أن ذلك كذلك؛ لأن الكفار الذين عنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله» تفسير الطبري (٤٦٦/٢١).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٤١.

عَمِلُوا وَلَنْدِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ (١).

فالذم في الايات الكريمات يتضح في وصفهم بالكفر، وتعليقه بالاسم الموصول الذي يفهم منه التحقير، وفي إبهامه كما مرّ ذمّ لهم.

رابعًا: وصفهم بأنهم أعداء الله كما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٣)، يقول أبو السعود: «التعبير عنهم بأعداء الله تعالى؛ لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب» (٤).

خامسًا: ذمهم في ظنهم السيء برّبهم في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥). ويتضح الذم في إبراز الظن عبر اسم الإشارة التي ميزته وأبرزته، حيث إنّ هذا الظن قد بلغ بهم مبلغًا عظيمًا، حتّى كان سببًا في خسارتهم.

سادسًا: ظهر في السورة الكريمة ذمّ لأصنامهم عبر الإبهام في الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٦)، أي ضلت عنهم أصنامهم، فقد جاء إبهام ذكرها وإغفاله في الاسم الموصول «ما» تحقيرًا لها وتهكمًا بهم.

سابعًا: ذم الإنسان في صفاته السيئة.

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (٧) وَلَيْنَ أَدَقُّنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٨.

(٤) تفسير أبي السعود: (٩/٨).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٨.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾ . فالآيات الكريمة فيها تشخيص للطبيعة البشرية المتقلبة .

وجُلَّ الآيات تفيد أنها في الإنسان الكافر، وهذا ما يتضح عند الطبري في تفسيره لهذه الآيات^(٢) .

وذكر ابن عطية أنها نزلت في كفار قريش، وقيل في الوليد بن المغيرة، وقيل في عتبة بن ربيعة، وجل الآية يعطي أنها نزلت في كفار^(٣) . ومع ذلك فإن في هذه الآيات الكريمت بياناً لطبيعة النفس البشرية التي جبلت على حبِّ الخير والتمسك به «والخير في هذا الموضوع: المال وصحة الجسم»^(٤) .

وأما الصفات الذميمة التي وضحتها الآيات في الإنسان فهي كالتالي .

أولاً: اليأس والقنوط، وهذه صفة متركزة في الإنسان الكافر، وقد بولغ في هذه الصفة من طريقتين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير، والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس يتضائل وينكسر. أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل^(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾^(٦) ، فالآية الكريمة السابقة وصفت خلقين ذميين: «أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. ثانيهما: اليأس من رجوع النعمة عند فقدها»^(٧) .

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٩-٥١ .

(٢) تفسير الطبري (٢١/٤٩٠ وما بعدها).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي (٢٥/٢٢)، وانظر البحر المحيط (٧/٤٨٢).

(٤) تفسير الطبري (٢١/٤٩٠)، وانظر المحرر الوجيز (٥/٢٢)، روح المعاني (٢٣/٤).

(٥) تفسير الزمخشري (٤/١٩٩).

(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٧ .

(٧) التحرير والتنوير (١٢/٢٠٥).

ثانيًا: الآيات فيها ذم لتغير الإنسان وتبدل أحواله؛ حيث إنه «في جميع الأوقات متبدل الأحوال، متغير المنهج، فإن أحس بخير وقدرة، انتفخ وتعظم، وإن أحس ببلاء ومحنة ذبل»^(١).

ثالثًا: إنكار فضل المنعم وادّعاء هذا الفضل للنفس، وهذا خلق ذميم يزداد قباحة عند تجاهل الآخرة والشك فيها، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَيْن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾. وفي هذا الأسلوب كما يوضح صاحب التحرير والتنوير، استهزاء؛ حيث جعل رجوعه إلى الله أمرًا ضعيف الاحتمال، يؤكّد هذا استخدام (إن) الشرطية التي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك ووقوعه^(٢)، وهذا الخلق الذميم؛ هو خلق المشركين، يقتضيه دين الوثنية والشرك.

وهكذا نرى غرض الذم في السورة قد جاء منفردًا من الشرك والكفر والإعراض، وهذا ما يحقق للسورة هدفها في إيقاظ النفوس والفطر من نكسة الكفر وظلامه.

خامسًا: غرض التسلية:

جاء هذا الغرض في السورة مهتمًا بالنبي ﷺ، يخفف عنه ما يلاقه من عناء الدعوة، وشقاق قومه الذين جأهروه بالإعراض والعداء له ولأصحابه. لقد بينت السورة مدى ما وصلوا إليه من التمادي في الإعراض في قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءَاذَانَا وَقُرْءَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ﴾^(٣)، وهذا مما يزيد ﷺ حسرة على قومه وألما.

لقد اشتدت المواجهة في مقابلة الدعوة بالإعراض والصد، ومنع الناس عن محمد ودعوته، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ

(١) تفسير الرازي (١٣٧/٢٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠٥/١٢) وما بعدها.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾^(١). لقد بلغ بهم الحقد والعداء مبلغاً عظيماً.

لم تغفل السورة الكريمة ما كان يحتاجه عليه الصلاة والسلام هو وأتباعه من التسلية والتثبيت في هذه الظروف الحرجة من وقت الدعوة المتقدم.

وأول ما بلغنا من آيات التسلية في السورة للنبي ﷺ؛ قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٢). ففي الآية تهوين للأمر على الرسول ﷺ، وفي سبيل ذلك ترشده إلى أن موقف قومه منه موقف الأمم الماضية من إخوانه السابقين، وما عليه إلا أن يصبر كما صبروا، فلا تسمع لمقترحاتهم، ولا تهتم بكيدهم، فهم قوم لا يقون على حال^(٢).

فلننظر إلى موقع هذه الآية في السورة حيث جاءت بعد استيفاء الكلام عن المعرضين، وصور إعرضاهم لتثبيت النبي ﷺ، وأن عليه أن يصبر كما صبر إخوانه الرسل من قبله، حيث إن رسالتهم واحدة، وهدفهم واحد، وهو تبليغ دعوة الله، وهداية الخلق.

فقد لاقى (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) وبقية الرسل عليهم السلام هذا الإعراض من قومهم من تكذيب وسخرية وأذى، وما كان منهم إلا الصبر، وما أنت يا محمد إلا واحد منهم. ففي التسلية والأمر بالصبر شيء عظيم، يحمل على الثبات والعزم والمضي على الطريق، ولننظر إلى دور التعريف بالإضافة التي جاءت للتشريف والتسلية. في قوله «ربك»، وهذا مما يعضد غرض التسلية في الآية.

والآية الكريمة استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قبلها قوله

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) إلى القرآن الكريم؛ محمود شلتوت (مصر: دار الشروق، عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص (١٢٩).

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾^(٢). وما تخلل ذلك من الأوصاف، فيقول السائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بأن هذه سنة الأنبياء مع أممهم، لا يعدمون معاندين جاحدين، وهذا تسلية للنبي ﷺ بطريق الكناية، وأمر له بالصبر كما صبر من قبله الرسل بطريق التعريض واقتران الفعل «بقد» لتحقيق أنه قد قيل للرسول مثل ما قال المشركون للرسول ﷺ، وهو منظور إلى حال المردود عليهم، إذ حسبوا أنهم جابهو الرسول ﷺ بمالم يخطر ببال غيرهم^(٣). وفي قوله تعالى من الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤) تسلية له ﷺ يقول: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم ﴿وذو عقاب أليم﴾ يقول: وهو ذو عقاب مؤلم لمن أصرَّ على كفره وذنوبه، فمات على الإصرار على ذلك قبل التوبة منه^(٤).

ومن التسلية له ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِمَّنْهُ مُرِيبٍ﴾^(٥). فهذه الآية فيها تسلية للرسول ﷺ في تكذيب المشركين، وكفرهم بالقرآن، بأنه ليس بأوحد في ذلك، فقد اختلف قوم موسى في التوراة، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر وضلَّ، والاختلاف في التوراة أشدَّ من الاختلاف في القرآن «فالاختلاف في التوراة كان على نوعين: اختلاف فيما بين مؤمن بها وكافر، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه وبعض بني إسرائيل مثل قارون، ومثل

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١١/٣١٠).

(٤) تفسير الطبري (٢١/٤٨١).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة، واختلاف بين المؤمنين بها عطلوا به بعض أحكامها^(١) كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾^(٢).

وهذان الاختلافان فيهما بيان لدرجة الاختلاف في التوراة ، مالم يكن يبلغ ذلك في اختلاف المشركين في القرآن؛ لأن الله قد عصم كتابه، وتوعد بحفظه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣). فالتسوية للرسول ﷺ بهذا أوقع.

وهكذا نرى أسلوب التسوية كيف يكون، ومتى يكون، لقد أتى في السورة في المواقع التي تطلبت وأرادته فجاء ليؤدي غرضاً عظيماً في السورة؛ حيث زاد من عزمه ﷺ، وثباته، وغسل مافي قلبه من الآلام والأحزان، وهذا الغرض فيه بيان عظيم رعاية المولى بنبيه ﷺ وتشريفه، وبيان منزلته ومكانته عند ربّه الرحيم.

سادساً: التذكير بعظمة الله تعالى وقدرته:

جاء هذا الغرض منتشرًا في كل أجزاء السورة الكريمة وهو غرض قد تطلبه جوُّ السورة وموضوعاتها، فهو يتوافق مع الأحداث فيها. فقد جاء ليذكر المعرضين بأنهم يكفرون بإلهٍ عظيم، هو خالقهم، وخالق كل شيء، فضرهم ونفعهم بيده، فإن قلت: ما مناسبة هذا الغرض للسورة؟

ردّ عليك حال كفار قريش، وماهم فيه، وكان هذا أدعى إلى التذكير لهم بعظمة الله، وإبراز قدرته وكماله، كذلك لا ننسى أنّ التذكير بعظمة الله فيه تثبيت لكل من يدخل في هذا الدين؛ لأنّه سيعلم أنّه لا يعبد إلاّ عظيمًا، قد استحق العظمة والعبادة وحده لا

(١) التحرير والتنوير (١١/٣١٧).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

شريك له، فهو النَّافع الضار، المتصرف في كل شيء.
من هنا نعلم كيف ركزت السورة الكريمة على هذا الغرض
واستخدامته استخدامًا عظيمًا بارزًا. ولقد تمثل التذكير بعظمة الله
تعالى في جانبين اثنين في السورة هما:
أولاً: التعريف به تعالى بذكر صفاته الاسمية والفعلية.

فمن الأسماء (الرحمن، الإله، والله، والرب، والعزيز،
والعليم، والسميع، والحكيم، والشهيد، والمحيط)، وهذه الأسماء
تتضمن الصفات التالية وهي (الرحمة، والألوهية، والربوبية،
والعزة، والعلم، والسمع، والحكمة، والشهادة، والإحاطة).
ثانياً: التعريف به تعالى بذكر أفعاله من مثل الخلق والتدبير.

كما يتضح في ذكر الخلق الأوّل للسموات والأرض، وبيان
عظيم القدرة في خلقها، في مدّة وجيزة في قوله تعالى: ﴿قُلْ
أَيْنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الْأُخْرَىٰ بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (١).

هذه الآيات الكريمة تذكر المعرضين بعظيم وجلالة قدر من
يكفرون به ويشركون، إنّه الخالق للأرض بما فيها في يومين،
والخالق للسماء في يومين، وهذا الخلق مظهر من مظاهر القدرة
الباهرة، فكيف تسوون بين الخالق المبدع وهذه الأصنام الخسيسة أو
غيرها في الألوهية والمعبودية؟!.

ثمّ فصلّ تعالى بعض آثار عظمته وقدرته فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا
مِنْ فَوْقِهَا﴾ أي جعل فيها جبالاً شامخةً مثبّنة، تحفظ التوازن للأرض،

فهي ترسي الأرض فلا تميد وتضطرب بمن فيها .
ويستمر البيان والتفصيل في قوله تعالى : ﴿ وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أي أكثر من خيراتها، فأوجد فيها
الثمار والزرورع، والمياه، وما أودعه تعالى في باطنها من معادن
وغيرها، فجعل أرزاق العباد مقدرةً فيها في تمام أربعة أيام كاملة،
للسائلين المحتاجين، أو السائلين عن مبلغ الأجل الذي خلق الله فيه
الأرض^(١)، فالأرض مخلوقة في مدّة وجيزة، وهي تحت تصرف الله
وطاعته لا تملك غير ذلك. وهذا ما يتضح في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ ﴾ . فها هي السماء والأرض
تطيع، وأنتم أيّها المشركون لا تطيعون، فمن أنتم بالنسبة لهذا الكون
العظيم المنقاد لخالقه، وهكذا نرى أساليب القرآن في التذكير
بالعظمة تبلغ المدى من البيان الرفيع المحكم .
وما أجمل ختام آية خلق الأرض في قوله تعالى : ﴿ ذلك رب
العالمين ﴾ .

حيث يفيد اسم الإشارة للبعيد؛ البعد في المنزلة والعظمة،
مثلها مثل آية خلق السماء في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .
وهكذا يلحظ كلُّ متأمّل في السورة ما أدّاه دور هذا الغرض من
تثبيت على الدّين، وتعريف بالإله الواحد المعبود، وتشنيع وتفضيع
لحال المشركين، وما هم عليه من ضلال. وكلُّ أغراض السورة
الكريمة تترايط وتتّجد حول موضوع السورة العامّ، فما وجد في
السورة من ترهيب وترغيب وتذكير بالعظمة وبعد المنزلة للإله
الموجد كلُّه يوضح للمتأمل أنها جاءت لتقرر للنفوس حقيقة الألوهية
الواحدة لله رب العالمين، فقد حققت هذه الأغراض في السورة
الهدف الذي ترمي إليه .

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٤٣٨/٢١).

المبحث الثاني

الوحدة الموضوعية في سورة فصلت

ويشمل المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف الوحدة الموضوعية وكلام العلماء حول
المناسبة بين الآيات

المطلب الثاني: علم المناسبات والوحدة الموضوعية عند القدماء
والمحدثين

المطلب الثالث: وجه المناسبة ما بين سورة فصلت وسورتي
غافر والشورى

المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية في سورة فصلت

المطلب الأول تعريف الوحدة

الوحدة: بمعنى الانفراد.

ورجلٌ أحدٌ ووحدٌ ووحدٌ ووحدٌ ووحيدٌ ومتوحدٌ أي منفرد، وحكى سيبويه الوحدة في معنى التوحد، وتوحد برأيه: تفرّد به^(١).

واستعمل لفظ الوحدة في معنى الاتّحاد أي صيرورة الاثنين أو مافوقها واحداً، أي لا تعدد فيه ولا اختلاف ولا شك أنّ هذا هو هدف الوحدة، فإنّ التعدد ينافيها^(٢).

وأما الوحدة الموضوعية فمعناها: «أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك؛ بحيث إنّ كلّ جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف أي جزئية واحدة؛ لأنّ العمل الفني يستغنى عنها أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها»^(٣)؛ فالجزئيات متماسكة منجذبة نحو الهدف أو الموضوع المطروق الذي تتحدّ حوله، فينتج من ذلك وحدة موضوعية متكاملة.

وهذا من ناحية تعريف الوحدة الموضوعية وما تعنيه، وإذا أمعنا النظر في سور القرآن الكريم، وماهي عليه من حسن النظم والترتيب في الآيات، مع أنّها لم تنزل بهذا الترتيب على رسول الله ﷺ، فقد نزلت عليه الآية والآيتان والآيات والجزء من الآية بحسب الاقتضاء والمناسبة، فالقرآن الكريم قد نزل على رسولنا الكريم

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (وحد)، (٤٤٨/٣)، وانظر القاموس المحيط (٣٥٦/١).

(٢) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د/ محمد محمود حجازي (مصر: دار الكتب الحديثة، عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص (٣٣).

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، د/ حسن محمد باجودة (جدة: مطبوعات تهامة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص (٣٥).

منجمًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، إلا بعضه، كسورة الأنعام، فقد نزلت جملةً واحدة، كما يقول ابن عباس - رضي الله عنه -: «نزلت بمكة جملةً إلا ست آيات. وأنها نزلت وحولها سبعون ألف ملك. لهم زجل يجأرون بالتسبيح»^(١).

وبما أن القرآن الكريم قد نزل منجمًا، فكيف يكون هذا الائتلاف والتناسق بين آياته في كل سورة؟ كان الجواب على ذلك أن الرسول ﷺ كان يأمر بتوقيف من الله تعالى أن يضعوا آية كذا في موضع كذا حتى كان هذا التلاؤم التام، والبناء المعجز في ترتيب آيات الكتاب العزيز.

فترتيب الآيات توقيفي. حكى الزركشي الإجماع على ذلك في كتابه البرهان حيث يقول: «وأما ما يتعلق بترتيبه، فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة أوائلها فترتيب توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه»^(٢). ويقول السيوطي: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك»^(٣). والنصوص التي تثبت ذلك كثيرة، يذكر منه على سبيل المثال ما رواه الإمام أحمد بسند حسن «عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره، فقال: أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الوضع من هذه السورة»^(٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٥).

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية: ٢٦٥/٢.

(٢) البرهان للزركشي: (٢٥٦/١).

(٣) الإتيان للسيوطي: (١٧٢/١).

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢١٨/٤).

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٠.

المطلب الثاني علم المناسبات والوحدة الموضوعية عند القدماء

عندما نتحدث عن علم المناسبات ومن اهتم به من القدماء؛ نجد في البرهان للزركشي إشارة لهذا العلم وتعريف له، وبيان لأهميته.

فأمّا عن تعريفه وبيان مكانته، فيقول «اعلم أنّ المناسبة علمٌ شريف، تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، والمشاكلة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله»^(١).

والمراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة^(٢).

وعن فائدة هذا العلم يقول الزركشي: «وفائدته؛ جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»^(٣). ومرجع هذه المناسبة في الآيات والسور يعود إلى معنى ما، رابط بينهما، عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلائم الذهني، كالسبب والمسبب والعلّة والمعلول...^(٤).

ثمّ نجده كذلك يبين وجه ارتباط الآي بعضها ببعض، فإمّا أن يكون ظاهر الارتباط، إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد

(١) البرهان للزركشي: ٣٥/١.

(٢) مباحث في علوم القرآن، متاع خليل القطن: ٩٧.

(٣) البرهان للزركشي: ٣٥/١، الإتيان للسيوطي (٣/٣٢٣).

(٤) البرهان: (٣٥/١).

والتفسير، أو الاعتراض والتشديد، ونراه لا يفصل هنا، بل يقول: وهذا القسم لا كلام فيه. لاتضحاه، ثم ذكر القسم الآخر الذي لا يظهر الارتباط فيه، بل يظهر أنّ كلّ جملة مستقلة عن الأخرى، وهو ما شرح فيه، وبين وجوه الارتباط فيه بالتمثيل والتحليل^(١).

وأول من أظهر علم المناسبة ونبه إلى جلالته قدره، وعاب العلماء على تقصيرهم في الكشف عن أسراره الإمام أبو بكر النيسابوري^(٢).

قال الشيخ: أبو الحسن الشهرستاني^(٣): أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم تكن سمعناه من غيره؛ هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد؛ لعدم علمهم بالمناسبة^(٤).

ومن أشهر من أفرد هذا العلم بالتصنيف؛ أبو جعفر بن الزبير الأندلسي النحوي^(٥). في كتابه «البرهان في تناسب سور القرآن»، ولقد أشار إليه كلٌّ من الزركشي والسيوطي في كتابيهما^(٦) يليه

(١) المصدر السابق (١/٣٥ وما بعدها)، وانظر: الإتقان للسيوطي (٣/٣٢٢).

(٢) هو عبدالله بن محمد بن زياد بن واصل الفقيه الشافعي، كان إمام الشافعية بالعراق، رحل في طلب العلم إلى الشام ومصر، ثم استقر في بغداد، توفي سنة (٣٢٤هـ)، انظر: اللباب: (٣/٢٥٢)، طبقات القراء: (١/٤٤٩)، شذرات الذهب (٤/١٢٩).

(٣) شهربان: قرية شرقي بغداد، ينسب إليها الكثير من العلماء (معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٤٢٥)).

(٤) البرهان للزركشي (١/٣٦)، ولإتقان للسيوطي (٣/٣٢٢).

(٥) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن الثقفي، ولد سنة (٦٢٧هـ)، صاحب كتاب الذيل على الصلة، توفي سنة (٨٠٧هـ)، انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/٢٩١).

(٦) انظر: البرهان للزركشي (١/٣٥)، ولإتقان للسيوطي (٣/٣٢٢).

الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سمّاه «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»^(١).

لقد خصّص البقاعي - رحمه الله تعالى - كتابه كلاً في هذا المجال، وقد اهتم فيه بالإشارة إلى المقصود من كلّ سورة ذلك المقصود هو الغرض الذي يمثل الروح الساري بين أجزاء السورة، والذي يتمثّل فيه تناسب الأجزاء وترابطها، كذلك نجده يُبيّن مناسبة هذا المقصود لاسم السورة، وينظر كذلك إلى تطابق المقدمة مع الخاتمة، وجمال تناسبها.

يقول: «وقد ظهر لي أنّ اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها؛ لأنّ اسم كلّ شيء. تظهر المناسبة فيه، ويبين سمّاه؛ عنوانه الدالّ إجمالاً على تفصيل ما فيه، ومقصود كلّ سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كلّ سورة، وأطبّق بينه وبين اسمها، وأفسّر كل بسملة بما يوافق مقصود السورة، ولا أخرج عن معاني كلماتها»^(٢).

وعمله عملٌ جليل. والمتطلّع إلى هذا المؤلف، يلحظ أنّ المصنّف - رحمه الله - قد اعتمد اعتماداً كلياً في ذكر المناسبات بين السور على صاحب البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الأندلسي، في كلّ سور القرآن، من أوّل سورة إلى آخر سورة، وهذا يدل على عقلية ابن الزبير في الربط، وبصيرته التي بصّره الله بها، وكل توفيق كان فبفضل الله، يؤتاه من يشاء من عباده.

ومن الذين اعتنوا بعلم المناسبات ابن العربي^(٣)، نقل عنه الزركشي والسيوطي قوله: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتّى

(١) ذكره السيوطي في الإتقان (٣/٣٢٢).

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ١٨/١.

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبدالله المعافري، المعروف بابن العربي من علماء إشبيلية، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر: الصلة، ترجمة رقم: ١١٨١.

تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علمٌ عظيم، لم يتعرض له إلا عالمٌ واحدٌ عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عزوجل لنا فيه، فلمّا لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطولة؛ ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه^(١).

يقول الزركشي: وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع؛ لدقته. وممّن أكثر منه الإمام الفخر الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط^(٢).

وممّن له إشارات واضحة حول الموضوع الواحد للسورة أو الغرض الواحد الذي تلتحم حوله أجزاء السورة، الإمام الشاطبي^(٣) رحمه الله تعالى في كتابه الموافقات، ومن ذلك قوله: «إنّ الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدًا بكلّ اعتبار، بمعنى أنّه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل^(٤). ثمّ ذكر أنّ سورة البقرة نزلت في قضايا متعدّدة؛ ولكنّها كلام واحد باعتبار النظم، وسورة (المؤمنون) نازلة في قضية واحدة، وإن اشتملت على معانٍ كثيرة.

ثمّ نراه يطبّق ذلك على سورة (المؤمنون) موضّحًا أنّ الغرض السائد فيها، والذي غلب على نسقها هو ذكر إنكار الكفّار للنبوة، فكانت السورة تبين وصف البشرية وماتنازعوا فيه منها، وبأي وجه تكون على أكمل وجوها؛ حتّى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله

(١) البرهان للزركشي: (٣٦/١)، والإتقان للسيوطي (٣/٣٢٢).

(٢) البرهان للزركشي (٣٦/١).

(٣) هو إبراهيم بن موسى بن محمّد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ من مؤلفاته: الموافقات، والمجالس، والإفادات، والإنشاءات، وغيرها. توفي سنة (٧٩٠هـ). انظر الأعلام للزركلي: (٧٥/١).

(٤) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، شرح عبدالله دراز وآخرون. (بيروت: دار الكتب العلمية) (٣/٣١٠).

تعالى، ثمّ نجده يبين الربط بين أجزاء السورة حول هذا المعنى والغرض، ويلحظ أنّه يشير - رحمه الله - إلى فتح باب النظر إلى السورة نظرة كليّة حيث يقول: «فهذا النظر إذا اعتبر كليّاً في السورة وجد على أتمّ من هذا الوصف؛ لكن على منهاجه وطريقه. ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن؛ فالباب مفتوح، والتوفيق بيد الله، فسورة المؤمنون قصّة واحدة في شيء واحد»^(١).

فهو هنا ينبّه على أنّ هذه الطريقة التي استخدمها في سورة (المؤمنون) يمكن أن تُتبع في سائر السور، والتوفيق بيد الله، وهذا الكلام يدل على سعة ماتوصل إليه الشاطبي في مجال توجه السورة إلى الوحدة في الموضوع والغرض.

أمّا الزركشي فقد خصص - رحمه الله - في كتابه البرهان فصلاً كاملاً في (معرفة المناسبات بين الآيات)^(٢).

وكذلك نجد السيوطي يذكر فصلاً في (مناسبة الآيات والسور) ذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في البرهان، وزاد عليه في الأمثلة^(٣).

ولقد أشار في كتابه الإتقان إلى الموضوع الواحد للسورة أو الغرض الواحد، حيث يشير إلى ذلك، نقلاً عن بعض العلماء المتأخرين.

يقول: «قال بعض المتأخرين: الأمر الكليّ المفيد لعرفان مناسبات الآيات جميع القرآن؛ هو أنّك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر

(١) المصدر السابق: ص(٣١٣، ٣١٤).

(٢) البرهان للزركشي (١/٣٥-٥٢).

(٣) الإتقان للسيوطي (٣/٣٢٢، ٣٣٤).

عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يتبعه من استشراف السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيم على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية، في كل سورة سورة^(١).

وهذا الكلام السابق نجده مذكوراً عند البقاعي المتقدم على السيوطي في هذا الفن، حيث يبين في كتابه نظم الدرر بأن هذا الكلام هو القاعدة والركيزة التي انطلق منها في كتابه^(٢).

ومن مؤلفات السيوطي في هذا المجال، كتاب «سماء تناسق الدرر في تناسب السور».

وفيه يتحدث عن تناسب السور، وهو الكتاب الثاني الذي عني بهذه الناحية بعد كتاب أبي جعفر ابن الزبير.

وهو كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة، تقع النسخة المحققة منه في مائة وخمسين وتسعين ورقة، ذكر فيه آراء العلماء في ترتيب السور، مع ذكر الأدلة التي استدلوها بها، ثم ذكر رأيه كما ظهر له، وكان ذلك في مقدمة الكتاب. ابتداءً بعد ذلك في سرد مناسبات السور على حسب ترتيبها في المصحف العثماني^(٣). وذكر في كتابه الإتيان بأن له جزءاً لطيفاً سماه «مراصد المطالع في تناسب المقاطع»^(٤). كما نجده ينقل عن بعض العلماء ملاحظاتهم في مناسبة فواتح الآي وخواتيمها، والأمثلة على ذلك^(٥).

(١) المصدر السابق (٣/٣٢٨).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١/١٨).

(٣) ينظر: تناسق الدرر في تناسب السور، للعلامة جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش. (ط٢، بيروت: عالم الكتب، عام ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م) ص (٢٧، ٣٣).

(٤) الإتيان (٣/٣٣٠).

(٥) المصدر السابق (٣/٣٠ وما بعدها).

المطلب الثالث

علم المناسبات والوحدة الموضوعية عند المحدثين

وأما عند المحدثين فإنه يلحظ لبعضهم إشارات طيبة وموفقة في هذا المجال من الدراسات القرآنية، فقد أُلّف في المناسبات بين السور، كتابٌ اسمه «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» لعبدالله بن محمّد الصديق الغماري، والكتاب يعتني بالمناسبة بين السور، وهذا هو هدفه، ولم يذكر المناسبة بين الآية والآية في السورة؛ لأنّه ليس من موضوعه، والمؤلف فيه متأثر بكتاب السيوطي «تناسق الدرر» وخاصّة في ذكره للمناسبات بين السور الأربع الطوال، حيث نقل فيها عبارة السيوطي حرفياً، وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب العلمية؛ فإنّه قد جمع القديم، وصاغه في أسلوبٍ يناسب العصر فوق ما فيه من ابتكارات^(١).

وممّن أُلّف من المحدثين في مجال البحث عن وحدة الموضوع وتناسب أغراض السور؛ ابن شهيد ميسلون^(٢) في كتاب أسماه «نظرة العجلان في أغراض القرآن»، يقول في سورة الفاتحة «فمن عرف أغراض القرآن الأصلية في الفاتحة؛ عرف وحدة الموضوع في كلّ سورة»^(٣).

والكتاب فيه إهمال للجانب الذي من أجله أُلّف، وهو الترابط بين نجوم السورة؛ وذلك لأنّ المؤلّف قد أهمل الجانب الروحي الذي يشد السورة، ويجذب أيها جذباً شديداً، حتّى تصير كالبيان

(١) ينظر: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، د/ محمّد أحمد يوسف القاسم، ص(١٧٢).

(٢) هو محمّد بن كمال أحمد الخطيب.

(٣) نظرة العجلان في أغراض القرآن، ص(٨).

المرصوص، بحيث لو أُزيلت منها آية أو وضعت في غير مكانها لاختلَّ بناؤها، فهذا الجانب قد أهمله المؤلف، حيث عرض موضوعات السورة سرداً^(١) دون النظر إلى الترابط بين الموضوعات التي تنتظم حول الغرض الواحد، وفي هذا إهدارٌ للهدف الأساسي من تأليف الكتاب.

وأما في مجال التفسير؛ فإنه يلحظ لسيد قطب - رحمه الله - في كتابه الظلال، إشاراتٌ واضحة حول الموضوع الواحد للسورة، أو المحور الواحد؛ وهذا ما يتضح من خلال كلامه عن ذلك في قوله: «إنَّ لكلِّ سورةٍ من سورهِ شخصيةً مميزةً. شخصية لها روحٌ حيٌّ مميّزٌ، يعيش معها القلب، ولها موضوعٌ رئيسيٌّ أو عدّة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محورٍ واحدٍ»^(٢). وهو على امتداد كتابه الظلال يهتم بهذا الجانب في مقدّمة كلِّ سورة.

ومن المفسرين المهتمين بهذه الجوانب السيد محمّد حسين الطباطبائي في كتابه «الميزان» حيث يشير إلى وحدة الموضوع في السور القرآنية، بقول «ثمَّ إنَّه سبحانه كرَّر ذكر السورة في كلامه كثيراً، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً﴾^(٥)، وقوله: ﴿سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾^(٦).

فبان لنا من ذلك: أنَّ لكلِّ طائفةٍ من هذه الطوائف من كلامه «التي فصلها قطعاً قطعاً، وسمّى كلَّ قطعةٍ سورة» نوعاً من وحدة

(١) ينظر: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٢٨).

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٤) سورة هود، الآية: ١٣.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٨٦.

(٦) سورة النور، الآية: ١.

التأليف والتمام، لا يوجد بين أبعاض من سورة، ولا بين سورةٍ وسورةٍ، ومن هنا نعلم: أنّ الأغراض والمقاصد المحصلة من السُورِ مختلفة، وأنّ كلّ واحدةٍ منها مسوّقةٌ لبيان معنى خاص، ولغرضٍ محصل، لا تتم السورة إلاّ بتمامه؛ ولهذا فالبسمة في مبتدأ كل سورةٍ راجعةٌ إلى الغرض الخاصّ من تلك السورة»^(١). فهو يوضّح هنا أنّ كلّ سورةٍ لها غرضٌ خاصٌّ، لا تتم السورة إلاّ بتمامه، وبهذا الغرض تتحدّ الأجزاء، وتتناسب، وأنّ السورة فيها وحدة التأليف والتمام.

ومن له في هذا المجال لمحاتٌ موفّقة ومسددة في الحديث عن وحدة الموضوع في سور القرآن. الدكتور: محمّد عبدالله دراز في كتابه «النبأ العظيم»، حيث يقول: «اعمد إلى سورةٍ من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثمّ ارجع البصر كرّتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعهما وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدّماتها بنتائجها، ووطأت أولها لأخراها؟

وأنا لك زعيمٌ بأنك لن تجد البتّة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجمٍ واحدٍ أم في نجومٍ شتّى»^(٢).

فيلمس من خلال حديثه هذا نظرته إلى اتحاد أجزاء السورة والتحامها، وإن اشتملت على أكثر من معنى. ثمّ إنّّه يلاحظ هذا التلاحم، ويمثل له بالحجرات والأفنية، يجمعها بنيانٌ واحد، قد

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي، (لبنان، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، عام ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م) (١/١٦).

(٢) النبأ العظيم، د/ محمد عبدالله دراز (الكويت: دارالقلم) ص (١٥٤).

وضع رسمه مرّةً واحدةً، ثمّ نراه لا يرضى هذا المثال، حيث يقول: «ولماذا نقول إنّ هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنّها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كلّ قطعةٍ وجارتها رباطٌ موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج، تحيط بهما عن كثر، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كلّه يسري في جملة السورة اتجاهاً معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية»^(١).

ثمّ نجده يطبق هذا الكلام تطبيقاً عملياً على سورة البقرة^(٢).

هذا ويلحظ له كلامٌ عن الموضوع الواحد للسورة، في كتابه «المدخل إلى القرآن الكريم» أصرح، حيث يقول «فالواقع أنّنا وجدنا أكثر ممّا كنّا نتطلب من بحثنا. فقد كنّا نبحث عمّا إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة. ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنّ هناك تخطيطاً حقيقاً واضحاً ومحددًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة.

فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثمّ يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنّما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيرًا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»^(٣).

(١) المصدر السابق: ص (١٥٥).

(٢) المصدر نفسه: ص (١٦٣) وما بعدها.

(٣) مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليلي مقارنة، د/ محمد عبدالله دراز، ص (١١٩).

وهو مادَّل عليه في تطبيقه على سورة البقرة المدنية،
ولسورتين مكيتين هما سورتا (يونس وهود)، ويذكر أنه لم يكن
اختياره لهذه السور عن مقصد لها بالذات من دون سور القرآن^(١).
وممَّن له إشارة واضحة في اتجاه السورة إلى الغرض الواحد؛
الدكتور: أحمد أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن الكريم» حيث
يقول «ولكل سورة في القرآن هدف ترمي إليه. فنجد سورة الأنعام
تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوة رسوله. وإبطال مذاهب المبطلين،
وما ابتدعوه من تحليل حرام أو تحريم حلال، وتجد سورة الأعراف
تتجه إلى الإنذار والاعتاظ بقصص الأولين وأخبارهم، وهكذا تجد
هدفًا عامًا، تدور حوله السورة، وتتبعه معانٍ أخرى تؤكد
ويستتبعها، ويخلص الإنسان في السورة من معنى إلى آخر، خلوصًا
طبيعيًا لا عسر فيه ولا اقتسار»^(٢). ونراه يحلّل سورة المزمّل ويبين
الهدف العام منها. وارتباط الآيات واتساقها نحو هذا الهدف،
والغرض في السورة، وعدم خروجها عليه^(٣).

كذلك نجد الدكتور محمد محمود حجازي يشير إلى وحدة
الموضوع في كتابه «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم»؛ حيث
يقول: «وأنت تقرأ السورة فلا تحس بنشاز أو نفور، ولا تدرك
انقطاعًا أو انفصالًا، بل تجد السورة كأنها صورة رابطة جميلة، أو
بناءً تامًّا متكاملًا لا نقص فيه ولا زيادة؛ كأنّ هذه الآية نقلت من مكان
معلوم برقم معلوم؛ لتوضع في مكانها المعروف»^(٤).
ثم نراه يطبّق هذه الوحدة الموضوعية على سورة (الحجر)

(١) ينظر المصدر السابق، ص (١١٩).

(٢) من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد أحمد بدوي (مصر، لجنة البيان العربي بالقاهرة، عام
١٣٧٠هـ، ١٩٥٠م) ص (٢٣٤).

(٣) المصدر السابق: (٢٣٤، ٢٣٨).

(٤) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص (٥٨).

المكيّة، ويبيّن أنّها كبقية السور المكيّة التي تعرّضت لقضايا العقيدة؛ إلاّ أنّ لها طابعًا خاصًا تمتاز به؛ وهو تثبيت نبوة محمد ﷺ، ثم يبين هذا الطابع على امتداد السورة الكريمة، ويقول إنّه لقرآن كريم، تراه وقد جمع هذه الآيات المتباينة وصورها بصورة واحدة، وجمعها في إطار واحد، وأدخل بعضها مع بعض؛ كأنّها نزلت مرّة واحدة، وتراه ينتقل في السورة الواحدة من غرض إلى غرض، ومن وادٍ إلى وادٍ مع إحكام الربط وكمال الوصل^(١).

ويأتي الصابوني ليفرد كتابًا خاصًا في البحث عن الغرض الذي تدور حوله السورة، أسماه «إيجاز البيان في سور القرآن»^(٢)؛ ولكنّه مع بيانه لغرض كلّ سورة من السور لم يحاول التوصل إلى ربط أجزاء السورة حول الغرض الأساسي من كلّ سورة. وهو كذلك يفعل في كتابه «قبس من نور القرآن الكريم» مع توسع أكثر؛ ولكنّه مع ذلك يذكر المواضيع مسرودة في كلّ سورة، ولا يربطها بالهدف العام للسورة الكريمة^(٣).

ونجد للدكتور عبدالله محمود شحاته كتابًا أسماه «أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن»؛ ولكنّه لم يتقدم فيه إلى بحث وحدة الموضوع والهدف الذي تنتظم حوله السورة، ولقد اعتمد في كتابه هذا في أهداف كلّ سورة على الظلال اعتمادًا كليًا، وأمّا المقصود من كلّ سورة؛ فقد اعتمد في ذلك على كتاب البصائر للفيروزآبادي^(٤).

(١) ينظر: المصدر السابق: ص(٥٦).

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن، محمّد علي الصابوني (دار الصابوني، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٣) قبس من نور القرآن الكريم دراسة تحليلية موسّعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة، للشيخ محمد علي الصابوني. (ط٤، بيروت: دارالقرآن الكريم، عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

(٤) أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د/عبدالله محمود شحاته (المكتبة المصرية العامّة للكتاب، مصر، عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م). (ج٢).

ولأستاذنا الدكتور حسن محمد باجودة في هذا المجال؛ دراسة عميقة للوحدة الموضوعية في سورة يوسف، تمتاز بالنظرة الفنية إلى الوحدة الموضوعية وترابطها في السورة الكريمة، حيث قسّم العمل إلى أربعة فصول، ذكر في الأوّل وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف، وفي الفصل الثاني: ذكر الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية، وفي الفصل الثالث: ذكر شخصية يوسف عليه السلام. وفي الفصل الرابع: ذكر المجتمعات في سورة يوسف عليه السلام، وبهذه النظرة والتقسيم كانت الدراسة للوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام^(١).

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، للدكتور حسن محمد باجودة. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، مطبوعات تهامة (ص ١٠٣).

المطلب الرابع

مناسبة سورة فصلت لسورتي غافر والشورى

أمّا وجه مناسبتها لسورة غافر، فيقول في ذلك الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير: «لَمَّا تَضَمَّنَتْ سُورَةُ غَافِرٍ بَيَانَ حَالِ الْمُعَانِدِينَ وَجَاحِدِي الْآيَاتِ، وَأَنَّ ذَلِكَ ثَمَرَةُ تَكْذِيبِهِمْ وَجِدَالِهِمْ، وَكَانَ بِنَاءُ السُّورَةِ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ بِدَلِيلِ افْتِتَاحِهَا وَخَتْمِهَا بِذَلِكَ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(١)، وتأنيس نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴾^(٢)، فقد تقدّم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الوبيل: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾^(٣)، فعصمتهم واقية ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾^(٤)، ثمّ قال تعالى: ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾^(٥)، أي فكيف رأيت ما حلّ بهم وقد بلغك خبرهم؟ فهلاً اعتبر هؤلاء بهم؟ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾^(٦)، وإنّما أخذهم بتكذيبهم بالآيات^(٧) ويستعرض بقية الآيات التي تبين غرض السورة وهو بيان حال المعاندين، وجاحدي الآيات، ذكر بعدها مناسبة ذلك لسورة فصلت حيث يقول:

(١) سورة غافر، الآية: ٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٥) سورة غافر، الآية: ٥.

(٦) سورة غافر، الآية: ٢١.

(٧) البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي. تقديم وتحقيق د/ سعيد الفلاح، (تونس: الجامعة الزيتونية من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ص (١٦٧-١٦٨).

«فلمَّابنيت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تحدت بها العرب، وقامت بها حجة الله سبحانه على الخلق، وكان قد قيل لهم: احذروا ما قدّم لكم، فقد جاءكم محمد ﷺ بأوضح آية، وأعظم برهان: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ثمّ يستمر في سرد الآيات الخاصة بالقرآن في السورة الكريمة.

ويبين أنّ ما ذكر مجملًا في سورة غافر في بيان هلاك من عاند وكذب من الأمم السابقة. ذكر مفصّلًا في سورة فصلت من مثل التفصيل في ذكر عذاب كلّ من عادٍ وثمود. ويقول بعدها فاعتضد بذلك التحام السورتين، واتصال المقصدين، والله أعلم^(١).

فتلك في ذكر المعاندين وجاحدي الآيات، وهذه السورة الكريمة في ذكر الكتاب المنزل، والتنويه بشأنه، وموقف المعرضين منه، وما ذكر فيها من إنذار بالعذاب في الدنيا والآخرة. وفي مناسبة سورة فصلت لسورة الشورى التي جاءت بعدها يقول الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير في ذلك «لما ضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان حال المعاندين والجاحدين، وأعقب بسورة السجدة بيانًا أنّ حال كفّار العرب في ذلك، كحال من تقدّمهم، وإيضاحًا لآية الكتاب العزيز، وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، أتبع السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أنّ ذلك كله إنّما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾^(٢)، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١﴾ ﴾^(٣)،

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص: (١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٦.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(١) ، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾^(٢) ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾^(٣) ، ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٤) ، ﴿ وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٥) ، ﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغَ ﴾^(٦) ، ﴿ تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾^(٧) .

فتأمل هذه الآي، وما التحم بها ممّا لم يجر في السورة المتقدّمة منه إلا النادر، وبحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها، يلخ لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها، ولما ختمت سورة السجدة بقوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾^(٨) أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعالیه عن ريبهم وشكهم، فقال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾^(٩)، كما أعقب بمثله في قوله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾^(١٠) ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾^(١١) ، فقال: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرُنَّ مِنْهُ ﴾^(١٢) ، ولما تكرّر في سورة حم السجدة ذكر تكبّر المشركين وبعد انقيادهم^(١٢) في قوله: ﴿ فَأَعْرَضَ

(١) سورة الشورى، الآية: ٨ .

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٤ .

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٩ .

(٤) سورة الشورى، الآية: ٣١ .

(٥) سورة الشورى، الآية: ٤٦ .

(٦) سورة الشورى، الآية: ٤٨ .

(٧) سورة الشورى، الآية: ٥٢ .

(٨) سورة فصلت، الآية: ٥٤ .

(٩) سورة الشورى، الآية: ٥ .

(١٠) سورة مريم، الآية: ٨٨، ٨٩ .

(١١) سورة مريم، الآية: ٩٠ .

(١٢) البرهان في تناسب سور القرآن، ص (١٧٠، ١٧١) .

أَكْثَرَهُمْ فَهَمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾^(١) ، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾^(٢) ، إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم، قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾^(٣) ، والحقيقة أن كل سور ال (حم) بينها مناسبة عظيمة وثيقة فكل السور تبدأ بالحروف المقطعة «حم» ويتبعها ذكر القرآن وتنزيله، ووصفه بصفات البيان والحكمة والكرامة، وإحكام الآيات، ثم إن هذه الحروف المقطعة هي آية برأسها في جميع سور الحواميم، تعبر عن إعجاز القرآن الكريم، وهذه الحروف باعتبارها آية واحدة، تؤدي هذا المعنى بالتعيين، ولو تتبعنا نهايات هذه السور مثل تتبع أوائلها، لوجدنا ما يشير أو يصرح بذكر القرآن الكريم، أو الإشارة إلى ما يتعلق بأمره، فلننظر إلى خاتمة سورة الشورى، حيث نجد فيها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٤) ، فاختمت السورة بالحديث عن القرآن.

وكذلك نلاحظ هذا الأمر نفسه في سورة الدخان، حيث يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٥) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾^(٥) .

واختمت سورة الجاثية بالتهديد لمن كذب بآيات الله واتخذها هزواً، في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اخْتَدْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٥٨، ٥٩.

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾ (١).

كذلك نجد في سورة الأحقاف حديثاً عن القرآن في آخرها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢).

وهكذا نجد التلاحم الظاهر بين هذه السور الكريمة فمقدماتها في نسقٍ جميل متلائمٍ متتابع في روعة متناهية، فهو عن القرآن الكريم، وعن تنزيله، وأنه من لدن حكيمٍ خبير، وجاءت خواتم هذه السور لتوافق ما ابتدأت به من حديث عن القرآن، يبين أن غرض هذه السورة الكريمة كلها غرض واحد - والله أعلم -.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

المطلب الرابع الوحدة الموضوعية في سورة فصلت

(أ) توضيح مافي السورة من موضوعات جزئية

عنيت السورة الكريمة بالحديث عن تقرير التوحيد والرّسالة، واليوم الآخر، وبسطت القول فيها، وضمنته الترهيب والترغيب. «فكل مافي السورة الكريمة ماهو إلّا شرح لهذه الحقائق واستدلال عليها، وتحذير من التكذيب بها، وعرض لمشاهد المكذبين من الأمم السابقة، ولمشاهد المكذبين يوم القيامة، وتبين أنّ المكذبين من الجنّ والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق، ولا يستسلمون لله وحده بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة كلهم يسجدون لله ويخضعون لأمره ويستسلمون»^(١).

والعرض الآتي سيوضح لنا مدى اهتمام السورة الكريمة بهذه الحقائق الثلاث، وهذه الحقائق متداخلة في السورة يصعب فصلها فصلاً كاملاً؛ لذا فإنّ توزيع الآيات عليها لن يكون ثمّة كاملاً، وإنّما سيكون على نحو من التجاوز. ففي مجال التوحيد وردت الآيات التالية: ٢، ٦، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٣، ٥٤.

وفي تدعيم التوحيد ما ذكر من آيات القدرة الباهرة والحكمة البالغة الآيات: ٩، ١٠، ١١، ١٢، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٥٣.

وفي مجال الرّسالة والحديث عن القرآن الآيات: ٢، ٤، ٥، ٢٦، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٥٢.

وفي تدعيم الرّسالات وموقف المعرضين من أهل مكّة وعاد وثمرود وقوم موسى الآيات: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٨، ٢٦، ٣٨، ٤٣، ٤٦.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٠٥).

وفي مجال اليوم الآخر من بعث وحساب، وثواب وعقاب الآيات: ٧، ٨، ١٦، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٤٩.

ويتبع هذه الحقائق حديث خاص عن الإنسان ذو شعبتين متكاملتين، الأولى توجيهات كريمة في تربية شخصية المسلم وإعداده للدعوة. وفيها الآيات: ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦. والثانية في الإنسان اليؤوس القنوط الكفور، وفيها الآيات: ٤٩، ٥٠، ٥١^(١).

فهذه المعاني الثلاثة التي بسطت السورة فيها القول ترجع إلى أصل واحد، وهو العقيدة أو كما بين الإمام الشاطبي بأنها الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، حيث يشير إلى وحدة الموضوع في السور المكيّة بعامة في قوله: «وغالب السور المكيّة، تقرّر ثلاثة معان، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله وتوحيده». ثم ذكر الثلاثة المعاني وهي تقرير الوحدانية، والنبوة وأمر البعث.

وقال: «هذه المعاني هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامّة الأمر، وما ظهر - بباديء الرأي - خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنار، ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك»^(٢).

فمن هنا يتبين ظهور الوحدة الموضوعية في العقيدة أو الدعوة إلى التوحيد؛ ولكن مع هذا كله وبعد هذا البيان الواضح للعيان في كون وحدة الموضوع في السورة الكريمة، حول العقيدة؛ إلاّ أنّه

(١) انظر: تفسير سورة فصلت، د/محمد صالح علي(دار النفائس للنشر والتوزيع) ص(٣٦،٣٥).

(٢) الموافقات للشاطبي: (٣/٣١١، ٣١٢).

يلحظ أنّ لسورة فصلت طابعًا خاصًا، وغرضًا أدق، تتميز به السورة عن غيرها من السور المكيّة. التي تشاركها في الاهتمام بأمر العقيدة وتقريرها. وهذا الغرض هو «الاهتمام بالكتاب المنزل والرد على مواقف المعارضين عنه»، حيث نلاحظ أنّ هذا الغرض قد ساد على أجزاء السورة الكريمة، كما سيُضحّ بأمر الله تعالى خلال استعراض الآيات، يقول ابن الزبير - رحمه الله - في هذه السورة: «تضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره، وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها، كما أنّها في الفصاحة تبهر العقول لأوّل وهلة، ولا يمكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى توقف، ولا يجول في وهمه إلى معارضة بعض آياتها أدنى تشوف»^(١). هذا ويلحظ أنّ البقاعي يذكر أنّ مقصود السورة الكريمة هو: «الإعلام بأنّ العلم إنّما هو ما اختاره المحيط بكلّ شيء: قدرةً وعلمًا من علمه لعباده فشرعه لهم فجاءتهم به عنه رسله، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله، والاستقامة على طاعته»^(٢). فهو يشير إلى الكتاب المنزل، فهو العلم الذي شرعه الله وجاءت به رسله، ثمّ بيّن البقاعي أنّ سورة غافر اختتمت بأنّ الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل، وأنّ سورة فصلت افتتحت بالقرآن، وأنّه رحمة لمن كان له علمٌ وله قوّة توجب له القيام فيما ينفعه^(٣).

ولقد عني البقاعي في السورة الكريمة بالربط بين الآيات، ولم تتجه همّته إلى ربط آيات السورة تحت غرضٍ واحدٍ، وسيأتي بأمر الله بيان ترابط الآيات حول الغرض من السورة، والسور التي تفتتح

(١) البرهان في تناسب آي القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، ص(١٦٨، ١٦٩). وانظر:

نظم الدرر للبقاعي (١٧، ١٣٩).

(٢) المصدر نفسه: (١٧/١٣٤).

(٣) المصدر نفسه: (١٧/١٣٥).

بالحروف المقطّعة مكملة للتحدي بالقرآن الكريم، ومتممة لإعجازه. يقول ابن كثير: «كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن. وبيان إعجازه وعظمته»^(١).

بل نجد للباقلاني في كتابه إعجاز القرآن دراسة أعمق في اتحاد أجزاء السورة حول القرآن وحجته، يقول في السور المفتحة بالحروف المقطّعة: «كثير من هذه السور إذا تأملته، فهو من أوّله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته»^(٢).

ثمّ نجده يطبق ذلك على سورتي غافر وفصلت: «والباقلاني لمّا قام بتحليل سورتي (غافر وفصلت) تحليلاً يوضّح الترابط بين آيات كلّ سورة منهما، والوحدة الفنية المتمثّلة في هذا الترابط، وهو وإن لم يقصد ذلك، بل قصد الاستدلال على أنّ السورتين من أولهما إلى آخرهما مبنيتان على (لزوم حجة القرآن والتنبيه على معجزته)؛ إلاّ أن التحليل الذي قام به للسورتين يدل دلالةً قاطعة على تلك الوحدة، إلى جانب ما أراده ورمى إليه في الأصل»^(٣).

وسنعرض لتحليله عند الحديث عن الوحدة في السورة، ثم نجد كذلك الرازي - رحمه الله - يهتم اهتماماً بالغاً بذكر المناسبات بين آيات السورة ويشير إلى أنّها تسير إلى غرضٍ واحدٍ مهتمّاً بربط أجزاء السورة حول هذا الغرض. وإشارات هذه ستتضح عند ربط أجزاء السورة حول الغرض، وتوضيح الوحدة الموضوعية حيث سننقل أقواله هنالك عند التطبيق.

ومن الذين ذهبوا إلى أن الغرض السائد في السورة هو

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٠).

(٢) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد الطيب الباقلاني، قدم له وعلق عليه: محمد شريف سكر، ط (٣)، (دار إحياء العلوم: بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤) ص (٢٩).

(٣) نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، د/أحمد سيد محمد عمّار، ص (٢٢٢).

«الكتاب المنزل» السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان، حيث يقول: «تتكلّم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم، وهو القرآن الكريم، فهو الغرض الأصلي؛ ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله، ويبتدىء به، ثمّ يعود إليه فصلاً بعد فصل، فقد افتتح بقوله «تنزيل» ثم قيل: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن»، وقيل: إنّ الذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم» وقيل في خاتمة الكلام: «قل أرأيتم إن كان من عند الله ثمّ كفرتم به».

ولازم إعراضهم عن كتاب الله هو إنكار الأصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقّة، وهي الوحدانية والنبوة والمعاد، فبسّطت الكلام فيها، وضمته التبشير والإنذار^(١).

وبعد فمن خلال الربط الذي سيوضح هذا الغرض يتبين ثراء السورة، وجمال ترابطها؛ لأنّ التوصل إلى الغرض الواحد للسورة؛ إنّما هو أمرٌ اجتهادي، فلو قلنا إنّ غرضها «العقيدة»، فإنّه سيتضح للمتأمل وحدة موضوعية كاملة. ولو قلنا الغرض الأساسي القرآن الكريم وموقف المعرضين منه لوجدنا وحدة أدق؛ لأنّ مضمون دعوته كما سبق هي الأصول الثلاثة التي تتكون منها العقيدة، والتي كانت سبباً في إعراضهم عنه، فلذلك بسّطت السورة الحديث عن هذه الأصول، وضمته التبشير والإنذار، ثمّ إنّنا نجد بذكر هذا الغرض تلاحم المقدّمة مع الخاتمة، حيث أشارت السورة الكريمة إلى موضوعها في المقدّمة، واختتمت بالحديث عنه.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: (٣٥٨/١٧).

(ب) تطبيق الوحدة الموضوعية حول هذا الغرض

القرآن الكريم وموقف المعرضين منه

عند دراسة الوحدة الموضوعية في هذه السورة الكريمة حول هذا الغرض، لوحظ بعد التأمل والاستقراء، انقسام السورة الكريمة إلى ثلاث جولات وخاتمة، وهي كالآتي:

الجولة الأولى: وتبدأ من الآية (٢٩-١) عن القرآن الكريم، وتوضح موقف المعرضين منه، ومن دعوته، والرد على المعرضين، وإنذارهم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

الجولة الثانية: تبدأ من الآية (٣٩-٣٠) حيث تأتي هذه الجولة مغايرة للجولة الثانية، ومقابلة لها، فبعد أن استوفى الحديث في السورة عن المعرضين، وإنذارهم، جاء هنا الحديث عن المصدقين الذين تلقوا القرآن بالقبول، وفي هذه الجولة تسلية للرسول ﷺ في إعراض قومه المتمثل في الجولة الأولى، وفيها حديث عن الدعوة وإعداد الداعية، ومادة الدعوة.

الجولة الثالثة: تبدأ من الآية (٤٦-٤٠) عودة إلى القرآن، وتهديد لمن يلحد في آياته، وبيان لمنزلة القرآن، وعظيم قدره، ورد آخر على المعرضين عنه على سبيل الفرض والتقدير، ثم تختتم هذه الجولة بتسلية للرسول ﷺ في إعراض قومه عن القرآن، وعدم تصديقهم له بموقف موسى مع التوراة.

الخاتمة: تبدأ من الآية (٥٤-٤٧)، تأتي الخاتمة ملتحمة بأجزاء السورة، فيأتي حديث عن الساعة وموقف المشركين في يوم القيامة، وقد تبرءوا من الشرك والإعراض المتمثل في أول السورة، وفي هذا تذبذب في الموقف وعدم استقرار على حال، ناسب ذلك حديث خاص عن الإنسان وحالته المتغيرة، وعدم بقاءه على حالة.

ثمَّ يأتي في الختام النهائي للسورة، حديث عن القرآن والسَّاعة، فالتحمت أجزاء السورة كلها، مركّزةً على هذا الغرض، وتطابقت المقدّمة مع الخاتمة حول الغرض نفسه.

البيان

الجولة الأولى

وفيها افتتاحية السورة، فقد افتتحت بـ«حم» من الحروف الدالة على الإعجاز والتحدي فالسورة قد ابتدأت بتحديهم بمعجزة القرآن، ثم تحدثت عن تنزيل القرآن، وعربيته وبشارته ونذارته من الآية (٤-١). وبعد هذا الوصف الذي لا يليق إلا بالقرآن، جاء ذكر موقف المعرضين عنه، والمحتجين احتجاجاً كاملاً، والمتمثل في قوله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ ﴾^(١)، فهم معرضون عن هذا التنزيل، وسبب الإعراض عنه ماتضمنه من دعوة إلى التوحيد، وتقريره، وتقرير النبوة، والمعاد.

فجاء أول ردّ عليهم في السورة بالاحتجاج عليهم في إعراضهم بنفس التنزيل، يقول الباقلاني: «وذلك أنّه إنّما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجةً غيره، ويبين ذلك قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾^(٢)، فأخبر أنّه مثلهم لولا الوحي، ثمّ عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾^(٣)، ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل، وعرفوا هذه الحجة»^(٤).

ثمّ استكمل الردّ عليهم في استمرارهم في الإعراض عن القرآن ودعوته إلى التوحيد بذكر الدلائل والحجج على الوحدانية، من مثل

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني (٣٣).

خلق السموات والأرض من الآية (٩-١٢).

وبعد ذكر هذه الحجج المقنعة، جاء الإنذار بالعذاب في الدنيا إن هم أصروا على الإعراض، حيث توعدهم بما أصاب من كان قبلهم من الأمم المكذبة بآيات الله من الآية (١٣-١٨) في قوله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(١)

ثم توعدهم بالعذاب في الآخرة، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٢). من هذه الآية (١٩-٢٤)، ثم يعقب هذه الآيات آية كريمة، تبين السبب الذي لأجله وقعوا في الكفر فاستحقوا العذاب.

في قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾^(٣)، ثم بعد ما ذكر من ردود على المعرضين، وبيان السبب الذي أوقعهم في الضلال والخسارة، تختتم هذه الجولة بذكر موقف آخر لهم مع القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٤).

يقول الرازي هنا: «واعلم أنّ الكلام في أوّل السورة ابتداءً من قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة^(٤) بوجوه من الأجوبة، واتصل الكلام بعبءه ببعض إلى هذا الموضع، ثمّ إنّه حكى عنهم شبهة أخرى، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾^(٥)، جاء بعد هذه الآية تهديد للكافرين المعرضين عن القرآن الذين يصدون الناس عنه في قوله

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٤) سماها شبهة لأنها لا تعتمد على واقع علمي.

(٥) تفسير الرازي (١١٩/٢٧).

تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ التَّارُّ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾^(١)، أي جزاءً بما كانوا يلغون في القراءة، وإثماسمّاه جحودًا؛ لأنّهم لمّا علموا أنّ القرآن بالغ إلى حد الإعجاز؛ خافوا من أنّه لو سمعه النّاس لآمنوا به، فاستخرجوا هذه الطريقة الفاسدة؛ وذلك يدل على أنّهم علموا كونه معجزًا؛ إلّا أنّهم جحدوا للحسد^(٢).

ولمّا بين تعالى في الآية الخامسة والعشرين سبب كفرهم، وأنّه كان بسبب القرناء المزينين لهم في الباطل بيّن في الآية الأخيرة من هذه الجولة طلبهم عند وقوعهم في العذاب، إلحاحهم في الشفي من ممّن أضلّهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩)^(٣)، إلى هذه الآية الكريمة تنتهي هذه الجولة، والتي ذكر فيها وصف القرآن، وموقف المعرضين منه، والردود المحجة لهم.

تبدأ بعد هذه الجولة جولة ثانية، مغايرة لجولة الإعراض والجحود الكامل.

الجولة الثانية: تبدأ من الآية (٣٠-٣٩).

تفتتح هذه الجولة بالثناء على من تلقى القرآن بالقبول، وصدّق به^(٤)، والترغيب في سلوك طريقهم.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠)^(٥) الآيات.

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧، ٢٨.

(٢) المصدر السابق (٢٧/١٢٠).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٤) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص (٣٣).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

يقول الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه»^(١).

فالآيات في هذه الجولة تستمر في بيان منزلة من تلقى هذا الوحي بالقبول ودعا إلى الله تعالى بالإضافة إلى بيان كيفية الدعوة وإعداد الداعية، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣٣) الآيات من (٣٦-٣٣).

هذا ونجد الرازي - رحمه الله تعالى - يربط بين آيات الدعوة هنا بما قبل به القرآن من إعراض تام في أول السورة، والمتمثل في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ الآية. وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢٦). فيقول: ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك أن تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات، ورأس العبادات، وعبر عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣٣) فهذا وجه حسن في نظم هذه الآيات^(٢).

ويلحظ أن الآيات الكريمة ما تزال تحث على الاستمرار في الدعوة ومقابلة السيئة بالحسنة. ومازلنا نرى الرازي - رحمه الله - يذكر المناسبات بين الآيات، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) الآيات.

نجده يربطها بأول آيات الإعراض المتمثلة في قولهم: «قلوبنا في أكِنَّةٍ مِّمَّا تدعوننا إليه»، وقولهم «لا تسمعوا لهذا القرآن». حيث يقول إن الله رغب محمداً ﷺ في أن لا يترك الدعوة،

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: (١٢١/٢٧).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: (١٢٤/٢٧).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

وأن لا يلتفت إلى أقوال المعرضين، فابتدأ أولاً بأن قال: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا»، فلهم الثواب العظيم، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى، وهي أَنَّ الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات، فصار الكلام من أوّل السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب، ثمَّ كَأَنَّ سَائِلاً سَأَلَ فقال: إِنَّ الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة، إلاَّ أَنَّ الصبر على سفاهة هؤلاء الكفّار شديداً لا طاقة لنا به، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الإشكال، فقال: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة»، والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق، والصبر على جهالة الكفّار، وترك الانتقام، وترك الالتفات إليهم، والمراد بالسيئة ما أظهره من الجلافة في قولهم: «قلوبنا في أكثّة ممّا تدعوننا إليه»، وماذكروه في قولهم: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه»، فكأنّه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلمهم سيئة، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة.

ولمّا ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام، وفي ترك الخصومة، ذكر عقبيه طريقاً آخر عظيم النفع - أيضاً - في هذا الباب، فقال: ﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦). أي وإن صرفك الشيطان عمّا شرعت من الدفع بالتي هي أحسن، فاستعد بالله من شرّه، وامض على شأنك ولا تطعه» (٢).

ثمَّ لمّا كانت الآيات الكريّمات عن الدعوة وإعداد الداعية إلى الله تعالى جاءت الآيات التالية لها من الآية (٣٧-٣٩) تبين المادة التي تقوم عليها هذه الدعوة، وهي بذكر الدلائل الدالّة على وجود الله

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) تفسير الرازي: ٢٧/ (١٢٦، ١٢٧، ١٢٨).

وقدرته وحكمته. فبينت الآيات الكريمت أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث والقيامة.

وإلى هنا عند الآية (٣٩) تنتهي هذه الجولة التي جاءت مقابلة للجولة الأولى، جولة الإعراض التام عن القرآن ودعوته، وهنا مقابله بين ضدين، الإعراض والقبول. وهذا نوع من أنواع الترابط، فالجولة الأولى والثانية متغايرتان، وبضدها تتميز الأشياء.

ففي الأولى بيان لحالة المعرضين، وترهيب لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، وأن وليهم الشيطان، والقرناء المزينون لهم بالباطل، وفي الثانية: بيان لحالة المقبلين المصدقين وجزاؤهم الجنة، وأولياؤهم الملائكة، تبشّرهم بالخير والأمن.

وبعد هاتين الجولتين ننتقل إلى:

الجولة الثالثة: التي تبدأ من الآية (٤٠-٤٦). وفيها دعوة إلى القرآن الكريم وآيات الله الكونية. في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾،^(١) وجعلت هذه الآية الكريمة داخلة في الحديث عن القرآن وآياته؛ لأن أكثر المفسرين يجعل المقصود منها آيات القرآن^(٢). وإن كان السياق يدل على أنها تعني - أيضاً - آيات الله الكونية.

تفتتح هذه الجولة الثالثة والأخيرة بذكر القرآن، وعلو درجته، وتهديد الملحدين في آيات الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مَن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مَن خَلْفَهُ تَنزِيلُ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾^(٣).

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٧٨/١١)، والكشاف للزمخشري (١٩٦/٤).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠-٤٢.

ثمَّ يعود الحديث إلى الرسول ﷺ؛ لتسلية في إعراض قومه المتزايد عن القرآن في قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣) (١).

نجد الرازي ما يزال يربط هذه الآية في التسلية للرسول ﷺ بآيات الإعراض في الجولة الأولى، والمتمثلة في قولهم: ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ الآية، وقولهم: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ الآية.

ويقول: «أي ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسول كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ للمحقين. ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ للمبطلين. ففوض هذا الأمر إلى الله، واشتغل بما أمرت به، وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى» (٢).

هذا ونلاحظ أنّ الردود على المعرضين عن القرآن ما تزال تستمر في السورة الكريمة، في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤٤) (٣).

فجاء الرد في هذه الآية على المعرضين من طريق آخر على سبيل الفرض والتقدير، ونجد الرازي - رحمه الله - يبين بما فتح الله عليه هذا الارتباط.

فيقول: «بل الحق عندي: أنّ هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامٌ واحد» (٤). ويبين «أنّ التقدير: أنّا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، (٢٧/١٣٢، ١٣٣).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٧/١٣٣).

العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب، ويصح لهم أن يقولوا: ﴿قلوبنا في أكتة ممّا تدعوننا إليه﴾ أي من هذا الكلام.

﴿وفي آذنا وقرء﴾ منه؛ لأنّ لا نفهمه ولا نحيط بمعناه، أمّا لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم، وأنتم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادّعاء أنّ قلوبكم في أكتة منها، وفي آذانكم وقرء، فظهر أنّا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام، بقيت السورة من أولّها إلى آخرها، على أحسن وجوه النظم، وأمّا على الوجه الذي يذكره النّاس فهو عجيبٌ جدّاً»^(١).

ثمّ ما يزال يربط بقية الآية بما سبق، فيقول إنّ قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٤٤) حيث يقول كأنّه يقول تعالى: إنّ هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم، فلا يمكنكم أن تقولوا إنّ قلوبنا في أكتة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة، ثمّ بين أنّه هدى وشفاء لمن كان مائلاً إلى الحق والصدق، وأمّا من كان غارقاً في بحر الخذلان؛ كان هذا القرآن في آذانه وقرءاً، كما قال «وفي آذنا وقرء». وكان القرآن عليهم «عمى» كما قال: «ومن بيننا وبينك حجاب» «أولئك ينادون من مكان بعيد».

بسبب هذا الحجاب الذي حال بين الانتفاع ببيان القرآن، ويقول: «وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنّا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه، صارت هذه السورة من أولّها إلى آخرها؛ كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرضٍ واحد»^(٢).

وهنا تثبت إشارة الرازي إلى غرضها الذي نحن بصدده، وهو

(١) المصدر نفسه (٢٧/١٣٣، ١٣٤).

(٢) تفسير الرازي (٢٧/١٣٣، ١٣٤).

القرآن الكريم، وموقف المعرضين منه، والرد على مواقفهم من أول السورة إلى آخرها.

ثم تمضي الآية التالية لهذه الآية في تسلية النبي ﷺ في إعراض قومه عن القرآن بذكر اختلاف قوم موسى في التوراة في الآية الخامسة والأربعين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١).

فأنت يا محمد لم تكن أوحد الأنبياء في اختلاف قومك، فلقد اختلف قوم موسى في التوراة اختلافاً عظيماً، وفي هذا تسلية له ﷺ. ونجد الرازي ما يزال يتابع ربط آيات الإعرض بآيات التسلية، وخشية من الإطالة لم نقل كلامه هذا.

ويأتي في ختام هذه الجولة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢). يعني خفف على نفسك إعراضهم، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم، وإن كفروا فضر كفرهم يعود إليهم، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (٣).

وهكذا تختتم هذه الجولة بتسلية الرسول ﷺ في إعراض قومه عن القرآن الكريم.

(١) المصدر السابق (٢٧/١٣٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) المصدر السابق (٢٧/١٣٤).

الخاتمة

من الآية (٥٤٤٧)

ولمَّا اختتمت الجولة الماضية بالحديث عن القرآن، جاء الختام في السورة ليشتمل على تقرير اليوم الآخر. يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) (١). يذكر الرازي هنا الطيفة، في أن أول آيات الخاتمة هنا - وهو عن اليوم الآخر - مرتبطة بآخر آية في الجولة الماضية، فكأنهم في آخر الآية السابقة، تساءلوا متى يكون هذا العقاب؟ ف قيل إن علمه يرجع عند الله ﴿إليه يرد علم الساعة﴾، ويتصل الحديث هنا بما في أول السورة. عن حال المشركين في الدنيا المتمثل في الإصرار على الشرك والإعراض عن دعوة القرآن إلى التوحيد.

يقول الرازي هنا: «ثم إنَّه تعالى لمَّا ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة. وهذا الذي ذكره هنا شديد التعلق - أيضًا - بما وقع الابتداء به في أول السورة؛ وذلك لأنَّ أول السورة يدل على أنَّ شدة نفورهم عن استماع القرآن إنَّما حصلت من أجل أنَّ محمدًا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة من الأصنام والأوثان بدليل أنَّه قال في أول السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد؛ فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِ﴾ الآية (٢).

فهم في أول السورة قد أصرُّوا على الإعراض، معلنين له

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٢) تفسير الرازي (١٣٦/٢٧).

ومجابهين لصاحب الدعوة في تحدٍ وعتوٍّ، وهاهم أولاء هنا قد تبرءوا من هذه الأصنام والشركاء، فما أجمل تقابل ما كان في أوّل السورة من إصرار على الشرك بنهايتها التي تبين فيها انتهاء الشرك في ذلك اليوم المهيب، حيث ينكر المشركون شركهم بالله.

ثمّ بعد أن بينت الآيات الكريمات حال الكفّار المتذبذبة ما بين الدنيا والآخرة، وأنّهم لم يبقوا على حالة واحدة، ناسب ذلك مجيء بيان حالة الإنسان المتغيرة.

وصفاته المتلوّنة إذا أصابه الخير أو الشر من الآية (٤٩-٥١)، ثمّ يعود الحديث إلى القرآن واليوم الآخر. في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ (١).

فلما ذكر تعالى الوعيد العظيم على الشرك، وبيان تبرؤ المشركين منه يوم القيامة، وبيّن تعالى حالة الإنسان المتبدّلة المتغيرة، عندما يمس بالضراء أو السراء فهو عند مسّه بالخير يتكبر ويجحد المنعم، وعندما يمس بالشر، يبالغ في إظهار المذلة والضعف بين يدي خالقه، اتصل الحديث بكلّ ما دار من إعراض عن القرآن، وما ورد من ردود شافية للمعرضين حيث جاء هنا ردّ آخر لهم يتماشى مع حدّة الإنكار المتمكنة من نفوسهم بأن لا يفرّطوا في الإعراض عن القرآن، وعن دعوته إلى التوحيد.

وأن يستحضروا في عقولهم إن كان هذا القرآن، هو الحقيقة بعينها من عند الله، فماذا سيكون حالهم إذا كفروا به، وأصروا على ذلك، ويلحظ هنا أنّه عبّر بـ«إِنَّ» التي تكون في الأمر غير المتيقن،

تماشياً مع الخصم لاستنزال طائر الإنكار من نفسه «فما بالكم إذا سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه، وبالغتم في الثفرة عنه، حتى قلتم: «قلوبنا في أكثنة مما تدعوننا إليه»^(١).

فالآية فيها تماشٍ مع الخصم حتى يقدر ويستحضر في نفسه حيث إنّه قد أصرَّ على الإنكار بأن يتفكر في أمر القرآن إن كان صحيحاً من عند الله وهو مصرُّ على إعراضه عنه كيف سيكون حاله، إنّه سيستوجب العقاب الذي لا مفرَّ منه. وهذا يوجب ترك ما أنتم فيه من إعراضٍ «وأن ترجعوا إلى النظر والاستدلال، فإنَّ دَلَّ الدليل على صحته قبلتموه. وإن دَلَّ على فساده تركتموه، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل»^(٢). ولما كانت السورة كما توضح إلى هذا الموضع ردوداً على المعرضين عن القرآن ودعوته إلى عبادة الله وحده.

جاء الوعد الحسن في تقرير الله تعالى المباشر لنبيه في تجلية هذا الحق المنزل عليه للناس في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبينوا حقيقة هذا القرآن، ويعلموا صدق محمَّد، وما جاء به من عند ربّه جلَّ وعلا.

في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾،^(٣) أي أن القرآن حقٌّ.

ثم نختم الآيات بشكِّهم في اليوم الآخر. فهم لما أعرضوا عن القرآن ودعوته، فذلك بسبب أنّهم لم يتيقنوا أنّ هنالك لقاءً بينهم وبين الله تعالى فهم في شك من ذلك.

يقول البقاعي في مناسبة الخاتمة ومطابقتها للمقدمة «وقد علم

(١) تفسير الرازي (١٣٨/٢٧).

(٢) المصدر نفسه (١٣٨/٢٧).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

بذلك انطباق آخرها المادح للكتاب المقرّر للبعث والحساب على أولها المفصّل للقرآن المفيض لقسمي الرحمة: العامة والخاصة لأهل الإيمان، والندرة لأهل الطغيان، والله الهادي، وعليه التكلان»^(١).
فمن هنا نعلم أنّ السورة الكريمة قد نبهت على موضوعها، وغرضها الأساسي في مقدمتها وأكد ذلك اختتامها بالحديث عن الموضوع والغرض نفسه.

والسورة كما هو واضح نسيج واحد على الرغم من تنوع الفروع والأجزاء، إذ أنّ كلّ فرع أو جزء فيها، يتسلسل مع الآخر، حتّى تستوفي السورة الموضوع من جميع جوانبه، فقد بدأت بالإشادة بكتاب الله تعالى، الذي أعرض عنه المعرضون عنادًا، واستكبارًا، ثمّ نجدها- أيضًا- قد لفتت أنظار الذين كدّبوه وعقولهم إلى الكون العظيم وخالقه الأعظم، وفصلت الحديث في النشأة الأولى للكون، تفصيلاً لم يلحظ في غيرها من السور. ثمّ ركّزت السورة على غرض الترهيب بالعذاب للمعرضين في الدنيا والآخرة. ثمّ هي ركّزت - أيضًا- على تثبيت قلب الرسول ﷺ وتسلّيته في إعراض قومه وتوجهه إلى تحمل المسؤولية في الجهر بالدعوة مهما ضاق صدره بقومه، فإنّ الله سينصره، ويثبت أمره، ويمكن لكتابه، وهكذا نجد التلاحم العظيم بين جزئيات السورة الكريمة، كلّ جزئية تفضي إلى التي تليها، في ترابط واضح، ونسق متصل، فهي كتلة واحدة من أولها إلى آخرها. والله أعلم.

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٧/٢٢٩).

الفصل الثاني الدراسة الفنية للسورة الكريمة

ويشتمل على المباحث التالية:
المبحث الأول: الصورة الفنية.
المبحث الثاني: اللغة والأسلوب.
المبحث الثالث: الفواصل والمقاطع الصوتية.

المبحث الأوّل الصورة الفنية في سورة فصلت

يُعد التصوير من الأدوات البارزة في أسلوب القرآن الكريم في التعبير عن أغراضه وأهدافه، والذي تحقّق له من خلال استخدامه لهذه الأداة التأثير في النفوس؛ وذلك أنّ القرآن من خلال هذه الأداة يشكّل الأغراض والأهداف في شكل فني محسوس، يصل إلى المتلقي في أوجز عبارة، وأعمق تأثير، ولذلك فسوف أتناول في هذا المبحث بإذن الله تعالى الأمور التالية:

أولاً: مفهوم الصورة القرآنية وخصائصها بإيجاز.

ثانياً: مصادر الصورة الفنية.

ثالثاً: جماليّة الصورة الفنية في السورة الكريمة.

أولاً: مفهوم الصورة الفنية^(١)؛

ترتبط الصورة الفنية في القرآن الكريم بالتعبير الحسي الذي يوضّح الدلالة على المعنى المراد، فيتمكّن تأثيره في النفس لقرب تناوله، وعمق دلالته على الغرض، والصورة القرآنية لم تقف عند الحدود البلاغية المعروفة من تشبيه أو استعارة، أو كناية، وهي العناصر التي تتكون منها الصورة البيانية، بل إنّ الصورة القرآنية تتخطّى هذا الأفق المحدود، إلى كليّة الصورة التي يرفدها عناصر أخرى غير العناصر البيانية، حتّى نجد سيد قطب - رحمه الله تعالى -

(١) الصورة في اللغة تعني (الشكل . . وقد صورّه فتصور، وتستعمل بمعنى النوع والصفة)، نقل صاحب اللسان عن ابن الأثير قوله: «الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته».

اللسان: (٤/٤٧٣)، مادّة (صورة)، وانظر القاموس المحيط: (٢/٧٥)، (باب الرّاء، فصل الصاد). مادّة (الصورة) أي أنّ للصورة في اللغة ثلاث دلالات: الشكل، والنوع، والصفة.

في كتابه التصوير الفني، ينظر إلى الصورة القرآنية نظرةً واسعة، حتّى أصبح التصوير في نظره (الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن)، حيث إنّ معظم موضوعات القرآن وأغراضه معروضة بطريقة التصوير يقول: «ويجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتّى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن، فهو تصويرٌ باللون، وتصويرٌ بالحركة، وتصويرٌ بالتخييل، كما أنّه تصويرٌ بالنغمة، تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورةٍ من الصور، تملأها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان، وهو تصويرٌ حيٌّ منتزِعٌ من عالم الأحياء»^(١).

فالصورة القرآنية قد تعدّت أفق التصوير البياني لتصل إلى كليّة الصورة التي يرفدها الجرس اللفظي، والتآلف الصوتي، وموسيقى السياق كلّه، ودلالته مع الاهتمام بالتأثير على الحسّ والذهن عبر ظلالٍ من متممات الصورة، كالتلوين والحركة في ارتفاعها وانخفاضها، والصوت الذي ينبعث من الحروف اللفظية أو من حوار الشخصيات. أو هدوء النغم أو ارتفاعه^(٢).

كذلك لا نعدم التصوير حتّى في التعبير الحقيقي الخالي من العناصر البلاغية المعروفة من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، فالصورة الفنيّة في القرآن تتراعى إلى آفاق بعيدة، وإيحاءات وظلال مصوّرة، فهي قد استُخدمت في القرآن خير استخدام. على وجهٍ تعجز عنه أساليب البلغاء، حتّى نجد المشهد يُصوّر لنا صورةً حيّةً عبر الألفاظ والمعاني الخالية من المجاز، في درجةٍ لا تقل روعةً عن

(١) التصوير الفني: لسيد قطب (٣٧)، وما بعدها.

(٢) من جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمّد قطب عبدالعال (مكّة المكرّمة: دعوة الحق، العدد ٩٩، تصدرها رابطة العالم الإسلامي، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص (٣٧).

نقلها عبر المجاز.

هذا ويحلو لنا بعد تحديد مفهوم الصورة أن يدور الحديث موجزًا هنا عن خصائص الصورة القرآنية، حيث إنَّ القرآن الكريم، وإن كان كتابًا دينيًا بالدرجة الأولى، فإنَّه لا يظهر عاريًا مباشرًا، بل إنَّه يلبس صورةً فنيَّةً في أغلب الأحيان^(١).

وأوَّل خاصيَّة تتميز بها الصورة القرآنية هي الاتجاه القوي إلى المحسوس الذي يعد من أبرز عناصر التصوير القرآني الذي يهدف إلى التقريب والتوضيح المؤثر، فالنفس تميل إلى الشيء القريب المألوف.

ولكن هل هذه الصفة التي أثارها التصوير في القرآن معيبة، كما عابها النقاد في الشعر القديم؟

«الحق أن كلَّ متذوِّقٍ للنصِّ القرآني لا يحس بشيء من ذلك على الإطلاق، إذ أن هذه الصورة حين تعتمد الحسيَّة، إنَّما تستثير الخبرة السابقة للحواس البشرية، فتشخص أمامها المعاني المجرَّدة»^(٢).

والقرآن يميل إلى هذا المسلك، ليخاطب البشر على مستوى عقولهم وفطرتهم فهو يجري مجرى أسلوب البشر في تعبيراتهم الأدبية.

«وحين يمرُّ القارئ بهذه الصورة مرَّاتٍ عديدة، ويتملأها نظره، فإنَّه في كلِّ مرَّة تتحفز لديه القدرة التخيلية، وتقع الصورة في نفسه الموقع الذي يستثير حواسَّه ووجدانه، وعلى هذه الشاكلة أغلب صور القرآن»^(٣).

(١) أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، د/ شلتاغ عبود شرَّاد (ط ٤)، دمشق: دار المعرفة، عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص (١١٠).

(٢) المصدر نفسه: ١١٠.

(٣) المصدر نفسه: ١١٠.

ثانيها: أنّ الصورة القرآنية تتمتع بخاصية الإبانة والتأثير معًا، فلا يكون المشبه به أو المستعار توضيحًا زائدًا بل هما من صلب المعنى نفسه، وبهما يتمُّ هذا المعنى.

«فليس التشبيه القرآني أو الاستعارة، عنصرًا إضافيًا في الجملة؛ ولكِنَّه جزء أساسي لا يتمُّ المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه فعمله في الجملة أنّه يعطي الفكرة صورة واضحة مؤثرة. فهو لا يمضي إلى التشبيه، كأمّا هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة يتطلّب المعنى، ليصبح واضحًا قويًا»^(١).

ثالثها: الدقة الفائقة في اختيار الألفاظ المصوّرة الموحية، تجد ذلك في كلّ تصوير قرآني^(٢).

فالصورة القرآنية تعطي الكثير من المعاني بالقليل من الألفاظ. رابعها: الصورة القرآنية تتسم بالحركة والحيوية، وهذه السمة الغالبة لا تقتصر على حدّ معيّن من الصور القرآنية، كمشاهد الحوادث، وأهوال يوم القيامة والقصص، بل تدخل كذلك على صور البرهنة والجدل، ولعلّ استعارات القرآن كلها تعكس هذه الحركة الدائبة الموحية^(٣).

خامسها: الأثر النفسي الذي يظهر من خلال التصوير، فترى النص يمزج بالانفعالات، ويخلتج بالعواطف، وبذلك يستكمل النص التصويري كلّ عناصر الحيوية.

«والأثر النفسي ملازمٌ للصورة القرآنية، تراعي الحالة النفسية البشرية، سواء في إثارة الطمأنينة والفرح، أو في إثارة الشفقة أو

(١) من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوي. ص (١٩٨).

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٠.

(٣) ينظر: أثر القرآن في الشعر العربي الحديث (١١٢).

الخوف والاستكراه»^(١).

سادسها: الصورة القرآنية تستوعب عناصرها الطبيعة؛ وذلك هو سرُّ خلودها، فهي باقية ما بقيت هذه الطبيعة.^(٢)

هذه هي خصائص الصورة القرآنية بإيجازٍ شديد. وهي تشمل على ميزات الصورة في المذاهب الأدبية كلها ولو بحثت عمّا عيب على الصورة في الشعر القديم، أو الحديث لما وجدت شيئاً من ذلك في الصورة القرآنية^(٣).

ثانياً: مادة الصورة الفنية ومصادرها

إنّ دراسة الصورة الفنية في هذه السورة الكريمة تؤكّد للتأظر أنّها تعود إلى ثلاثة آفاق تتكوّن منها، وهي الطبيعة، والإنسان والتاريخ.

والصورة القرآنية تميل إلى التصوير الحسي الملموس الذي يستمد عناصره الحسية من الطبيعة، وهذا ما نجده في التصوير في السورة الكريمة، فقد ذكر من أحوال الطبيعة في الصورة الأرض والسماء، والليل والنهار، والشمس والقمر، وما تخرج الأرض من الثمار، والسماء المزينة بالمصابيح، والطبيعة في الصورة الفنية هنا ذات هدف ديني؛ فعندما ذكرت الجنة، ذكر شيء من أوصافها، ترغيباً للمؤمنين، وتبشيراً لهم، وكما استخدمت في الترغيب استخدمت في الترهيب بالعذاب للمعرضين، حيث نجد الطبيعة تنقلب بأمر خالقها إلى عذاب وشقوة، كما يلحظ في عذاب كل من عاد وثمود في السورة، فالريح العاتية قد دمّرت قوم عاد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسُوتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

(١) المصدر السابق: ص (١١٥).

(٢) من بلاغة القرآن: ص (١٩٦).

(٣) أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، ص (١١٥).

الْآخِرَةَ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾^(١). أو الصاعقة المهلكة لقوم ثمود في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾^(٢). ومن أمثلة ذلك من صور القران على سبيل التمثيل لا الحصر ولا التحديد قوله تعالى في عذاب قوم نوح في سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾^(٣).

وهذا من بدائع الصور المهلكة. ومن الأمثلة على تحوّل الطبيعة إلى عقابٍ ونقمة؛ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾^(٤).

هذا ونجد الطبيعة وهي مادة للصورة يستدل بها على وجود الخالق المبدع، كما في قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا نَسَمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾^(٥). فالطبيعة مظهر من مظاهر القدرة والوحدانية والكمال، كما يستدل بها على صحة البعث والحياة بعد الموت في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنَّا نَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ ﴿٦﴾^(٦).

والصورة الفنية هنا من بدائع الصور القرانية؛ حيث أتى المشهد من الطبيعة هنا نامياً متصاعداً، فبينما السكون يخيم على الحياة، إذ الحركة تدب فيها، والاهتزاز والنمو يملانها حيوية، وهذا ما سيتم بأمر الله بيانه في جمالية الصورة، كما أنه يلحظ في السورة الكريمة العلاقة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة، فالطبيعة كلها مسخرة للإنسان

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

بكلِّ ما احتوت عليه من حيوان، وأشجار وخيرات، يقول تعالى:

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾^(١)، أي الطالبين للرزق والقوت، وتتضح العلاقة أكثر في قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(٢).

ويتضح الحديث عن الإنسان في الصورة الفنيّة من خلال التعرض لنماذجه، وتوضيح صفاته النفسية السلبية، ويغلب على هذا التصوير بيان النموذج السيء، الذي يبين الأخلاق والصفات الذميمة المتمكّنة من نفوس المشركين.

والصورة القرآنية على صفة العموم قد شملت في عنايتها النماذج الإنسانية في أحوال مختلفة، وشملت من الطبيعة الجماد، والنبات، والحيوان.

«فمّمّا اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، والحبّة تبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه.

ومّمّا اتخذ مشبهاً به من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة، والعنكبوت والحمار، والكلب، والفراش، والجراد، والجمال، والأنعام، ومّمّا اتخذ مشبهاً به من جمادها العهن المنفوش، والصيّب، والجبال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب»^(٣).

والصورة القرآنية يلحظ أنّها لا تقف عند حدود بيئة معيّنة، أو زمن محدّد، بل إنّها، تتخطّى البيئة الصحراوية إلى غيرها من البيئات، ولا تقف عند زمن نزول القرآن، بل تنظر إلى الأزمان الماضية والسابقة من تأريخ الأمم الغابرة، فتذكر حالهم ومآلهم، كما

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٣) من بلاغة القرآن: ص(١٩٧).

يلحظ أنّ الصورة القرآنية في تمتعها بالوضوح والتأثير، لا تجعل من المادة المكوّنة للصورة نفاسة، أو موضع عناية؛ لأنّ البحث في الصورة القرآنية عن القيمة الفنية لا النفاسة المادية أو الندرة؛ ولهذا كانت الصورة في القرآن لا تحمل طابع عصر معيّن أو بيئة معيّنة، ولا تزيد المعنى وضوحًا، والصورة تأثيرًا في بعض العصور دون بعض، كما نجد في كثيرٍ من التشبيهات التي استجادها النقاد في عصرٍ من العصور نتيجةً للقيمة الفنية أو الاجتماعية التي سادت في ذلك العصر^(١). ولذلك نجد من الباحثين من يستنكر على من أغرق تشبيهات القرآن الكريم في إطار البيئة العربية، ونجده يبين وجه الاستنكار من القرآن الكريم. فقال أوّلاً: إنّه لا يمكن أن يُقال في تشبيه ما إنّه من البيئة العربية، إلّا ما كان من خصائص تلك البيئة وحدها، بحيث لا يشاركها فيه غيرها، أو بحيث يصعب فهمه ومغزاه على غير العربي، فإذا كان التشبيه معروفًا في البيئة العربية وغيرها، ومن دون الرجوع في فهمه إلى ملابسات البيئة العربية، فإن ربطه بها تعسّفٌ وجهل، ثمّ يضرب لذلك من الأمثلة بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٢).

فيقول معلقًا: ولا أدري المشبه أم المشبّه به، أيّهما على سبيل المثال من البيئة العربية. في تشبيه السفن التي تمخر عباب المحيط بالجبال الشامخة!!! هل كانت الجبال أو القمم الشامخة، حيث توجد في مكّة والمدينة وجزيرة العرب وفقًا على جزيرة العرب وحدها، أو العرب وحدهم؟ أم أنّ العرب كانوا أبناء البحار والسواحل؟^(٣). ويزيد الأمر وضوحًا في استشهاده بتشبيه الحقّ جلّ

(١) علوم القرآن، د/عدنان زررور: ص(٣٢٠).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

(٣) المصدر السابق: ٣٢٤.

وعزَّ أعمال الكفَّار في عدم نفعها لهم يوم القيامة بتشبيهين، الأوَّل: منتزع من البر. والثاني: من البحر ليشمل الأرض بقسميها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيغَةُ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلْمَتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (١).

وأما السراب فهو صورة من الصحراء، وهل هذه الصورة خاصَّةً بالبيئة العربية؟ ألا يُعرف السراب إلا في لغة العرب؟ أليس هذا التشبيه مفهوماً ومدركاً عند كلِّ من يعرف الصحراء، وسمع بها وقرأ عنها في الغرب والشرق؟ ويقول عن التشبيه الثاني المنتزع من البحر الذي شبهت فيه أعمال الكافرين بالبحر اللجي، أي المتلاطم الذي تتوَّاب أمواجه العالية العاتية، ويطغى بعضها على بعض بأنَّه تصويرٌ دقيق، أوضح ممَّا تمارسه الريشة ذات الأصباغ والألوان؛ لأنَّها تعجز عن تصوير الحركة، وهي عنصر أساسي في الصورة القرآنية، والصورة القرآنية هنا قد صوِّرت طبقات الظلمات التي تعلو فوق طبقات الأمواج والسحاب فوقها، دانٍ قريب، ويقول إنَّ هذه الصورة لا وجود لها في تلك البحار التي عرفها العربي في بعض البيئات المتاخمة للبحر الأحمر أو الأبيض؛ لأنَّ هذه الصورة صورة المحيطات وبحار الشمال (٢). ومع ذلك نقول إنَّ القرآن صوَّر البيئة العربية الجاهلية صورةً واضحة، دقيقة صحَّحت كثيراً من المفاهيم التي أدركها التاريخ، ومع هذا لم تكن صور القرآن مقتصرةً على البيئة العربية وحدها، وأمَّا توهم ذلك فمصدره «شروح القرآن الكريم، وأقوال المفسرين - أو بعض وجوه أقوالهم بتعبير أدق -

(١) سورة النور، الآية: ٣٩، ٤٠.

(٢) ينظر المصدر السَّابِق: ص (٣٢٣ وما بعدها).

وليس هو النَّصُّ القرآني الكريم ذاته!!»^(١).
 وكلُّ مامضى كان في خلاصة بيان عناصر الصورة القرآنية في
 سورة فصلت، والصور القرآنية بعامة على وجه الإيجاز.

ثالثاً : جمالية التصوير في سورة فصلت

بعد أن مهَّد الحديث عن الصورة في مفهومها وعناصرها، يأتي
 الحديث هنا عن جمالية الصورة، وتملِّي روعة التصوير القرآني في
 السورة الكريمة.

إنَّ جمالية الصورة تتبدى لنا ظاهرةً جليَّةً، عندما نعبر عن معنى
 من المعاني بأسلوب تجريدي، ثمَّ نعرضه مرَّةً أُخرى في أسلوب
 تصويري.

«إنَّنا نجد أنَّ المعنى في الطريقة الأولى، يخاطب الذهن والوعي،
 ويصل إليهما مجرداً من ظلاله الجميلة، وفي الطريقة الثانية يخاطب
 الحس والوجدان، ويصل إلى النفس من منافذ شتى، من الحواس
 بالتخييل، ومن الوجدان المنفعل بالأصدا والأضواء، ويكون الذهن
 منفذاً واحداً من منافذه الكثيرة إلى النفس لا منفذاً الوحيد»^(٢).

ولقد عرضت السورة الكثير من المعاني والحالات والمشاهد
 عن طريق التصوير الذي نقل لنا هذه المعاني والمشاهد من حيزٍ
 مجردٍ إلى حيزٍ محسوس.

والنظم القرآني «يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة
 الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة،
 وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخصاً
 حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد
 والقصص والمناظر، فيردها شاخصاً حاضرةً فيها الحياة، وفيها

(١) المصدر السابق: (٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) التصوير الفنِّي، لسيد قطب: ص (٢٤٢).

الحركة»^(١). فقد انطقت الصورة الجماد ونفخت فيه الحياة، فإذا هو شاخصٌ، له انفعالات، وحركة، وشعور، ليشارك الإنسان، ويقرب منه في حياته ووجدانه، والتصوير القرآني إذ يعمد إلى ذلك؛ ليهتم بالمتلقي وحاجته النفسية، فيقرّب له المعاني، فإذا هي واضحةٌ مجسّمة مرئية، ويقرب بين المتباعدات في ربة واحدة.

والناظر إلى الصورة القرآنية في سورتنا الكريمة، يلحظ التنوع في التصوير، فهناك تصوير اتكأ على عناصر البلاغة المعروفة في علم البيان من مجاز أو استعارة، أو كناية أو تشبيه، وتصوير خلا من ذلك وتجرّد فكانت الألفاظ والكلمات في استعمالها الحقيقي، هي العامل المصور للمشهد، وهناك تصويرٌ داخل القصة، فلا تأتي القصة القرآنية إلا وهي تموج بالحركة والحياة في أسلوب تصويري، يأخذ بمجامع الجمال والبيان، فلذلك ستكون دراسة الصورة، وتمليّ جماليتها، على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الصورة البيانية.

القسم الثاني: صورة المشهد (الممتدة).

القسم الثالث: الصورة في الصورة القصصية.

القسم الأوّل: الصورة البيانية:

وهي الصورة التي اعتمدت على عناصر علم البيان المعروفة في البلاغة. وهذا القسم يلحظ فيه الميل إلى الجانب الحسي الذي يوضّح الصورة ويزيد من تأثيرها في النفوس، والتصوير الحسي يرمي إلى تقريب المعنى، وعقد العلاقات بين الأمور الذهنية المعنوية، بالأشياء المحسوسة، حتّى تكون قريبةً من النفس البشرية مألوفة، فكيف إذا جاءت في عبارةٍ تمتلئ بالفصاحة، وقوّة البيان، حيث تبدّى المعاني صورًا وهيئات في إطار محسوس، تنتظم فيه الكلمات،

(١) المصدر السابق: ص(٣٦).

فتأخذ شكلاً دلاليًا، حيث تمتزج الدلالات الحسية والمعنوية، فتصبح صورةً محكمةً، غايةً في الوضوح والتأثير، والسورة الكريم مليئةً بالجمال التصويري، ويستطيع المتأمل إدراك ذلك عندما يتابع نبض الحياة والحركة في الصورة وجمال حسيتها المتمكنة عبر الاستعارة المجسمة.

والتجسيم^(١) هو «تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجسامًا أو محسوساتٍ على العموم، وطريقة التجسيم هي الأسلوب المفضل في تصوير القرآن»^(٢).

وعلى أن هذا المصطلح التجسيم وكذلك قرينة التشخيص على ماسياتي بيانه من المصطلحات التي أكثر من ذكرها المحدثون، إلّا أنّا نجد لها في تراثنا البلاغي أثرًا واضحًا، كما يوجد في أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجاني في حديثه عن التمثيل، فقد ركّز على مافيه من تشخيص وتجسيم، حيث يقول: «يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهًا في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين»^(٣).

ومصطلح التجسيم يدخل فيه تشبيه المعنوي بالحسي، واستعارة كلمة حسية للمعنى الذهني المجرد، وأوّل مايلحظ من

(١) استخدم هذا المصطلح هنا في حدوده الفنية، ولم يخرج على المفاهيم العقديّة. وهو لغة: يعني الشيء المحسوس فهو «جماعة البدن أو الأعضاء من النَّاس والإبل والدواب، وغيرهم من الأنواع القطعية الخلق وجسم الشيء وحقيقته». انظر: اللسان: (٩٩/١٢) مادة (جسم).

(٢) التصوير الفنّي لسيد قطب: (٧٢).

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، (ط١، القاهرة، مطبعة المدني، ١٤١٢هـ/١٩٩١م). ص (١٣٢).

التجسيم للمعاني في السورة عن طريق الاستعارة، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾^(١).

فالمقام في الآية مقام إخبار عن موقفهم من التنزيل، وأنهم قد بلغوا كل مبلغ في رفضه وكرهيته، فجاء ذلك عن طريق التصوير لحالهم في أسلوب يتناسب مع المقام في أوفى بيان، والآية الكريمة فيها ثلاث صور حسية تبين هذا الموقف المتعنت، عن طريق التجسيم الذي صور لنا هذه الموانع والحواجز المعنوية، التي بينهم وبين الرسول ﷺ في صورة حواجز، وموانع حسية. فشبهوا قلوبهم في نبوها وعدم تقبلها للهدى بالقلوب التي قد أحاط بها غلاف مانع غلفها وغطاها، فهي مغلفة لا يصل إليها التأثير فالصورة تظهر حيلولة وصول الدعوة إلى قلوبهم كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته وذلك ما يظهر في دلالة حرف «في» في إحاطة الظرف بالمظروف.

وأما الصورة الثانية فيه تعبر عن عدم سماعهم، ومج أسماعهم لما يقال لهم بمن في أذنه صمم لا يسمع، والمراد تصوير حالهم في عدم السماع، والاستفادة من القرآن بحالة من لا يسمع حقيقة، وليس المراد أن في آذانهم صمماً حقيقياً، فهم لا يسمعون ولكن الأسلوب التصويري هنا جعلهم في عدم استفادتهم من الكتاب، وكرهية سماعهم له، كالصم الذين لا يسمعون، وهو تصوير عن طريق الكناية القادرة على أن تقدم الفكرة مصحوبة بدليلها، إن عرض المعاني بهذا الأسلوب التصويري يكسبها قوة وتأكيذاً، ويزداد الكلام بها بلاغة وتأثيراً.

ثم تأتي الصورة الثالثة لتعبر عن رغبتهم الشديدة في الابتعاد

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

عن محمّد ودعوته، المتمثّل في قولهم: «ومن بيننا وبينك حجاب» حيث شبهوا أنفسهم وما هم عليه مع الرسول ﷺ وما هو عليه من الحقّ. بحال من كان بينهم وبينه حجاب^(١) عظيم منع من وصول أحدهما إلى الآخر، فالمسافة التي بينهم وبين الرسول ﷺ مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، وهذا تصويرٌ يظهر مدى نبوهم عن الرسول ﷺ وتقبل دعوته، ونجد الزمخشري - رحمه الله - يذكر فائدة في زيادة حرف «من» في هذه الآية، حيث يقول: فلو قيل «وبيننا وبينك حجاب» لكان المعنى: أنّ حجابًا حاصل وسط الجهتين، وأمّا بزيادة «من» فالمعنى أنّ حجابًا ابتدأ منّا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها^(٢).

ومعنى كلامه هذا أنّ بين الثانية غير الأولى، حيث إنّ الأولى بجهتهم، والثانية بجهة النبي ﷺ، والصحيح أنّ بين واحدة، وإنّما كرّرت لأنّ المعطوف مضمّر محفوظ، فوجب تكرار حافظه، والدليل على ذلك أنه لا تفاوت بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو، وجلست بين زيد وبين عمرو، وإنّما كان ذكرها مع الظاهر جوازًا، ومع المضمّر وجوبًا، والمراد أنّ الجهة المتوسطة التي بينهم وبين النبي ﷺ مبتدأ الحجاب لا غير^(٣).

فالآية الكريمة قد نقلت لنا هذه المعاني المجرّدة في قالب حسّي مصور لموقفهم المبتعد بالكلية قلبًا وقالبًا، فالتعبير بالأكنة والوقر والحجاب يمثل كلّ الإيحاءات النفسية الخفية لموقفهم حيث يريدون إقنائه ﷺ وإدخال اليأس في نفسه، حتى لا يدعوهم إلى

(١) الحجاب: «اسم على زنة فعال، وجمعه حُجب، ككتاب وكتب، وهو ما يمنع عن الوصول، البصائر (٢/٤٣٣).

(٢) تفسير الكشاف (٤/١٨٠).

(٣) ينظر المصدر السّابق «الحاشية» (٤/١٨٠).

الصراط المستقيم، ويظهر مع ذلك أيضاً خوفهم الواضح على أنفسهم وعقيدتهم من أن تتزعزع، وأن يظهر عورها أمام الناس لما أحسوا بنفوذ دعوة محمد ﷺ في العقل والقلب.

«والآية الكريمة فيها من البلاغة والمبالغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحدة منها كاف في فنه، فأولها الحجاب الحائل الخارج ويليه حجاب الصمم، وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلا أسبلته»^(١).

والهدف من التصوير في الآية هو إظهار موقف المعرضين عن القرآن الكريم، إظهاراً حسيّاً يظهر مدى ما وصلوا إليه من الإعراض والتعنت في الحسرتهم عند الله.

ومن الصور الحسية في السورة الكريمة، عرض دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم، وتكذيبهم لهم بعد أن أعملوا فيهم كل حيلة، وأتوهم من كل جانب، عبر التصوير للمعاني في قالب حسي مائل، حيث جاء تصوير حرص الأنبياء في الدعوة عبر التجسيم للمعنى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنْ سَمَاءٍ مَاءً مَكِينًا فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَكَذَّبْتُمْ بِالَّذِينَ بَعَثْنَا بِالْحَقِّ وَأَصْلَحْتُمْ وَكَفَرْتُمْ﴾^(٢). فالصورة في الآية تجسّم لنا حرص الأنبياء، وكثرة دعوتهم وإلحاحهم المستمر في دعوة قومهم بالمجيء تارة من أمامهم، وتارة من خلفهم، كما يفعل الحريص على تحصيل أمر أن يتطلبه ويعيد تطلبه، ويستوعب مظان وجوده، أو مظان سماعه، وإلّا ما اقتصر في هذه الآية على جهتين، ولم تستوعب الجهات الأربع كما مثل لحرص الشيطان ووسوسته؛ لأن المقصود هنا تصوير الحرص فقط، وقد حصل في أبلغ صورة،

(١) المصدر السابق «الحاشية» (٤/١٨٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

وأما في استيعاب الجهات في تمثيل وسوسة الشيطان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١). فهو تصوير للحرص مع التلهف (٢).

والصورة لما عرضت كل الجهات هدفها تبشيع صورة الشيطان، وإثارة بغضه في نفوس الناس، وتوضيح مدى شدة لهفه في إضلال البشر.

وهكذا نجد كيف يصور القرآن معانيه ويجسدها في صور محسوسة ملموسة، وقد ورد مثل الصورة السابقة في السورة قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرَزْنًا فَرَزْنًا فَرَزْنًا فَرَزْنًا وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (٣). وهذا تصوير يبرز شدة الإغواء والحرص على تفعيله. ثم عندما نستطلع وننظر إلى كلمات ومعاني السورة الكريمة، نرى هذا اللون البديع من التصوير عبر الاستعارة المجسمة بارزاً يتوغل في الحسية ويتنوع كما يلحظ في معنى العذاب، حيث نجد تلون هذا المعنى في كل سياق بظلال من التصوير أكسبته روعة تصويرية، وزاد معناه عنفاً وترهيباً.

فالعذاب أصبح له غلظ وسمك ملموس، وهذه نقلة للمعاني عبر الصورة القرآنية التي أسبغتها ظلالاً وصلت بها إلى عمق بعيد في الحسية تصل إلى أغوار النفس والقلب والعقل، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٥٣).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

كما جاءت كلمة الذوق أيضاً في الرحمة، في قوله تعالى عن الإنسان: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿١﴾﴾. وقبل النظر إلى جمالية الصورة ننظر إلى معنى الذوق أولاً، فالذوق يعني الطعم. تقول ذاقه ذوقاً وذواقاً ومذاقاً: أي اختبر طعمه. وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر، فإنَّ ما يكثر من ذلك يقال له الأكل، واختير في القرآن لفظ الذوق للعذاب؛ لأنَّ ذلك وإن كان في المتعارف للقليل فهو مستصلح للكثير. وكثر استعماله في العذاب، وجاء استعماله في الرحمة على القليل، ويقال: فلان ذاق كذا وأنا أكلته، أي خبرته أكثر ممَّا خبره^(٢).

يقول صاحب اللسان: المذاق طعم الشيء، والذوق يكون فيما يكره، ويحمد وابن الأعرابي يقول في قوله: فذوقوا العذاب، الذوق: يكون بالفم وبغير الفم^(٣).

إنَّ الصورة القرآنية هنا قد جسّدت لنا العذاب، حيث قدم لهم مالا يذاق في الطبع والجبلة في صورة شيء يذاق كالطعام فكلمة الإذاقة تجسم للبصر شدة إحساسهم بالعذاب، وياله من تصوير يبعث على التهويل والتخويف، والتهكم بهم.

وهذه الصورة بكلِّ ما تلقي من إحياءات توقع في النفس أقصى طاقات التأثير، والمتتبع لاستخدام القرآن لكلمة الذوق يلحظ أنَّها في الأغلب قد استُخدمت في العذاب، ولم ترد إلا في مقام المخالفات سواء استُخدمت في العذاب أو الرحمة.

ولقد ورد فعل الذوق في القرآن أربعاً وستين مرّة، معظمها في مجال الوعيد والعذاب، ولم يذكر هذا الفعل إلا في نطاق الاستعارة

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) البصائر (٣/٢٣).

(٣) اللسان، مادة «ذوق».

المصوِّرة فهو لم يستخدم على وجه الحقيقة، حتَّى في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجِرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰهُمَا﴾^(١). ففي هذه الآية مجازان، استعاري ومرسل، أمَّا الاستعاري فإنَّه عبَّر عن الأكل بالذوق، والمعروف أنَّ آدم عليه السلام وحواء أكلا من الشجرة أكلاً ولم يتذوقا، وهذا هو المجاز الاستعاري.

أما المرسل؛ فلأنَّ المذوق هو ثمار تلك الشجرة، وليست الشجرة نفسها، وهذه الاستعارة كما سبق لم ترد إلَّا في مقام المخالفات، والذي أذاقه الله الرحمة، مخالفٌ لرَبِّه، حيث لم يشكره في السَّراء، ولم يصبر على الضَّراء^(٢).

ونجد لأبي هلال العسكري تذوقًا حسنًا لهذه الكلمة المصوِّرة في قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣). حيث يقول: «حقيقته لنعذبَّتهم، والاستعارة أبلغ، لأنَّ حسَّ الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذوق فضلٌ على غيره من الحواس، ألا ترى أنَّ الإنسان إذا رأى شيئًا لم يعرفه شمه فإنَّ عرفه، وإلَّا فذاقه لما يعلم أنَّ للذوق فضلًا في تبيين الأشياء»^(٤).

فكلمة الذوق في الآيات تُجسِّم للبصر معاناتهم في العذاب، وكما وردت في العذاب وردت أيضًا في تذوق الرحمة، وفي ذلك أيضًا تجسيمٌ للإحساس بالرحمة، وهي هنا تنبيهٌ على أنَّ الإنسان بأدنى ما يعطى من النعمة يبطر ويطغى.

وبما أنَّ الذوق من خصوصيات اللسان، وهو دقيق الإحساس بالشيء، مُرَّه وحلوه، والمعدَّب سيذوق العذاب، فكأن كل جزء من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

(٢) خصائص التعبير القرآني، وسماته البلاغية، عبدالعظيم إبراهيم المطعني (٢/٤٠٣).

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢١.

(٤) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، ص (٢٧٥).

جسمه سيشعر بهذا العذاب، كشعور هذه المضغة الدقيقة في الإحساس، والتي تمتاز بحدّة الشعور في التلقي والتذوق.

وهذا فيما يخص تصوير الإحساس بالعذاب، عبر التجسيم له في كلمة الذوق. والبيان القرآني، حينما يهتم بالحسيّة لهذه المعاني، إنّما يهتم بالإيحاءات النفسية الناتجة عنها.

وفي عنصر التجسيم نجد الدقة الفنية المحكمة؛ حيث يضاف إلى جمال الاستعارة جمال انتقاء المفردة الحسية، من بين ما يشبهها من الدلالة؛ لمراعاة المواقف وخصوصيتها^(١).

وأما كلمة العذاب فقد تعددت عبر الأداء التصويري إلى صورة أخرى ملموسة كما يلحظ في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٢). وهو تصويرٌ عن طريق الاستعارة المجسّمة. والغلظ: ضد الرّقة في الخلق والطبع والمنطق والعيش ونحو ذلك^(٣).

فالصورة قد جسّمت لنا العذاب حيث أصبح له صلابة وسمكٌ، فنقل معنى العذاب من معنى مجرد إلى شيء ذي غلظ وسمك، وفي هذا تجسيمٌ للمعنى؛ حيث أبرز المعنى الذهني، وهو ما يكون فيه من شدّة في صورة المحسوس الملموس.

وهكذا نجد كيف يفضل البيان القرآني حسيّة كلّ معنوي. وفي هذا تدعيمٌ للهدف العام من الصورة، وهو الترهيب من العذاب في الآخرة.

ولا ننسى ما أحدثته كلمة «غليظ» من إيقاع عن طريق حرف (الظاء)، الذي يجد اللسان ثقلاً وغلظة في نطقه ممّا يصور بدقة واقع

(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، إعداد أحمد ياسوف (ط١)، دمشق، دار المكتبي، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٣) اللسان (٧/٤٤٩)، مادة «غلظ».

المعاملة القاسية، وعدم الشفقة بالمعذبين من قبل الملائكة .
وما إن يتجول النظر في السورة الكريمة؛ فإنه يلحظ الكثير
من المعاني الذهنية، جاءت في عبارات تصويرية حسية . ومن ذلك
تصوير الحسنه بالشيء الملموس الذي يدفع به، كما في قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(١) .

والوسوسة نزع . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) . والبيان القرآني
هنا يعمد إلى الأداء التصويري؛ ليعمق المعنى في النفوس، وخاصة
عندما يتم تملي جمالية الصورة في السياق، حيث تبدى جليّة في
أعمق بيان، والصورة السابقة فيها ترغيبٌ للنبي ﷺ في الصبر على
إساءة قومه، ورد الإساءة بالإحسان .

ولمّا كان المقام مقام ترغيب، وكانت مقابلة السيئة بالحسنة
من الأمور الشاقة على النفس، جاء الترغيب فيها، وإظهار معناها
عبر التصوير، حتّى صارت الحسنه شيئاً محسوساً يُدفع به، ولما
يحمل فعل الأمر (ادفع) من دلالة أكيدة، وملحة على فعلها .

ولصعوبة الموقف عبر بالدفع الذي أكد المعنى، ونقل هذه
المفردة إلى الحيز الملموس .

ثمّ تأتي الصورة التالية مكّملة لهذه الصورة في معناها، ومتصلة
بها؛ حيث إنّ الموقف من المواقف التي ربّما أدلى الشيطان فيها
بدلوه؛ ليصرف الهمة عن دفع السيئة بالحسنة، فجاء تصوير اتصال
القوة الشيطانية، والوسوسة بخواطر الإنسان بشيء محسوس وهو
النزع^(٣) الذي يعنى النخس، وحقيقته مس شديد للجلد بطرف عود

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٦ .

(٣) نزع الشيطان بينهم ينزع وينزع نزعاً أي أفسد وأغرى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أو إصبع. وفي هذا تجسيم للمعنى، وإبراز له في صورة منقّرة، تبعث على كراهية الشيطان، وتصوّر حقارته.

ولا يخفى ما في الآيتين من جرس إيقاعي يتلاءم مع الصورة، ويتكامل مع المعنى، وماتزال المعاني في السورة تنساب انسياباً رائعاً في صور وهيئات حسية؛ حيث نجد في آيات السورة الكريمة تصويراً لحال المؤمنين المصدقين مع القرآن، وحال المعرضين عنه، في أداءٍ تصويريٍّ، يحمل المقابلة المتناسقة.

في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤)^(١). نجد المقابلة التصويرية، والأداء، نقل إلينا المعنى الذهني المجرّد، إلى الحيز المحسوس، بواسطة الاستعارة. فعبر عن الإيمان بالهدى، وعن تأثير القرآن في تبصير النفس بالحقائق، وكشفه للالتباس بالشفاء، وهو زوال المرض عند حصول الشفاء.

وفي هذه الصورة وماتوحي به، دلالاتٌ عظيمة، وتوضيحٌ للمعنى في صورةٍ ملموسةٍ بحيث يصبح القرآن هو الشفاء نفسه، ثمّ يتم التناسق في الأداء التصويري في إطار الصورة عندما تتم المقابلة بين حالة المؤمنين مع القرآن، بحالة المعرضين عنه حيث نجده للمؤمنين هدى وشفاء، وللمعرضين وقراً.

والوقر حقيقة داءٌ ومرضٌ. وكذلك هو عليهم عمى. حيث عبّر هنا عن ضلالهم بالعمى، فنقل المعنى المجرّد إلى الحيز المحسوس بواسطة الاستعارة.

ولا يخفى ما تحمله هذه الكلمة من إحياءات ودلالات، مناسبة لحالة الضالين، المتخبطين بغير هدى. وماتحمله صورة الأعمى من

= الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، اللسان، مادة «نزع».

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

ضعف وعدم بصيرة بما يجري حوله. وفي هذا تبشيعٌ لهم، ولما هم عليه.

ثمّ تختتم الآية بصورةٍ أخرى لهم تظهر حالهم في البعد، وهذه الصورة تلتحم مع سابقتها حيث جاءت مؤكدة لها. في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٤٤﴾ حيث جاء المعنى المجرد هنا وهو نبوءٌ قلوبهم عن قبول مواعظ القرآن ودلائله في صورة من ينادي من مكان بعيد؛ حيث إنّه لا يفهم ولا يعي قول المنادي، وفي هذا إظهارٌ للمعنى، وإبرازٌ له.

يقول الشريف الرضي: «المراد بها - والله أعلم - صفتهم بالتباعد عن طريق الرشد، والإعراض عن دعاء الحقّ، فكأنّهم من شدّة الذهاب بأسماعهم والانصراف بقلوبهم، ينادون من مكانٍ بعيد. فالنداء غير مسمع لهم، ولا أصل إليهم، ولو سمعوه لضل عنهم للأبد المنفرج بينهم وبينه»^(١). فهم في عدم سماعهم للهدى كمن ينادى من مكان بعيد، فلا ينفعه السمع؛ لعدم السماع، وكل ما عرض في الصورة بصفة عامّة، يبين التناقض البديع في المقابلة التصويرية فيها بين حالتين متضادتين، فالهدى يقابله العمى، والوقر الذي هو داء يقابله الشفاء، فبضدها تتميز الأشياء، وتظهر المعاني، أضف إلى ذلك ختم الآية بصورة توضيحية لحالهم، مع الهدى، تؤكد الصورة الماضية، وتزيد من بيانها.

وإذا كان التصوير الحسي يبلغ مداه الجمالي، عبر تجسيم المعاني، والذي تظهر لنا فيه المعاني والمشاهد والمشاعر، من خلال الإطار الحسي أشياء ملموسة، كما لوحظ في الصور الحسية السابقة. إلّا أنّنا نجد جمالية أخرى في التصوير الحسي الذي يعتمد

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي (ط١)، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص(٢٤٦).

على التشخيص^(١).

والتشخيص: «يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية. هذه الحياة التي ترتقي فتصبح حياة إنسانية، تشمل المواد والظواهر والانفعالات، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين، وتأخذ منهم، وتعطي، وتتبدى لهم في شتى الملابس، وتجعلهم يحشون الحياة في كل شيء تقع عليه العين، أو يلتبس به الحس، فيأمنون بهذا الوجود أو يرهبون، في توفز وحساسية وإرهاق»^(٢).

فالتشخيص يبث الحياة في الجوامد والأشياء، فتبدى لنا في جانب إنساني، تنفعل وتعي وتشعر، حيث أحالها التصوير من مواد وظواهر، إلى كائن له عواطف وانفعالات نفسية، والتصوير القرآني يعمد إلى ذلك ليقترب من المتلقي وحاجته النفسية، إلى تصور الأشياء شخوصاً متحركة، حتى يعمق التأثير في الذات، بحيث تبدى لنا الأشياء التي نراها ساكنة حيّة منطلقة واعية، وكأنها تشارك الإنسان حياته، وتواصله وجدانه. ولا يخفى ما يؤديه التداخل بين الحواس إلى ظهور علاقات جديدة لها أثرها في التصوير والأداء والتأثير نتج عن الصورة التركيبية للعلاقات الجديدة؛ حيث تصبح قوة التركيب هذه من أكبر القوى المتميزة، والمتداخلة في تكوين المجال التصويري المشخص^(٣).

«والتجسيم والتشخيص يتعمقان بناء اللغة، وضمائرها، وأفعالها

(١) التشخيص: لغةً من «شخص بصر فلان، إذا فتح عينيه، وجعل لا يطرف، وشخص البصر ارتفاع الأجنان إلى فوق»، اللسان، مادة «شخص».

(٢) التصوير الفني، لسيد قطب (٧٣).

(٣) ينظر: من جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبدالعال (٦٨ وما بعدها).

وصفاتها، وهو يعقد تلك المقارنة، والملائمة بين الجماد والذات البشرية، في إطارٍ جديدٍ، من العلاقات الإنسانية المتجاورة بين المادة والعقل المنفعل؛ بحيث يتسرب التشخيص في كيانه عميقاً موغلاً، يربطنا بالطبيعة بوثاقٍ أثيري جَدَّاب. ومن ثم يصبح للتشخيص تأثيره العميق في النفس البشرية؛ فهو ذو قدرةٍ على التكثيف والاقتصاد والإيجاز^(١).

ولننظر الآن إلى جمالية التشخيص في سورتنا الكريمة، حيث يلحظ أنّ أوّل ما يعرض لنا من ذلك في السورة قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾^(٢). فالقرآن العزيز يُشَرُّ به، ويُنذَرُ بما فيه؛ ولكن اللغة التصويرية هنا جعلته هو المَبشِّرُ والمُنذِرُ. وفي هذا إبرازٌ لكمال الصفة، فهو هنا الفاعل للتبشير والإنذار.

وهذا تصويرٌ بالتشخيص خلع صفات الأحياء عليه، ولا يخفى ما في تبثُّع هذه الصورة من إظهارٍ للمعنى المراد؛ حيث إنّ القرآن بلغ الغاية والكمال في اتصافه بهاتين الصفتين، فجاءت عن طريق التصوير المشخص أبلغ وأظهر.

وكذلك مانجده في آيةٍ أخرى من وصف للقرآن وتشخيص، وإظهار لكمال الحفظ له في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾^(٣). يقول الطبري في معنى الآية: أولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: «معناه لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عمّا هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه

(١) المصدر السابق، ص (٧٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤، ٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

من خلفه»^(١). فأظهر هذا المعنى عن طريق الاستعارة المشخصة .
وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتْ أَنِينَا
طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾^(٢)، توضيح لقدرة الله تعالى في الخلق والتكوين،
ودلالة على الوحدانية، والآية ترسم لنا مشهد الخلق الأوّل للإرض
والسما، وهذه الصورة تلفت النظر إلى التفكير والتدبر. وفي هذه
الآية وجهان:

الوجه الأوّل: أن يكون في الآية مجاز، وعلى هذا الوجه نجد
الاستعارة التصويرية المشخصة. يقول الزمخشري: «ومعنى أمر
السما والأرض بالإتيان، وامثالهما، أنه أراد تكوينهما، فلم يمتنع
عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد
عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز، الذي يسمّى التمثيل.
ويجوز أن يكون تخيلاً، ويبنى الأمر فيه على أنّ الله كَلَّمَ السما
والأرض، وقال لهما: اتيا شئتما ذلك أو أبيتما، فقالتا: أتينا على
الطوع لا على الكره.

والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات^(٣).

وعلى هذا الوجه يمكن القول إنّ السما والأرض والجمادات
لا تسمع و لا تنطق، ولا تعي؛ ولكنها هنا في عنصر التشخيص
جعلت كأنها له عقل وفكر وعاطفة، فالسما والأرض تعي ما يلقي
عليها، وتحسّان بما يدور حولهما، فتعيان لأمر الله، طائعتين لقدرة
الله.

هذا على تمليّ جماليّة التشخيص، وعلى أنّ هنا استعارة
مشخصة، ولكن إذ قلنا إنّ الأرض والسما، قد نطقت على الحقيقة

(١) تفسير الطبري (٢١/٤٨٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) الكشاف للزمخشري (٤/١٨٤).

كما نقل في بعض الآثار أنَّ المتكلم من الأرض هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها^(١). فإنه لا تشخيص هنا ولا استعارة. وهذا هو الوجه الثاني.

يقول ابن قتيبة: «وأمّا تأويلهم في قوله جلّ وعزّ للسماء والأرض اثتيا طوعاً أو كرهاً إنّه عبارة عن تكوينه لهما، وقوله لجهنّم هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد. إنّه إخبارٌ عن سعتها، فما يحوج إلى التعسف، والتماس المخارج بالحيل الضعيفة؟. وما ينفع من وجود ذلك في الآية والآيتين، والمعنى والمعنيين، وسائر ما جاء في كتاب الله عزّ وجل من هذا الجنس، وفي حديث رسول الله ﷺ ممتنع عن مثل هذه التأويلات، وما نُطق جهنم ونُطق السماء والأرض من العجب؟ والله تبارك وتعالى يُنطق الجلود والأيدي والأرجل، ويسخر الجبال والطيور بالتسبيح»^(٢). وهذا الوجه هو الظاهر الصحيح، وهذا ما أميل إليه، والله أعلم.

والصورة في الآية الكريمة جاءت عن طريق الألفاظ المصوّرة، المجرّدة من المجاز. وما دما بصدد الحديث عن الصورة التي جاءت عن طريق التشخيص، فإنّ تملّي الغاية الجمالية في التناسق التصويري في هذا الأسلوب، توجد في الآية الكريمة. في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣)

هذه الصورة القرآنية العظيمة نجد أنّه قد تملّي جماليتها المتقدمون والمتأخرون. فنجد الزمخشري يقف عند هذه الصورة،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٠١).

(٢) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر (النّاشر: المكتبة العلمية)، ص (١١٢، ١١٣).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

ويقارن بين وصف الأرض بالخشوع في سورة فصلت، ووصفها بالهمود في سورة الحج، فيقول: «الخشوع هو التذلل والتقاصر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ: إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأثها بمنزلة المختال في زيّه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار^(١) الرثة^(٢)».

ف نجد إدراكه هنا التصوير عبر الاستعارة المشخصة في قوله: «المختال في زيّه»، وقوله: «الذليل الكاسف».

كذلك نجد للشريف الرضي إدراكاً لذلك، ويتضح من خلال قوله: «وهذه استعارة وقد نصّ الكلام على نظيرها في الحج، إلا أن ههنا زيادة، وهي صفة الأرض بالخشوع، كما وصفت هناك بالهمود. واللفظان جميعاً يرجعان إلى معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجذب، وإعلام المحل، فتكون كالإنسان الخاشع، الذي قد سكنت أطرافه، وتطأطأ استشرافه^(٣)».

فهنا يلمس إدراك القدماء للاستعارة المشخصة في الصورة؛ ولكن يجب علينا أن نلاحظ أنه ليس في الصورة استعارة معقول لمحسوس فقط، وإنما استعير للأرض شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهي تخشع خشوعاً، وتتحرك حركةً تناسب حركة العابدين الموحدين. فالتصوير القرآني هنا وهب للجماة الحياة والحس، زيادة في تصوير المعنى وإبرازه.

«وهكذا تستحيل الأرض الجامدة، كائناً حياً بلمسة واحدة في

(١) الطمر: هو الثوب الخرق، والجمع أطمار. والرثة: البالية.

(٢) تفسير الزمخشري (٤/١٩٦).

(٣) تلخيص مجازات القرآن، للشريف الرضي. ص (٢٤٥).

لفظةٍ واحدة»^(١). وخير من لمس جمالية هذه الصورة القرآنية من المتأخرين سيد قطب - رحمه الله -، فقد نظر إلى هذه الصورة نظرةً متكاملة، ونظر إلى تناسق التصوير فيها فيبين تناسق كلمة «خاشعة» مع جوّ العبادة والخشوع والسجود، فإذا أنزل على الأرض الماء اهتزت وربت وتحركت. وحركتها هنا هي المقصودة؛ لأنّ كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة، فكان من التناسق داخل الصورة أن تنتقل الأرض من مرحلة الخشوع إلى الحركة في اهتزازها؛ لتشارك العابدين المتحركين في هذا المشهد، فكل أجزاء المشهد في حركة. يقول سيد قطب: «وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير»^(٢).

ثمّ نجد أنّه لا يخفى عنه الاهتمام بعقد المقارنة بين المشهد في سورة فصلت، والمشهد في سورة الحج، وتناسق كلّ منهما مع جوّ السياق.

حيث يرى أنّ السياق في سورة الحج كان في جوّ بعث وإحياء وإخراج، ممّا يتسق معه تصوير الأرض بأنّها هامدة، ثمّ تهتز وتربو وتنبت من كلّ زوج بهيج، ولم يزد في المشهد هنا الإنبات والإخراج؛ لأنّه لا محلّ لهما في جوّ العبادة والسجود^(٣). وبين أنّ الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام، ويستدلّ بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث، فماههما إلّا سكون وخمود، تعقبه الحركة والحياة.

فليس المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني، فالتعبير القرآني يريد الصورة، ولو لم يكن ذلك لما كان هذا التنويع، والصورة

(١) التصوير الفنّي في القرآن، لسيد قطب، ص(٧٤).

(٢) المصدر السابق، ص(١١٨).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (١١٨).

اقتضت هذا التنوع، حتّى يتم هذا التناسق الجميل في كلّ أجزاء الصورة^(١).

ثمّ نجده يزيد من التأمل في هذه الصورة البديعة؛ حيث نراه ينظر إلى وحدتها في الرسم؛ حيث يقول: «هي: مخلوقات طبيعية عابدة، أو مشاهد طبيعية، والأجزاء هي: الليل والنّهار، والشمس والقمر، والأرض خاشعة لله تموج فيها، وتتصل بها جماعتان، من الأحياء مختلفتا النوع متحدتا المظهر: جماعة من الناس تستكبر عن العبادة، وجماعة من الملائكة تعبد بالليل والنّهار، والجو العام هو جو العبادة المرتسم من هذه الأجزاء، وهكذا تتناسق الجزئيات مع الجو العام، وتتّحد جزئيات الصورة الواحدة؛ تحقيقاً لوحدة الرسم، وتوزع الأجزاء في الرقعة بهذا النظام العجيب»^(٢).

وهكذا نرى كيف ينظر سيد قطب إلى هذه الصورة البديعة، نظرة الأديب المتأمل، المتذوق، الذي وصل إلى النظرة الكلية الكاشفة لبدائع التصوير في الآية الكريمة.

وعندما ننظر إلى النماذج الإنسانية في السورة الكريمة فإننا نجدها قد جاءت عبر التصوير الحيّ، بواسطة الاستعارة المشخصة أو المجسّمة.

والتصوير القرآني قد جعل من هذه النماذج نماذج أبدية، خالدة، تخطّت الزمان والمكان، وتجاوزت القرون والأجيال، وهي في كلّ زمان ومكان، لا يخطئها المرء في أي مجتمع، وفي أي جيل. وهي في هذه السورة الكريمة تمثل جانبيين للإنسان، وحالتين من أحواله؛ حالته مع الرخاء والنّعمة، وحالته عند افتقادهما.

هكذا هو خط الصورة العام المتمثّل في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ

(١) المصدر السابق، ص(١١٩).

(٢) المصدر السّابق، ص(١١٩).

الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْسُ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَيْنَ أَدَقُّنَّهُ رَحْمَةٌ مِنَّا
مَنْ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجْعَتُ إِلَى رَيْبِي إِنْ
لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلْيُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ (١).

نجد النظم القرآني هنا يعبر عن مداومة الإنسان للدعاء، واسترساله في طلبه، بالدوام على العمل الدائم الذي من شأنه أن يسأم منه عامله، ولكنه لم يسأم. ثم نجد الصورة تعرض لنا الدعاء وتبرزه مشخصاً؛ حيث شبه الدعاء بعامل يدعو الإنسان، وفي هذا زيادة توضيح لشدة إلحاح الإنسان على الدعاء، وملازمته، وهذا ما يتضح من لفظة «ذو» التي تدل على الملازمة. ثم صورت لنا الآية حالة الإنسان عندما يصاب بالضرر الذي عبر عنه بالمس الذي هو أضعف إحساس بالإصابة، وهذا ما يبين عدم صبره حتى على القليل من الإصابة فلا يكون موقفه إلا اليأس والقنوط.

وللنظر إلى توافق كلمتي «يثوس وقنوط» في الوزن، وإحداث حرف «الطاء» الفاصلة في كلمة «قنوط» الجرس القوي؛ لأنه من أحرف القلقله، وهو يعبر عن اختلاف الفاصلة عن الفواصل السابقة لها ليشير إلى تمييز هذه الصفة، وإبرازها عبر الاختلاف في وزن الفاصلة وحرفها، فهي صفة دنيئة لا يتصف بها إلا المشركون والكفرة، فهي من أخلاقهم وطبائعهم. فما أجمل التحام فنية الجرس مع فنية التصوير في هذه الصورة؛ حيث يختلف الإيقاع تبعاً لاختلاف المعنى، فهو مسائر للمعنى موضح له.

وهنا نعلم مدى الدقة في تركيب النظم القرآني للألفاظ والصيغ والمناسبة التي تتوافق مع الأغراض، وتعطي الصورة دقة في الوضوح.

ثم تعرض الصورة انتقال حالته عند مسّه بالنعمة بعد اليأس والقنوط. فالصورة تجسّم إحساسه بذلك عبر كلمة الذوق. والذوق هنا للشيء القليل؛ حيث يتبين أنّه بمجرد مسه القليل من النعمة، ينقلب حاله من اليأس والتصاغر، إلى الانتفاخ والتعاضم، حتّى يصل إلى درجة نسيان المُنعِم، وادّعاء أنّ كلّ هذا الفضل له.

بل تصل إلى درجة نسيان الرجوع إلى الله، فإن كان هنالك رجوع على احتمالته فإنّه سيظن أنّ له الخير هنالك، وفي هذا تصوير لمشاعر التبجح التي قد وصلت إلى مداها، فالصورة كما يلحظ قد عرضت موقفين مختلفين للإنسان الضال. موقفه وقت الضراء، وموقفه وقت الرخاء والنعمة.

ثمّ يأتي في ختام الصورة الترهيب والتوعّد بالعذاب، وقد مرّ معنا سابقاً شرح صور العذاب، حيث شُرِّحَتْ شَرْحًا وافياً؛ ولذلك نكتفي بما سبق. فالصورة بينت الابتداء المطمع الذي أدّى إلى انتهاء مؤيس.

وهاهي ذي الصورة ترجع مرّة أخرى لتركّز على حالة الإنسان مع النعمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾. فجاء التعبير هنا عن الغفلة عن شكر المنعم، أو التعمّد في ترك الحمد والشكر، بالانصراف عن الشيء، وهو الإعراض، وفي هذه الصورة توضيحٌ للمعنى، ويزداد التوضيح بالتعبير عن هذا الموقف بالنأي بالجانب^(١) وهو البعد، والجانب معناه الجهة التي ليست قبالة وجهه وظهره، ويسمّى الشق، وفي هذا تجسيمٌ للمعنى؛ حيث عبر عن معنى التولي عن الشيء، والانصراف

(١) يُقال: ناءً بجانبه ينوء ويناءً، وقُرئ «ناءً» مثل ناع: أي نهض به، عبارة عن التكبر، كقولك شمخ بأنفه وازوراً جانبه، وقال أبو عبيدة: تباعد. انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص(٥١٠)، «كتاب العين».

عنه من غير التفات إليه بوجهه، بالنأي بالجانب، وهو كناية عن إبعاد نفسه بالكلية، وهذه الكلمات تحمل لنا شدة التمادي والإزدراء والتكبر، ثم نلمس عرض حاله مع الضراء وإن سبق عرضه أيضًا في الصورة الماضية، ولكنّه يعاد هنا هذا الموقف مصورًا؛ لتقابل هذه الصورة مع صورته في حالة الإنعام، وما وصل إليه من تمامٍ بعيد. إلاّ أنّه بمجرد مسّه بالشرّ بعد تذوقه للنعمة يلحظ انقلاب حاله، حيث يسرع بالتوجه والدعاء والتوسل إلى المنعم بعد بعده عنه، فيلازم الدعاء والتوجه، ويكثر منه، وقد جاء تجسيم هذا المعنى وهو كثرة الدعاء في قوله «عريض»^(١).

والعرض ضد الطول، والشيء العريض المتسع مساحة العرض، فجسم لنا كثرة الدعاء المتكرر عبر كلمة «عريض» مما زاد المعنى وضوحًا وإشعاعًا دلّ على المراد في أوجز عبارة.

وكل هذه المؤثرات الموضحة في الصورة تبرز الجوانب السلبية للإنسان، فالصورة القرآنية هنا قد وضحت وأبرزت النموذج الإنساني في جانبين متضادين، في جانب الرخاء والنعمة وحالته معها، وفي جانب الضراء وحالته مع المنعم. والصورة في تناسقها قد عرضت هذين الجانبين في أسلوبٍ تصويريٍّ، زاد في تفعيله حسية المعنى عبر التشخيص والتجسيم، بالإضافة إلى ما تحمله الصورة من مقابلات بين هذه الأحوال المتضادة التي أوضحت لنا الصفات السلبية للإنسان المشرك الكافر، ممّا جعل للمعاني تقابلاً أوضح المراد في تناسق جميل، وتتابع محكم في غاية الوضوح والتأثير.

(١) العرض: من «العين، والرّاء والضاد»، وهو بناء تكثر فروع، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصلٍ واحد، وهو العَرَض الذي يخالف الطول، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٤/٢٦٩)، مادة «عرض».

القسم الثاني : صورة المشهد (الممتدة):

نجد الصورة القرآنية في هذا القسم قد خلت من عناصر التصوير البياني المعروفة من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، فكان الاستعمال الحقيقي للألفاظ والكلمات هو الأداة المصوّرة التي صورت لنا مشاهد حيّة، وخاصّة في مشاهد القيامة التي نقلنا فيها التصوير إلى عالم الآخرة، نقله تامّة. إنّه التصوير المعجز، الذي اتخذ من الألفاظ والكلمات والسياق نظمه المبدع، والاستعمال الحقيقي للألفاظ غني بالإشعاعات والطاقات الإيحائية المصوّرة.

والتصوير في هذا القسم ماهو إلّا استثمار وإظهار لطاقات الألفاظ التي تكتنزها اللغة في ذاتها، ومن خلال هيئتها وجرسها، والظلال والمعاني التي أوحى بها.

ثمّ إنّه أسلوب تصويري يستعرض المشهد فيجعله حيّاً، يتمثله العقل والوجدان، بل إن فيه كلّ ألوان التأثير من توضيح للمشهد، وإظهار له حتّى يتمثل في المخيلة حتّى لكأنّه تراه العيون، وخاصّة إذا تضمّن النصّ عنصر الحوار، فقد استوت له كلّ عناصر التصوير والتأثير، حتّى تشترك في متابعته كل الحواس. ونجد مثل هذا الكلام ينطبق على كلّ مشاهد الآخرة التي ذكرتها السورة الكريمة.

«والقرآن يهدف من عرض مشاهد القيامة؛ إلى أن تكون هذه المشاهد حاضرة في ذهن وحس وقلب وشعور ووجدان المؤمن، وهو يتحرك على هذه الأرض؛ بحيث يرجو النعيم، ويخشى العذاب يوم القيامة. ولن يتحقق هذا الأمر في كيان المؤمن إلّا إذا عرضت هذه المشاهد بطريقة معيّنة تمنحها هذا التأثير. لذلك عرضها القرآن بطريقة التصوير»^(١).

(١) البيان في إعجاز القرآن، للدكتور: صلاح عبدالفتاح الخالدي (ط٣)، عمان: دار عمّار: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص(٢١٨).

والمشاهد المعروضة في السورة الكريمة جاءت كلها في درجة من التصوير عميقة كأن المتلقي يراها ويعاصر أحداثها، وأوّل ما يلقانا من ذلك في السورة، قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾^(١) وأوّل ما نأتي إلى هذا المشهد، وقبل تملي روعة التصوير فيه، ننظر إلى كلمتي الحشر والوزع، وإن كان قد سبق تعريفهما عند أوّل ذكرٍ لهما من قبل.

فكلمة الحشر تعني: إخراج الجماعة من مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها، وأصل الحشر الجمع ومنه يوم الحشر والمحشر، ويكون الحشر بمعنى الإهلاك^(٢).

وقد ورد في البصائر للحشر معنيان الأوّل بمعنى الجمع، والثاني بمعنى السوق والطرْد^(٣) والوزع: بمعنى الكف. ويقال وزعت: إذا حبست أوّلهم على آخرهم حتّى يتلاحقوا^(٤).

وإذا كان معنى الوزع يقتضي معنى الجمع على قول المفسرين، كما مر والحشر بمعنى الجمع، فإنّه إذا جعل معنى الحشر الطرد والسوق وإزعاجهم عن مقرّهم، فإنّه سيكون بهذا المعنى متلائماً مع الوزع «أو أنّ الوزع من مقتضيات الحشر؛ لأنّ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين، وكثرة العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في

(١) سورة فصلت، الآية: ١٩-٢٢.

(٢) انظر: اللسان (٤/١٩٠)، مادة «حشر»، والبصائر (٢/٤٦٨).

(٣) البصائر: (٢/٤٦٨).

(٤) اللسان: (٨/٣٩٠).

بعض، فلا غنى لهم عن الوزع وتصنيف بعضهم عن بعض، والوزع كف بعضهم عن بعض، ومنعهم من الفوضى»^(١).

وأما إذا جئنا إلى الصورة، فإنَّ أوَّل ما يلحظ فيها الاستحضار للمشهد المصوَّر عبر صيغتي المضارع «يحشرون» و «يوزعون» فالصورة القرآنية تعمد إلى تحقيق هدف الاستحضار للمشهد عبر هذه الصيغة التي جعلت المشهد كأنَّه حاضر مشاهد تراه العيون، وتسمعه الأذان، فكأنَّنا نرى أعداء الله أمامنا، وأنَّ ما سيقع لهم حاضرٌ مشاهد، كذلك ما نجده من دلالات مصاحبة لهذين الفعلين من بث للحركة والحيوية في الصورة حيث نقلت لنا الحركة المندفعة عبر السوق والطرْد إلى أرض المحشر، وصوَّرت لنا كثرة المحشورين كثرة ضائقة أدت إلى كفِّ الملائكة بعضهم عن بعض، وتصنيفهم، وحبس أوَّلهم على آخرهم حتَّى يتلاحقوا كلَّ هذه المشاهد صوَّرت لنا عبر الكلمتين «يحشر» و «يوزع».

فقد جاء عن طريق هاتين الكلمتين بث للحركة داخل إطار الصورة بالإضافة إلى تصوير الكثرة والفرع والتوقف والاندفاع إلى أرض المحشر عن طريق السوق من قبل الملائكة للمحشورين.

فالتوقف يظهر في الصورة من موقف المحشورين المتباطيء الذي يفهم من خلال السوق والطرْد حيث إنَّهم يساقون وهم مكرهون منقادون بشدة وعنف. فياله من موقف مهيب ثم نجد التحديد الزمني في أوَّل المشهد في كلمة «يوم» التي تبعث في الوجدان تأملاً يظل يراقب هذا الزمن ويسجِّل لحظته في فترة تمتد داخل النفس، ثمَّ ما نجده من تصوير بديع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾. وهو تصوير للفترة الزمنية الحاصلة بين الشرط وجوابه التي تثير الدهشة والغرابة وما في تأكيد معنى الشرط الذي

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور: (١٤/١١).

تضمنه [إذا] لقوة معنى الجزاء بـ[ما] الزائدة بعدها حيث إنَّ شهادة السمع، وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط، وهو المجيء، يدل على ذلك استنكارهم على جلودهم حيث قالوا «لم شهدتم علينا» وهنا نلاحظ ازدياد الصورة حيوية وتأثيرًا عبر عنصر الحوار الحاصل بينهم وبين جلودهم، حيث ضاعف هذا الحوار من قدرة التصوير على التأثير فجعل المتلقي يشعر كأنه حاضر بين القوم يتابع حركتهم ويسمع حوارهم ويرى حالهم.

«في هذا تتم عملية التصوير بأخذ جميع عوامل التخيل فالعين ترى والأذن تسمع والخيال يتابع والنفس تنقل، وتستجيب لما يوحى به المشهد الحي المائل»^(١). كذلك نجد تصوير المشاعر والأحاسيس المخنوقة بالندم والحسرة المتمثلة في الاستفهام الإنكاري في قولهم لجلودهم «لم شهدتم علينا»، فقد شارك معنا في هذا المشهد من عناصر التصوير الاستحضار للمشهد عبر صيغتي المضارع، كذلك مشاركة عنصر الحوار، ثم الاستفهام الإنكاري المصور للمشاعر والأحاسيس التي يشعر بها المجرمون في ذلك اليوم العظيم، وما يحمله تكرار ميم الجمع من الدمدمة والزمجرة التي توحى بمشاعر الحسرة والأنين حتى إذا ما وصلنا إلى العتاب لهم، وخطابهم نرى هذا التكرار.

وإن كان في آخر هذه الصورة صورة مجازية، ولكن أغلبها من هذا القسم، فلذلك أدرجت هنا. فأخر هذه الصورة كما هو ملاحظ يحمل إيقاعًا قويًا عبر تكرار ميم الجمع التي توحى بكل الندم والحسرة والأنين والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ﴾^(٢)، وسيأتي تفصيل شامل للإيقاع عبر التكرار في السورة الكريمة في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(١) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغةً ومنهاجًا، د/ عبدالغني بركة، ص (٣١٣).

كذلك نجد في هذا القسم ما يسمّى بالمقابلة التصويرية .
والمقابلة التصويرية في السورة كثيرة فهناك مقابلة تصويرية بين صورتين ماضية وحاضرة، إحداهما حاضرة الآن، والأخرى ماضية في الزمان حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة ويتمثل ذلك تمام التمثل في قوله تعالى :
﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِئِي قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾^(١) . فالصورة الحاضرة هنا هي مشهدهم عند السؤال من قبل الله تعالى عن الشركاء من الأصنام والأنداد التي أشركوا بها مع الله في الدنيا، فما كان موقفهم إلاّ الخوف الشديد الذي دفعهم بأن يتبرءوا من هذه الآلهة والشركاء، تقابلها صورتهم الماضية في الدنيا التي كانوا مصّرين فيها على إثبات الشركاء في قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴾^(٢) .

فقد ذهبت كل تلك الضلالات التي كانوا يدعونها، ويتمسكون بها في الدنيا، ومن حيوية التصوير في هذا المشهد أنّه طوى عمر الدنيا، وأوقف المشركين يُسألون أمام الله تعالى في يوم القيامة، حيث جعلهم يتذكرون ما كانوا يدعون إليه في الدنيا، وما كانوا عليه، مع أنّهم من حيث الواقع . لم يزالوا في الدنيا مترفين، ولم ينقلوا حسياً للصورة الثانية^(٢) .

ومنها مشهد المؤمنين وقرنائهم من الملائكة فهم «أولياؤهم»

(١) سورة فصلت، الآية : ٤٨ .

(٢) انظر لتطبيق سيد قطب لمثل هذه الصورة في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ في سُورَةِ وَحْمٍ ﴿٤١﴾ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْيُومٍ ﴿٤٢﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾^(١) ، التصوير الفنّي، ص (١٠٠) .

وهم ينزلون عليهم بما يحبون، ويبشرونهم بالخير والجنة التي كانوا يوعدون.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ مَعْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (١).

فنحن في هذا المشهد الآن في الآخرة والدنيا ماض كان وهاهي ذي الجنة لهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون مع أنه من حيث الواقع لم ي زالوا في الدنيا ولم ينقلوا حسيًا إلى الآخرة، ولكنه التصوير القرآني نقلهم هنالك نقلة تامّة. فما أجمله من أسلوب تصويري يدخل في الوجدان كل مارمى إليه القرآن من هدف ديني. فهذه الطريقة المستحضرة للمشهد، التي جعلت من الدنيا ماضيًا كان ومن الجنة حاضرًا معاصرًا، تنقل إلى النفس كل الإحياءات العميقة التي تصل إلى الوجدان، وتعمق فيه حتى يدرك كلّ هذه الأبعاد، ويتأمل فيها حقّ التأمل، فيتمنى المرء لو أنه انتقل إلى الآخرة، وأنّ الدنيا شيء قد كان، وأنّ له في الجنة ما يتمنى، وبهذا يدرك أنه في حاجة إلى الثبات والتقوى حتى يصل هذا المراد.

كذلك نجد في هذا النوع من المقابلات التصويرية نوعًا آخر من المقابلات التي تعقد فيها المقارنة بين صورتين مختلفتين متضادتين، فالمقابلة بين شيئين مختلفين تبين حالتين قد اختلفتا، والغاية من ذلك تعميق الإحساس بهاتين الحالتين والصورتين، وهذه الطريقة في الأداء التصويري لها أثرها العميق في نفس المتلقي؛ لأنها تقوم على الجمع بين مشهدين مع إظهار ما فيهما من اختلاف، فتنقل في نفس المتلقي، اختيار المسلك الآمن والأصلح ويظهر ذلك في

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠-٣٢.

قوله تعالى: ﴿ أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(١). فلننظر هنا إلى الاستفهام في الآية حيث استعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين، وما في هذه المفارقة التصويرية من تعريض بالمشركين، وتبشير للمؤمنين بأنهم آمنون. ثم ما يحمله فعل الإلقاء من تصوير للمشهد، والإلقاء: هو الطرح. وصيغة الفعل المبني للمجهول تصوّر لنا إكراههم على دخول النار والإهانة لهم.

يضاف إلى ذلك ما يصوره لنا حرف الجر «في» الذي يصوّر انحدار جهنّم، وعمقها البعيد، وعندما ننظر إلى بناء الأفعال، ومقابلة فعل المجيء والإتيان الآمن بالإكراه والإهانة في صيغة المجهول «يلقي» نزداد تمليًا للصورة وجماليتها، وذلك لأنّ الخير لا يدفع إليه، وإنّما يأتي إليه المرء راغبًا راضيًا، وما أجملها من صورة للآمن، وقد نفي عنه الروع والخوف، وتهيأت له الجنة بما فيها، ولا ننسى ما في دقّة التصوير القرآني في اختياره للألفاظ المصوّرة القليلة التي تحمل لنا هذه المعاني الكثيرة. فحينما أشارت الآية إلى المغايرة في الجزاء استخدمت كذلك المغايرة في اللفظ الذي دلّ بكلّ دقّة وإحكام على الصورة المرادة. وفي هذا إيجازٌ عظيم، وهو من الأساليب التصويرية المعجزة، ثمّ إنّ هذه الصورة بما أحدثته من مفارقة تصويرية، تركت في الوجدان مقارنة عميقة للحالتين، تدع الخيال والوجدان يعقد المقارنة ليختار إحدى الطريقتين، وهذا هو هدف الصورة في الآية الكريمة.

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «التقابل طريقة من طرق التصوير، وطريقة من طرق التلحين والتعبير القرآني يكثر من استخدامها في تنسيق صورته التي يرسمها بالألفاظ على نحو

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

دقيق»^(١). ثم لا ننسى أن ننبه إلى أنه يدخل في هذا القسم كلّ المقابلات التي تمت في السورة الكريمة، بين أحوال المعرضين ومصيرهم وأحوال المؤمنين ومصيرهم. وهذه المقابلات التصويرية في السورة تتم على أجمل وجه حتّى نجد مقابلة الصفحة للصفحة في مفارقات تصويرية بديعة.

وإلى هنا نختم الحديث عن هذا القسم الظاهر في السورة الكريمة.

القسم الثالث : التصوير في القصة:

إذا كان التصوير هو السمة البارزة في أسلوب القرآن الكريم في عرض القضايا والمشاهد، فإنّ القصة القرآنية لا تأتي مجردة من هذا الأسلوب التصويري، بل إنّها تأتي مقترنة به أتم الاقتران وأكمله، لأنّ القصة بطبيعتها أحداث تروى، ومواقف أحيثها شخصيات آدمية، فهي حياة إنسانية متكاملة، انتجت لنا كلّ مافي القصة من خير، أو شرّ، أو صراع بين الحق والباطل، وكلّ هذه العناصر القصصية من حدث وشخصيات أوجدت لنا الصورة، وأظهرتها في مشاهد ولوحات.

«فتستحيل القصة حادثاً يقع و مشهداً يجري، لا قصة تُروى، ولا حادثاً قد مضى»^(٢). ولا يخفى ما تلقيه القصة في النفس من انطباعات، وتأثير يوجه السلوك، ويحدّد الاختيار. والقصة القرآنية مرتبطة كلّ الارتباط بالغرض الديني، وكان خضوع القصة للغرض الديني أثر في مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة قبلها وبعدها، وفي ثناياها ودلالاتها على الغرض الديني أولاً وقبل كلّ شيء. وكان من غرض القصة في هذه السورة إثبات وحدة الإله ووحدة الدين،

(١) التصوير الفني في القرآن، ص(٩٦).

(٢) المصدر السابق، ص(٩٦).

ووحدة الرسل، ووحدة طرائق الدعوة، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون^(١).

والقصة الواحدة في معظم الحالات، مكررة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالباً، وإنما هو تكرر لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة منها، أمّا جسم القصة كله، فيختار منها في كلِّ مقام مايناسب الغرض المذكورة من أجله، فهو يسوق القصة في مقام يقتضيها، ولهف محدد يرمي إليه، ومن ثمَّ يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود^(٢).

إنَّ التصوير في مشاهد القصة ألوان، لون يبدو في قوة العرض والإحياء، ولون يبدو في تخيل العواطف والانفعالات، ولون يبدو في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف، ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه، أمّا الحق فإنَّ هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً^(٣).

ولنبداً الآن في تمليّ جمالية الصورة في قصة عاد وثمود في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ

(١) ينظر المصدر السابق، ص(١٥٤).

(٢) المصدر السابق: ص(١٥٥).

(٣) التصوير الفني، لسيد قطب، ص(١٩٠).

فَأَسْتَحِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَبَجَيْنًا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾ (١).

فالقصة في الآيات قد نقلت وجهًا تصويريًا دقيقًا ركز على عنصر الترهيب بالعذاب في الدنيا والآخره، بما حل بقوم عاد وثمود المكذبين للرسالة، وفي هذا ترهيب للمعرضين من كفار قريش، فلذلك نجد القصة في عرضها تركز على هذا اللون، مفصلة في حالة عاد أكثر من ثمود لموافقة موقفهم المتعند المستكبر لموقف هؤلاء المشركين المعرضين، والقصة قد وجدت فيها كل ألوان القصة الثلاثة، وإن كان عرض الحدث وهو الإهلاك والإبادة والعذاب هو السائد على عناصر القصة الأخرى، فقد عرض في ابتداء القصة مجملًا ثم جاء التفصيل في عاقبة كل من عاد وثمود، وقد وجدت العناصر الأخرى من رسم للشخصيات، كما هو ظاهر في تصوير شخصية قوم عاد الذين استكبروا في الأرض بغير الحق. وحديث القصة هنا عنهم وقد غرَّتهم قوتهم. والقوة قد تغير كثيرًا من الناس فتعميهم وتصممهم عن الحق، وهذه الإشارات في السورة الكريمة لم توجد من قبل فيما مر من السور السابقة (٢).

ولقد توفر في القصة لون العرض والإحياء بالإضافة إلى ما يوحى به المشهد في القصة من إثارة للعواطف والانفعالات التي تثير النفس، وتحرك القلب. فالقصة قد ظهرت فيها هذه الألوان كلها، حتى نجد الكلمة الواحدة في مشاهد القصة، تحمل لنا مشهدًا تصويريًا، من خلال جرسها وهيئتها، والقصة على العموم قد صورت لنا حال قوم عاد واستكبارهم. وأن الله قد أرسل عليهم الريح العقيم

(١) سورة فصلت، الآية: ١٨-١٣.

(٢) ينظر: القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، د/فضل حسن عباس. (ط١، عمان: دار الفرقان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م)، ص (٩٩).

الصرصر. حيث يلحظ في كلمة أرسلنا التصوير للمعنى، ويلحظ في كلمة «الصرصر» تصويراً عن طريق جرسها، وتكرار حروفها. فالمفردة تصور لنا صورة الريح العاتية المدمرة، وتنقل لنا الصوت الناتج عن اندفاعها المنضغط فهو صوت يصرّ الأذان، ويقطع نياط القلوب لقد مثلت هذه المفردة المشهد، وأوحت به إيحاءً ماثلاً، والحروف المتكررة في الكلمة برنينها نقلت الصوت، وهي تدل أيضاً في تركيبها على رسم التتابع في حركة الريح.

وكذلك كلمة الصاعقة التي أهدقت بقوم ثمود إنَّها توحى إلينا وحيًا من جوهر حروفها عن عنف الأخطار التي نزلت بالقوم، وعصفت بهم فهي نار وتدمير وهلاك. إنَّها توحى كما توحى لنا كلمة الصرصر بالإهلاك العام، فنلحظ في هاتين الكلمتين انسجام الأثر الصوتي المنبعث منها مع الحركة، وصوت الفجعية، لقد حملت لنا الصورة القرآنية بشاعة ما أهدق بالقوم في تلك الأيام حتَّى أضيفت نحسات، وهي من النحس إلى الأيام، حيث أصبحت الأيام هي النحسات، وفي ذلك تصويرٌ لشدتها، ثمَّ التعبير عن الإحساس بالعذاب بكلمة الذوق وقد مرَّ شرح ذلك مرارًا، وقد عبَّر عن أثر الصاعقة فيهم بالأخذ والتعبير بالأخذ إنَّما هو تصويرٌ للمعنى، يضيفي عليه عنفًا وشدَّة، والمراد حلَّت بهم صاعقة العذاب، ووصف العذاب بالهون فيه تهويلٌ وإبرازٌ للعنصر النفسي المؤلم إلى ما لقوه أيضًا من ألمٍ مادي. ومن هنا قد برزت لنا ملامح ودقَّة التصوير القرآني في القصَّة، والقصَّة قد ركَّزت على الهدف المطلوب لغرض السورة، حيث ذكرت قوم عاد وثمود المكذبين للرسالة، وما ألمَّ بهم ترهيبًا لكفَّار قريش المعرضين الذين كذبوا رسولهم محمد ﷺ، ولم يسلموا بما جاء به، وأحسن سيّد قطب حين قال: «وكلمًا تكرر الاستعراض، كان هناك مجال لتلمي هذا الشريط الذي يقف مرَّة عند

كل نبي، ثم يمضي في عرضه مطردًا حتّى يقف محمدًا أمام كفّار قريش، فإذا هو يقول تلك القولة الواحدة، وإذا هم يردون ذلك الرد المكرور، وفي تأمل الشريط على هذا النحو جمال فني أكيد^(١).
ولا شك أنّ هذه القصّة التي تحمل لنا مشهد الفناء والإبادة الجماعية نجدها تؤثر في نفوس الشعراء، حيث يستشهدون بهذه الصورة في مناسبات أشعارهم من مثل قول أبي الأسود الدؤلي.
يدعو على بني زياد أن يفنيهم الله كما أفنى قوم عاد وثمود.
أقول وزادني جزعًا وغيظًا أزال الله ملك بني زياد
وأبعدهم كما غدروا وخانوا كما بعدت ثمود وقوم عاد^(٢)
وهكذا قد رأينا كيف تنوع التصوير في السورة الكريمة، وتعدد تحقيقًا لأهداف السورة ومقاصدها. والله أعلم.

(١) التصوير الفنّي في القرآن، لسيد قطب، ص(١٧٣).

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي (بغداد: شركة النشر والطباعة العراقية، ١٩٥٤م)، ص(١٠٢).

المبحث الثاني اللغة والأسلوب في السورة الكريمة

إن تتبع ألفاظ وعبارات السور الكريمة مع اختلاف المواقف، يوحي للمتطلع بأنه لا توجد لفظة إلا وقد طابقت معانيها بدقة معجزة. فاللغة في السورة الكريمة تمتاز بتجانسها مع المواقف المتعددة، فنجد الألفاظ ترق في المواضع التي تتطلب الرقة، وتجزل وتكون شديدة في المواضع التي تحتاج إلى الشدة والخشونة. فليست اللغة في السورة الكريمة جزلة على الإطلاق، بل هي لغة تتوافق مع المواقف، وحالة المخاطبين، ويزداد التملّي لتلك اللغة المتساوقة مع المواقف، في النظر إلى حالة الشدة واللين عند الشعور بقوة جرس الكلمات التي تهز النفس في مواقف الحزم والشدة، وهدوء الجرس والإيقاع في حالة اللين والهدوء. وهذا ما يلاحظه المتأمل في سورتنا الكريمة من خلال الأمثلة الآتية، والتي جاءت في مواقف متعددة مختلفة، قد أعطي كل موقفٍ منها حقه من اللغة المعبرة الموحية.

فمواطن الرقة في السورة لها مواضع معينة، منها الحديث عن المتقين وبشارتهم بالجنة، ووصفها لهم، وبأن لهم فيها ما تشتهي أنفسهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ مَن أُولِيَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ نَزَّلْنَا مِن عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾^(١). فالألفاظ في هذا الموقف رقيقة عذبة تبعاً لرقة المعنى وعذوبته، فالمعاني هنا كلها معان جميلة لطيفة، والألفاظ سلسلة رقيقة تتسابق

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠-٣٢.

إلى القلب والوجدان، وتبعث في النفس الهدوء والاطمئنان، كما يبعث إيقاعها الهدوء المتفق مع جمال جوّ الآية الذي يبعث الفرح والسرور والبشرى، كذلك نلاحظ مثل هذه الرقة في الألفاظ من سورتنا الكريمة في مواقف التسلية للرسول ﷺ، أو عندما يتطرق الحديث عن المتقين، ومأعد لهم. وأما الأمثلة على جزالة الألفاظ وقوتها فإنه يلحظ في مقام التهديد والوعيد في الحديث عن الكفار وما ينتظرهم من عذاب أليم، وفي وصف المحشورين ومشاهدتهم، فهنا نجد المعاني موعدة في ألفاظ قويّة حازمة مجتمعة الصوت. من ذلك ما جاء في قوله تعالى في تهديد المعرضين: ﴿فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨) (١).

وقوله تعالى في موضع آخر من السورة: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠) (٢). فلننظر إلى هذه الكلمات التي تعبر عن جوّ الآيات، والمتمثلة في صيغ الفعل المضارع المؤكدة باللام، والنون الثقيلة وما أحدثته من جرس قوي، وضغط عند النطق بها، حيث تصوّر لنا القوة والشدة في هذه الآيات والإيقاع فيها واضح، يهز النفوس، فهو قوي كأن جرسه صوت مطرقة، له نغمة تنساب مع قوّة المعنى، ومغزى المحتوى، وهكذا نجد اللغة في السورة جزلة في مواقف الجزالة، وسلسلة رقيقة في مواقف اللين والرحمة. ويلحظ في لغة السورة الكريمة دقّة المعنى، ودقّة الوصف، التي تجعل الموصوف أكثر حضوراً في الذهن والوجدان، ممّا يجعل هذا الوصف جزءاً من التلاحم العضوي للتعبير، وليس وصفاً زائداً، وتحلية جمالية، وهذه سمة قرآنية لا

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

تقتصر على صفة دون غيرها، وهذا ما يلحظ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءِ عَرِيضٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْذِيْقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾. فعند وقوفك عند قوله تعالى: ﴿عَرِيضٍ﴾ وهو بمعنى الدعاء الكثير، و﴿غَلِيْظٍ﴾ بمعنى عذاب شديد لا تجد نفسك إلا مأخوذاً بالدهشة من هذا الوصف الذي ارتبط بموصوف، بل إنك لتكتشف الموصوف الآن، بعد أن كان غائماً غير محدد، وأكثر من ذلك، فإنك تجد اللفظة القرآنية مشعة بأكثر من دلالة، وموحية بأكثر من معنى وكله مقبول، مرضي في الوجدان والعقل^(٢). ومع هذه الشمولية والإيحاء في اللغة فإنه يلحظ أن المعاني قد أدت بأوجز لفظ وأخصره. والمثال على ذلك ما يلحظ في إبهام الأسماء الموصولة التي تأتي للتعظيم أو التهويل، أو التكثير؛ حيث إن دلالة الإبهام والعموم فيها يحمل معاني كثيرة ستكون منحصرة مقيدة لو ذكر أي منها، وهذا ما سيتم تفصيله في الدراسة البلاغية للسورة الكريمة.

والأسلوب في السورة الكريمة متعدد متنوع نظراً لتعدد أغراض السورة الكريمة، ومواضعها، والسورة الكريمة من السور المكية التي اهتمت بموضوع العقيدة بكل محاوره من تقرير للألوهية والوحي واليوم الآخر. والتي قوبلت بالإنكار والإعراض والشك من قبل المشركين، فهم منكرون للألوهية الواحدة؛ لأنهم يشركون مع الله غيره من الأصنام والأنداد التي اتخذوها آلهة لهم، فجاءت مواجهة المشركين ومناقشتهم في هذه القضية في أسلوب جدلي، يقرّهم بكفرهم بالله تعالى ويستنكر عليهم ذلك عن طريق الاستفهام الإنكاري، ويبطل عقيدتهم الفاسدة عبر الاستدلال المنطقي الذي يحجهم بأمر يسلمون بها، وتسلم بها العقول كالاستدلال بالخلق

(١) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٢) ينظر: أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، ص(٦٩).

للكون على أحقيّة الألوهية الواحدة. ونفي الشريك والشرك لأنّ الإله المستحق لأن يكون إلهاً واحداً يعبد هو الذي يخلق، ويتصرف في الكون، فهو الذي ينفع ويضر، والأمر بيده من قبل ومن بعد، فلا ينبغي الإشراف به وجعل الأنداد له. ويتضح هذا في قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِأَيْدِيهِمْ ﴿١٠﴾ (١). والحقيقة أنّ هذا الأسلوب تتجلى فيه مظاهر عظيمة في الإقناع بالدليل حتّى يصبح الجدل مقنعاً، وفي ذلك مخاطبة كلّ مجادل على حسب مستواه العقلي، حتّى يساق إلى الاعتراف والإذعان عن اقتناع وصدق.

ثمّ نرى هذا الأسلوب الجدلي لهؤلاء الكفار موجوداً في السورة الكريمة في إثبات أحقية البعث واليوم الآخر والبراهين حيث نجد التدرج في الإقناع لهؤلاء القوم المنكرين عبر هذا الأسلوب، كما يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩) (٢). فحديث الآية عن إحياء الأرض بعد موتها ماهو إلّا مقدمة لنتيجة حتمية، وهي البعث وإحياء الموتى، فإحياء الأرض بعد موتها. فإذا هي تنبت وتخرج من كلّ زوج بهيج، دليل حسي على البعث وأن الله تعالى على كلّ شيء قدير.

وهذا التدرج في الإقناع، له الأثر الكبير في نفوس المعرضين. ولقد جاء تأكيد هذه النتيجة في ختام الآية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فالقادر على كلّ شيء يحي الموتى، ويفعل ما يشاء سبحانه. وقد جاء جدال المنكرين للبعث واليوم الآخر في السورة من

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠، ٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

طريق آخر أشدّ تأثيرًا، وهو تصوير هؤلاء المعرضين يوم القيامة وهم يساقون إلى أرض المحشر للحساب والعقاب، وشهادة جلودهم عليهم، فهم سيكونون في نار جهنّم، يتذوقون لظاها أو بين يدي الله يوم القيامة يسألهم، فإذا الخزي يلفهم ويسكتهم، وقد تمضي المشاهد ليوم القيامة غير ملتفتة إليهم، وإن كان المقصود في النهاية هو التأثير عليهم، والجدل في السورة الكريمة «جدل منطقي لكنّه ليس منطق الذهن المجرد الذي يجعلها قضية ذهنية باردة لا تخرج من نطاق الذهن، ولا تحرك الوجدان، ذلك بأنّ الذهن كثيرًا ما يقتنع أو على الأقل يعجز عن المواجهة، ومع ذلك لا يغير الإنسان موقفه، إمّا عنادًا، أو هو أمرٌ نفسي، وحالة نفسية، وإمّا لأنّه لم يقتنع وجدانيًا بالقدر الذي يحركه من موقفه الجامد إلى موقفٍ جديد، والقرآن يخاطب العقل والوجدان معًا، والقرآن لا يقصر الأمر على العقل وحده، إنّما يخاطب الروح بلغتها، ويخاطب الوجدان بالطريقة الربانية المعجزة التي تصل إلى مكامن العقيدة كلّها، ولا تهمل واحدًا منها يؤدي إلى الإيمان»^(١).

فأسلوب الجدل للمعرضين في السورة الكريمة لم يكن بالمنطق الذهني المجرد الذي لا يحرك الإنسان من موقفه المتعنّت، ولكن لازم هذا المنطق حركة في الوجدان حتّى يتم التأثير المضاعف الذي هو أدعى إلى القبول والإذعان.

وفي مواجهة المعرضين عن القرآن والرد على شبههم نجد هذا الأسلوب الجدلي، حيث تبين الآيات في السورة الكريمة أنّ المعرضين في جدالهم وإعراضهم ما أرادوا إلّا العناد والهوى، وأنّهم ما طلبوا الحقّ وأرادوه.

وهذا ما يوضّحه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا

(١) دراسات قرآنية، محمّد قطب، ص(٦٩).

فَصَلَّتْ عَيْنُهُمْ ^{مَوْجُودًا} وَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾^(١). ويستمر جدالهم في السورة حول إعراضهم عن القرآن في مواقف متعددة، حتى نجد هذا الأسلوب في آخر السورة يجاري الخصم في شدة إنكاره وإعراضه، والهدف من هذه المجازاة هو استنزال طائر الإنكار من نفوسهم وإلزامهم بالنظر والتفكير.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٥٢﴾^(٢). فالأسلوب في الآية الكريمة فيه مجازاة للخصم، وتنزل معه في درجة إنكاره، ويتضح ذلك من اتخاذ «إن» التي تستعمل في الأمر المشكوك فيه. فالآية تبين لهم وتدعوهم إلى النظر فيما إذا كان هذا الأمر الذي أنكروه هو الحق بعينه، فأين سيذهبون، ولا شك أن هذا الأسلوب يجاري النفوس المنكرة، حتى تتفكر في الأمر، عليها تدعن إلى الحق، فينتزع كل ما فيها من إنكار وإعراض.

والأسلوب الجدلي في السورة يعد من أقوى أساليب المواجهة، وأقواها إلزامًا، ومع ذلك نجد هذا الأسلوب يتسم بالبعد عن عنصر المصادمة الذي يدفع إلى العناد، فنجده يعطي الخصم فرصة إلى التأمل بما يحمله من لطف يجعله يتفكر؛ ليعود إلى الحق والصواب، وهذا هو الهدف في جدل القرآن. وهو مصداق الآية الكريمة من هذه السورة المباركة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ﴿٣٤﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٤).

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

ومن الأساليب المستخدمة في السورة الكريمة أسلوب الحوار والمحاورة، التي زادت من تفعيل الصورة وإظهارها بماتحمل من تأثيرٍ على النفس قد بلغ في ذلك غايته. وهذا ما يلمس في مشاهد اليوم الآخر التي عرضت لنا صورة حشر المعرضين، وشهادة جلودهم عليهم حيث تمَّ إظهار هذا المشهد عبر أسلوب المحاورة بينهم وبين جلودهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١). والقرآن الكريم لا شك بأنه قد استخدم هذا الأسلوب في قضاياه المتعددة التي كان سبيلها الحوار، والمحاورة، وهي لم تأت في القرآن عرضاً، ولم يستدعها سياق أو غرض معيّن، وإنما هي غرضٌ أساسيٌّ من أغراض القرآن وأسلوبٌ محدّد من أساليبه التي يهدف بها إلى تحقيق أغراضه الشاملة لكلّ جوانب الإصلاح عامّةً سواءً كانت فرديةً أم جماعية^(٢).

وبما أنّ صور الإعراض قد ذكرت بكثرة في السورة الكريمة، فقد جاء أسلوب الذم في السورة واضحاً عبر استخدام الاسم الموصول الذي مكّن وأظهر لنا صفات المعرضين، وركّز على إبراز وصفهم الذميمة وهو «الكفر» في مواطن عديدة مقترنة بالموصول الاسمي الذي أكد وأثبت هذه الصفة لهم. والأمثلة على ذلك من السور كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ اضْلَلْنَا﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ﴾^(٥) وقوله تعالى:

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٢) انظر: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم. د/عبدالحليم حفني، ص(٢٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤١.

﴿ فَلَنْتَبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾^(١) ويأتي في مقابل ذلك امتداح الشخصية المؤمنة، وإبراز صفة الإيمان عبر الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾^(٢). وهكذا نجد هذا الأسلوب القرآني البديع في سورة فصلت عبر استخدام الاسم الموصول الذي أبرز تلك الصفات وأكدها وأثبتها، وذلك لأنَّ الجملة التي تعقب ذلك الاسم مرتبطة به أشدَّ ما يكون الارتباط، وسيذكر مزيد بسط حول هذا الأسلوب في المباحث القادمة، ومن الأساليب البارزة في السورة الكريمة أسلوب التكرار عبر تكرار الحروف أو الضمائر المتصلة بالكلمات أو بعض الصيغ، وهو أسلوب بديعٌ جاء ليعطي كلَّ موقفٍ حقَّه من التعبير سواءً كان التعبير عن موقف الحسرة والندم يوم القيامة للمعرضين أو غيره من المواقف المتعددة. وهذا الأسلوب قد اكتفينا بالتنبيه إليه هنا؛ لأنَّه سيأتي مزيد بسط له مع فقرة الإيقاع والتلاؤم الصوتي في السورة عبر التكرار للحروف أو الكلمات أو الصيغ، وذكر هنالك في تلك الفقرة حتَّى يتبين جمال ارتباط اللفظ بالمعنى، والأساليب في السورة الكريمة متعددة فهي لا تحتكم إلى أسلوب واحدٍ بعينه، وإنَّما هي حدائق ذات بهجة من الأساليب التي لا تنتهي أعاجيبها، ومن الأساليب التي فيها الأسلوب القصصي والتصويري، وقد مرَّ الحديث عنها في المبحث السابق، والتقديم والتأخير والإيجاز والاستفهام والشرط والنفي والتوكيد، وكل هذه الأساليب جاءت خادمةً لأغراض السورة ومقاصدها، وسيأتي عنها الحديث مفصلاً بإذن الله تعالى في فصل الدراسة البلاغية للسورة الكريمة.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٨.

المبحث الثالث الفواصل والمقاطع الصوتية

١- تعريف الفاصلة:

الفاصلة لغةً: تعني الحجز بين الشيئين والفصل بينهما.
والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد
فَصَّلَ النظم، وعَقَّدَ مَفْصَّلَ أي جعل بين كلِّ لَوْلَوَتَيْنِ خرزة^(١).
وأما تعريف الفاصلة في الاصطلاح؛ ففيه عدّة تعريفات قد
ذكرها العلماء. من ذلك تعريف الرماني (ت ٣٨٤هـ) حيث يقول:
«الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، كما توجب حسن إفهام
المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب، ذلك لأنّ الفواصل تابعة
للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»^(٢). يأتي بعده تعريف
الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الذي يطابق تعريف الرماني السابق. حيث يرى
أنّ الفواصل «حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني،
وفيها بلاغة والأسجاع عيب؛ لأنّ السجع يتبع اللفظ، والفواصل
تابعة للمعاني»^(٣).

فالرماني والباقلاني مرادهما من هذا الكلام نفي السجع عن
القرآن؛ لأنّ السجع كما يقولان عيب، والفاصلة بلاغة، وذلك أنّ
الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها وذلك لما
فيها من تكلف، ولكن نجد أنّ ابن سنان الخفاجي قد تعقّب قول
الرماني الآنف، حيث يقول: «قال علي بن عيسى الرماني إنّ
الفواصل بلاغة والسجع عيب، وعلل ذلك من أن السجع تتبعه

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة «فصل».

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص (٨٩).

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني، ص (٣٤٠).

المعاني والفواصل تتبع المعاني، وهذا غير صحيح، والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يُقال: إنَّ الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول، والفواصل على ضربين، ضربٌ يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع. وضربٌ لا يكون سجعاً، وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحدٍ من هذين القسمين - أعني التماثل والتقارب - من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني، وبالضد من ذلك حتَّى يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأوّل فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض، والقرآن لم يرد فيه إلّا ما هو من القسم الأوّل المحمود لعلوّه في الفصاحة».

وقد وردت فواصل متماثلة ومتقاربة. ذكر من من الأمثلة على المتماثلة من القرآن آيات من سور الطور، وطه، والعاديات، والفجر، وذكر سورة القمر وقال: «وجميع هذه السورة على هذا الازدواج، وهذا جائزٌ أن يسمّى سجعاً، لأن فيه معنى السجع ولا مانع في الشرع يمنع ذلك» وأمّا مثال الفواصل المتقاربة فذكر منها، آيات سورة (الفاتحة) وأوائل سورة (ق) ثمّ قال: «وهذا لا يسمّى سجعاً لأنّنا قد بيّنا أنّ السجع ما كانت حروفه متماثلة، فأما قول الرماني: إنّ السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق، فغلط؛ لأنّه أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكأنّه غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله. وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له. وهو مقصود متكلف، فذلك عيبٌ والفواصل مثله. وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف. كذلك يعرض في الفواصل عند تقارب الحروف وذكر ابن سنان السبب في تسمية كل ما في القرآن فواصل حيث يقول: «ولم يسمعوا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبةً في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام

المروي عن الكهنة وغيرهم. هذا غرض في التسمية قريب، فأما الحقيقة فما ذكرناه»^(١).

ونجد السيوطي ينقل في إتقانه كلام ابن سنان هذا^(٢) والذي يفضل ويوجب أن يكون هو الصواب أن يميز القرآن في كل شيء يخصه. وهذا هو الأولى وإن اتحد المفهوم واختلفت التسمية، بل إن تسمية مافي كتاب الله تعالى بالفواصل يتمشى مع تسمية الحق جل وعلا لآياته بذلك وفي ذلك تعظيم للقرآن وتمييز لمصطلحاته بحيث تكون الفاصلة علماً بارزاً له تعريفه ومكانته اللائقة به، بل إن الجفوة ماتزال عالقة بلفظة السجعة، لطول ماابتذله الصفة اللفظية في الزخرف البديعي في أسلوب العصر المتأخر، بعد أن كان ملتزماً عند الكهّان في العصر الجاهلي.

يقول السيوطي: «ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأنّ الله تعالى لمّا سلب عنه اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منه، وخاصّة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر، لأنّها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه»^(٣).

ويأتي بعد هذه التعاريف تعريف الداني^(٤) حيث يقول: الفاصلة هي «كلمة آخر الجملة»^(٥). فهو يرى أنّ الفاصلة هي كلمة آخر الجملة، وليست آخر الآية، كما هو متعارف عليه.

(١) ينظر: سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، ص(١٦٤ وما بعدها).

(٢) الإتقان، للسيوطي: (٢٩٤/٣).

(٣) المصدر السابق: (٢٩٢/٣).

(٤) هو عثمان بن سعيد: (٣٧١-٤٤٤هـ)، أحد حفاظ الحديث، من الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، له «المقنع في رسم المصاحف ونقطها»، «معجم الأدباء» (١٢/١٢٤)، «الأعلام» (٤/٣٦٦).

(٥) البرهان: (١/٥٣)، والإتقان (٣/٢٩٠).

ونجد الزركشي في البرهان ينقل كلام الداني ورأيه حيث يقول أبو عمرو: «أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل ممّا بعده، والكلام المنفصل، قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس أي وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين، ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه في تمثيل القوافي «يوم يأت» و«ما كنّا نبغ» وهما غير رأى آيتين بإجماع مع «والليل إذا يسر»، وهو رأس آية باتفاق»^(١). فهو هنا يفرّق بين الفواصل ورؤوس الآي. ويرد عليه الجعبري بأنّ ذلك خلاف المصطلح، ولا دليل عليه في تمثيل سيبويه بـ«يوم يأت» و«ما كنا نبغ» - وليس رأس آية - لأنّ مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية»^(٢).

والداني يظهر من تعريفه هذا أنّ هنالك فواصل داخلية تختلف بروبيها عن الفاصلة في رأس الآية، ويفاد من ذلك أنّ الوقوف على رأس الجملة لا يفقد النصّ عذوبةً وترنيمًا يشعر بهما القارئ كما يشعر بهما مع الفاصلة في آخر الآية، وقد تتفق هذه الفواصل الداخلية مع فاصلة الآية فتزيد الآية إيقاعًا وتلاؤمًا في النغم «والفواصل ليست أعم من رؤوس الآي، كما ذهب إلى ذلك أبو عمرو الداني؛ لأنّ الفوصل - في الاصطلاح - هي رؤوس الآي، ولا عبرة بما يقع في داخل الآيات من وقفات يسمونها فواصل داخلية أو لغوية، كما سمّاها الجعبري، فالفاصلة لا تكون في سائر الآية كما أنّ القافية لا تكون في سائر البيت الشعري، ولكن كلاهما في النّهاية أو الختام»^(٣).

(١) البرهان: (٨٤/١)، والإتقان: (٢٠٩/٢).

(٢) البرهان: (٥٣/١)، والإتقان: (٢٩٠/٣).

(٣) الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، د/ عيد محمد شبايك، (ط١)، القاهرة: دار حراء، =

ونجد ابن منظور في اللسان يقول عن الفواصل: «وأخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر، جلّ كتاب الله عز وجل واحدها فاصلة»^(١).

ويقول الزركشي في البرهان: «الفاصلة هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب، لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمّى فواصل؛ لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجاعاً، فأما مناسبة فواصل؛ فلقوله تعالى: ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾^(٢)، وأما تجنب أسجاع، فلأنّ أصله من سجع الطير»^(٣).

فنجد في تعريف ابن منظور والزركشي الوضوح والتحديد إذا قورن بتعريف كل من الرماني والباقلاني. ومن المحدثين الذين تعرّضوا لتعريف الفاصلة. الدكتور أحمد بدوي. حيث يقول: «نعني بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن»^(٤). وبعد كلّ هذا العرض لهذه التعاريف نجد أنّها تلتقي في عدّة من الأوجه، بعد أن نزيح عنها تعريف الداني الذي يختص بالفواصل الداخلية، فنجد أنّ التعريفات السابقة تتفق في النقاط الآتية:

- ١- موقع الفاصلة في آخر الآية.
- ٢- الفواصل متشاكلة في الحروف والمقاطع.
- ٣- أثرها في تحسين المعاني والتلاؤم الصوتي والاستراحة في الخطاب.

= ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م)، ص(٢٧).

(١) اللسان: (١١/٥٢٤)، مادة «فصل».

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣.

(٣) البرهان: (١/٨٣)، والإتقان: (٣/٢٩٠)، معترك الأقران في إعجاز القرآن: (١/٢٥).

(٤) من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوي، ص(٧٥).

وأما التعريف الذي يمكن أن يكون دقيقًا وجامعًا مستخلصًا ممّا سبق من التعريفات، فهو «أنّ الفواصل هي الكلمات التي تقع في نهاية الآيات وقد تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، ويحسن الوقف عندها حيث يستدعيها السياق مبنى ومعنى؛ لأنّ وجودها به ومن أجله، وهي تفصل بين معنيين، إمّا فصلًا تامًّا أو غير تام، بمعنى أنّه قد ينتهي المعنى عندها أو لا ينتهي»^(١).

ومثال الآية التي لم ينته عندها المعنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٢١٩﴾ وقد اخترت هذا التعريف على تعريف محمد الحسناوي في كتابه الفاصلة القرآنية؛ لعدم شموله مع أنّ المؤلف في استعراضه للتعريف قد نبّه كثيرًا على مافيها من ملاحظات، كما نبّه على مافي تعريف الباقلاني من ملاحظ، وكان الأولى أن يوجّه الانتقاد على تعريف الرمانى السابق زمنًا للباقلاني^(٣).

(١) الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، ص(٢٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩، ٢٢٠.

(٣) ينظر: الفاصلة القرآنية، لمحمد الحسناوي (ط٢، الأردن: دار عمار، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص(٢٨، ٢٩).

٢- الفاصلة ومراعاة الشكل والمضمون

عندما يتطرق الحديث عن الفاصلة ومراعاتها للشكل أو المضمون نجد الاختلاف واضحًا في توجيهات الباحثين حول مراعاة الشكل أو المضمون، فمن الغريب العجيب أن يصرّح بأنّ القرآن يقصد إلى المغايرة في نظمه بالتقديم والتأخير رعايةً للفاصلة. ويتبين الميل الواضح في ذكر اهتمام الفاصلة بالشكل دون المعنى فيما نجده في البرهان للزركشي من ذكر فصلٍ كامل: في إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل أي مراعاة الفاصلة للشكل حيث ذكر اثني عشر موضعًا من ذلك^(١).

ونجد السيوطي في إتقانه ينقل عن شمس الدين بن الصائغ نصًا طويلًا يوضح فيه أنّ القرآن يرتكب مخالفة الأصول ليراعي التناسب بين الفواصل، وذكر أنّه عثر على أربعين حكمًا، ثمانية منها قدّم فيها ما حقّه التأخير^(٢).

وهذا كلامٌ مردود، وسيأتي بيان القول الراجح في هذه المسألة، ومع ذلك نجد أنّ كلاً من الزركشي والسيوطي ينقلان عن الزمخشري ما في كشافه القديم من نظرة معتدلة للفاصلة في مراعاتها المعنى واللفظ معًا، حيث يقول: «لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها، إلّا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتّمامه، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة»^(٣).

وهذا من الكلام المنصف الصائب، ثمّ نجد أنّ الفرّاء ومن

(١) البرهان للزركشي: (١/٦٠، ٦٧).

(٢) ينظر: الإتقان، للسيوطي (٣/٢٩٦ وما بعدها).

(٣) البرهان للزركشي: (١/٧٢)، والإتقان للسيوطي: (٣/٣١٣).

بعده ابن الأثير يميلان في كلامهما إلى مراعاة الشكل، وأنَّ الفاصلة تأتي لذلك. دون النظر إلى المعنى، وفي هذا حيفٌ واضحٌ، ويتضح هذا الاتجاه عند الفراء في كتابه «معاني القرآن»، فهو يرى أنَّه ليس من العيب أن يتحكَّم الشكل في صيغة الفاصلة، فلا ضير من الحذف وجمع المفرد، أو أفراد المثني، ونظر إلى السور القصار. من ذلك نظرته إلى علَّة الحذف في سورة الضحى في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾^(١). فذهب إلى أنَّ العلَّة في حذف كاف الخطاب من قلاك هو الاكتفاء بالكاف الأولى في «ودَّعك» ولمشاكله رؤوس الآيات فاكتفى بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأنَّ رؤوس الآيات بالياء فاجتمع ذلك فيه^(٢).

ولقد تعقبت الدكتورة عائشة عبدالرحمن الفراء في قوله هذا وردت عليه ردًّا مقنعًا صائبًا في كتابها الإعجاز البياني للقرآن، وهي في ردِّها لا تحتكم إلى الاستعمال اللغوي، فترى أنَّ حذف الكاف من: «وما قلى» مع دلالة السياق عليها «تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ، وهي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى، في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك. لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض، وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعلَّ الحس اللغوي فيه يؤذن بأنَّه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة، وأمل اللقاء، وحذفت كاف الخطاب في الفواصل؛ لأنَّ السياق بعد ذلك أغنى عنها، ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيًا عن الكاف، فإن ذكرها يكون من

(١) سورة الضحى، الآيات من: ١ إلى ٣.

(٢) معاني القرآن للفراء، تحقيق د/ عبدالفتاح إسماعيل شلبي، (النَّاشِر: دار السرور)، (٢٧٤/٣).

الفضول والحشو المنزّه عنهما أعلى بيان»^(١). وهكذا تستمر في الرد على الفرّاء، ومن ذهب هذا المذهب كابن سنان في سرّ الفصاحة^(٢) وخير قول ختمت به الحديث أنّها لا تهوّن من قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي، بل إن مقصدها الإشادة باللفظ والمعنى معاً لاعتناء الفاصلة أصلاً بهما.

وتقول إنّه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضي لفظها في سياقه، دلالةً معنوية لا يؤديها لفظ سواه، قد نتدبره فنهتدي إلى سرّه البياني، وقد يغيب عنّا فنقرّ بالقصور عن إدراكه^(٣). ونجد كذلك ابن الأثير يتبيّن اتجاهه إلى ما اتجه إليه الفرّاء حيث نجده يردّ على الزمخشري الذي ذهب إلى أن تقديم المفعول للاختصاص في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤)، حيث يقول: «فإنّه لم يقدّم المفعول فيه للاختصاص، وإنّما قدّم لمكان نظم الكلام؛ لأنّه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ألا ترى أنّه تقدّم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥) الرّحمن الرّحيم ﴿٢﴾ ملك يوم الدين ﴿٣﴾. فجاء بعد ذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن»^(٥). وهذه نظرة تُعبّر عن رؤية ابن الأثير القاصرة في هذا الموضوع. ولقد كتب القدماء الكثير في تمكّن الفاصلة ومراعاتها للمعنى. فقد عقد الزركشي في

(١) الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، للدكتورة:

عائشة عبدالرحمن، (ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م)، ص(٢٦٩).

(٢) سرّ الفصاحة لابن سنان، ص(١٦٩).

(٣) الإعجاز البياني للقرآن، ص(٢٧٨).

(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٥) المثل السائر (٢/٢١٢).

كتابه البرهان فصلاً في ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام. وقال: «إنَّ فواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل»^(١). نذكر مثلاً واحداً من بين الأمثلة الكثيرة المذكورة في البرهان، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾^(٢). فنجد في الفاصلة (تسمعون) المناسبة المعنوية فيما بين السامع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار. وكذلك في قوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣). فقد اقتضت البلاغة هنا الفاصلة «أفلا تبصرون» إذ الظرف مضيء صالح للإبصار. وهذا من دقيق المناسبة المعنوية^(٤).

إنَّ الإعجاز البياني في القرآن يراعي جوَّ الآية ومحتواها، ولا يأتي اللفظ إلاً مراعيًا للمعنى خادماً له. فالقرآن الكريم لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعيًا فيها المعنى والسياق والجرس. ومراعيًا فيها خواتم الآي وجوَّ السورة، ومراعيًا فيها كلَّ الأمور، وجمع بين كلِّ ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال، حتَّى كأنَّك تحس أنَّها جاءت بصورة طبيعيَّة غير مقصودة مع أنَّها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجلَّهُ من كلام وما أعظمه من تعبير^(٥).

(١) البرهان: (٧٨/١).

(٢) سورة القصص، الآية: ٧١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٢.

(٤) ينظر: البرهان: (٨٢/١)، والإنتقان: (٣/٣٠٢ وما بعدها)، معترك الأقران (٣١/١).

(٥) التعبير القرآني للدكتور، فاضل صالح السامرائي، (ط١)، عمَّان: دار عمَّار، ١٤١٨هـ/

(١٩٩٨م)، ص (٢٣٦).

٣ - دراسة الفاصلة في السورة الكريمة

إنَّ المتتبع لحروف الفاصلة في فواصل الآيات من سورة فصلت يلحظ التنوع في الفواصل. أي التنوع في حروف الفواصل التي تنتهي بها كلُّ آية من آيات هذه السورة. وأكثر حروف الفواصل ورودًا في السورة هو حرف النون. فقد ورد في ثلاثين آية فهو الحائز على القدر الأعظم من فواصل السورة الكريمة البالغ عددها (٥٤) آية. يليه حرف الميم فقد ورد في ثماني آيات حيث انتهت كلُّ آية منها بهذا الحرف. كما في قوله تعالى: ﴿حَم، الرَّحِيم، الْعَلِيم، رَحِيم، حَمِيم، عَظِيم، الْعَلِيم، أَلِيم﴾. يليه حرف «الدال» فقد ورد في سبع آيات تنتهي بقوله تعالى: ﴿ثَمُود، حَمِيد، بَعِيد، لِلْعَبِيد، شَهِيد، بَعِيد، شَهِيد﴾. يليه حرف «الراء» في آيتين تنتهيان بقوله تعالى: ﴿قَدِير، بَصِير﴾، ثمَّ حرف «الطاء» وقد ورد في آيتين تنتهيان بقوله تعالى: ﴿قَنُوط، مَحِيْط﴾ يليه حرف «الزاي»، وقد ورد في فاصلة واحدة في قوله تعالى: ﴿عَزِيز﴾. ثمَّ حرف «الباء»، وقد ورد في آية واحدة تنتهي بقوله تعالى: ﴿مَرِيْب﴾. ثمَّ حرف «الصاد» في آية واحدة تنتهي بقوله: ﴿مَحِيص﴾. ثمَّ حرف «الطاء» في آية واحدة تنتهي بقوله تعالى: ﴿غَلِيْظ﴾. ثمَّ حرف «الضاد» في آية واحدة تنتهي بقوله تعالى: ﴿عَرِيض﴾.

وهكذا نجد أنَّه قد تمَّت حروف الروي في فواصل السورة من عشرة أحرف هي: «النون» و«الميم» و«الدال» و«الراء» و«الطاء» و«الزاي» و«الباء» و«الصاد» و«الطاء» و«الضاد». كما هو واضح في الإحصائية السابقة. أما الحروف الحلقية وحروف اللهاء، وهي أعسر الحروف، وأشقها في النطق وهي: الهمزة، والهاء، والعين، والغين، والحاء، والخاء، فقد خلت فواصل السورة الكريمة منها.

وعند النظر إلى هذه الفواصل نجد أنه قد ورد منها من الحروف الشفوية الميم والباء. وهي سهلة النطق في المخرج. وبقية الفواصل وهي «النون»، و«الدال»، و«الراء»، و«الصاد»، و«الطاء»، و«الزاي»، و«الظاء»، و«الضاد» من الحروف اللسانية، وهي حروف متوسطة من حيث سهولة المخرج على لسان المتكلم.

وفواصل السورة الكريمة في عمومها قد جاءت على الحروف المجهورة ما عدا حرف «الصاد» وحرف «الطاء» على رأي المحدثين وإن كانت مجهورة على رأي القدماء^(١).

عرّف سيويه الحروف المجهورة بقوله: «إنّ الصوت المجهور هو حرف أُشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النَّفس أن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت»^(٢). فالمجهور معناه قوّة التصويت، ومعناه عند المحدثين انقباض فتحة المزمار، وعندها يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر، فيضيق الفراغ بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء، ولكن مع إحداث اهتزازات وذبذبات منتظمة للوترين الصوتيين فتحدث الأصوات المجهورة، ويبدو أن تعريف المحدثين لا يتناقض مع تعريف سيويه^(٣).

والأصوات المجهورة كما عدّها سيويه تسعة عشر صوتاً. وهي الهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي،

(١) للمحدثين في الأصوات الثلاثة (الهمزة، والقاف، والطاء). كلامٌ كثير. ينظر: علم اللغة العام، الأصوات، الدكتور كمال بشر، ص(١٠٩ فمابعداها).

(٢) الكتاب لسيويه، تحقيق: عبدالسلام محمّد هارون (ط٢)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (٤/٤٣٤).

(٣) علم الأصوات اللغوية، للدكتور عصام نور الدين، (ط١)، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٢م، ص(٣٤).

والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو.^(١)
والسورة الكريمة تنقسم إلى قسمين من حيث الاتحاد والتنوع
في حروف الفواصل. القسم الأوّل منها: يبدأ من الآية (٣٨-١). وأما
القسم الثاني: فإنّه يبدأ من الآية (٥٤-٣٩) حيث تتنوع حروف
الفواصل في هذا القسم وتختلف.

والقسم الأوّل يحوي قرابة ثلثي السورة، وتكاد الحروف
الخواتم تتوحد إذ تجتمع فيها النونات الثلاثون كلها، ومعظم
الميمات، والميم والنون حرفان متقاربان، ممّا يجعل هذا القسم
وحدة صوتية كاملة في العد البصري والشامي، وشبه كاملة في العد
الكوفي والحجازي لا يخرج عنه سوى حرف واحد هو «الذال» في
الآية الثالثة عشرة. والباقي كلّه نون وميم^(٢).

من هنا نعلم شدّة التلاحم والتلاؤم الصوتي في القسم الأوّل
من السورة والميم والنون متصفتان بصفة لازمة قويّة وهي «الغنة»^(٣).
ومن شدّة التقارب بين هذين الحرفين يلحظ أنّ «النون» تدغم في
«الميم» لأنّ صوتهما واحد، وهما مجهوران، وفاصلة النون كما
اتضح من قبل هي أكثر فواصل السورة وروداً، وهي فاصلة القرآن
الأثيرة. فقد بلغ ماجاء عليها ساكنة بعد واو أو ياء (٣٠٥٠) خمسين
وثلاثة آلاف فاصلة، منها (١٧٥٨) ثمان وخمسون وسبعمئة وألف
على الواو والنون، و(١٢٩١) إحدى وتسعون ومئتان وألف على الياء
والنون^(٤). هذا وحتّى تتضح النسبة العامّة لفاصلة النون، فإنّ عدد

(١) الكتاب لسيبويه، (٤/٤٣٤).

(٢) تفسير سورة فصلت، الدكتور محمد صالح علي مصطفى، ص(٣٢).

(٣) الغنة: هي إطالة لصوت النون مع تردد موسيقي محبب فيها، الأصوات اللغوية،
د/إبراهيم أنيس، (ط٤)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص(٧٠).

(٤) الفاصلة في القرآن، لمحمد الحسناوي، ص(٢١٠)، وانظر الفاصلة بين المبنى والمعنى،
ص(٦٤).

آيات الكتاب الحكيم قد بلغت (٦٢٣٦) آية .
 إنّ فاصلة النون والميم اقتضى الإيقاع بهما إيقاعاً قوياً رصيناً يتلائم مع أسلوب ومعاني السورة القوية، وألفاظها الجزلة، فلا يوجد في فواصل السورة إيقاع رخيٍّ مسترسل، والوحدة الصوتية في القسم الأوّل من السورة تمّت بفاصلة النون والميم المتقاربتين في الصفات الصوتية كالجهر والذلاقة والغنة^(١) .

ثمّ إنّّه يلحظ الارتباط الصوتي الوثيق بين القسم الأوّل والثاني لفواصل السورة، ولا يعني الاختلاف في حروف الفواصل أنّ هنالك قطعاً لذلك الارتباط حيث نجد التآخي بين حروف الفواصل في الصفات الصوتية أو المخارج أو الوقف على السكون، بل إنّ الناظر إلى فواصل السورة الكريمة يجد اختلاط حرف «الميم» و«الذال» مع فواصل القسم الثاني، وهما موجودان في القسم الأوّل. وهذا ما يؤكد العلاقة الصوتية بين القسمين .

وإنّ ممّا يشنف الآذان ويوحّد الإيقاع الصوتي بين فواصل السورة بناء كلّ الفواصل على مقطع واحد فيه التماثل والتقارب، وهو المقطع الذي يغلب على فواصل القرآن الكريم. والذي يميّز تركيبه بنوع من المدّ وهو الواو، أو الياء، قبل حرف الفاصلة. وهنا يقول الزركشي في البرهان «قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكّن من التطريب بذلك»^(٢). ويقول سيبويه: «أمّا إذا ترنّموا فإنّهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينوّن وما لا ينوّن؛ لأنّهم أرادوا مدّ الصوت. وإذا أنشدوا ولم يترنّموا: فأهل الحجاز يدعون القوافي

(١) ينظر: سر صناعة الإعراب لابن جني، دراسة وتحقيق الدكتور حسن هندراوي (ط١)، دمشق: دار القلم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، (١/٦٢، ٦٤).

(٢) البرهان: (١/٦٨).

على حالها في الترتم، وناس من بني تميم يبدلون مكان المدّة النون، فيما ينوّن ومالم ينوّن»^(١).

ونجد الأستاذ الرافي يقول: «وأغلب فواصل القرآن تنتهي بالنون أو الميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها»^(٢).

ومن الأمور التي توحد الإيقاع الصوتي بين فواصل السورة، وتجمع بينها في وحدة صوتية واحدة، بناء كلّ الفواصل على الوقف بالسكون على حرف الروي الفاصلة، حيث وحد الإيقاع بين الفواصل المختلفة في الحركة الإعرابية ما بين نصب ورفع وخفض، فشاع مقابلة المرفوع للمجرور والمنصوب من الأمثلة على ذلك من السورة، المقابلة بين فاصلة «الرحيم» المجرورة للفاصلة «يعلمون» ومقابلة المرفوع لهما في الفاصلة «حميم» وهكذا.

ونجد الزركشي يذكر هذه الظاهرة الشائعة في فواصل القرآن ويُرجّح عدم اشتراط كون السجع يوافق ما قبله في الإعراب كما يتضح هذا الشرط من عبارة السكاكي^(٣). وقال: «ولا شك أنّ كلمة الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها، لأنّ الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة، ولا يتم ذلك إلا بالوقف»^(٤).

هذا بالنسبة للعلاقة الصوتية الجامعة بين قسمي السورة، وأمّا بالنسبة للترابط الصوتي بين حروف فواصل القسم الثاني، فإنّ الترابط ملحوظ، فبمعاودة التأمل نجد فواصل الآيات الأخيرة من السورة (٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١) على أحرف (ص، ط، ظ، ض) وهي من

(١) الكتاب لسبويه: (٤/٢٠٤، ٢٠٦)، (باب وجوه القوافي في الإنشاد).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص(١٨٤).

(٣) هو: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمّد الخوارزمي المعروف بالسكاكي، صاحب كتاب مفتاح العلوم، توفي سنة ٦٢٦هـ. انظر: بغية الوعاة: (٢/٣٦٤).

(٤) البرهان: (١/٧٠، ٧١).

حروف الإطباق^(١).

وفواصل الآيات التالية لها حتى آخر السورة على حرفي (د، ط) وهي من حروف القلقلة^(٢). هذا إذا أدخلنا معها أيضاً حرف «الباء» الوارد قبلها في الآية «٤٥» فكلُّ هذا يؤكد الصلة الصوتية بين فواصل هذا القسم، وسيأتي بعد التفاصيل القادمة، ذكر جدول صوتي يبين شدة التلاحم الصوتي بين حروف الفواصل في السورة الكريمة. ومن العلاقات الصوتية الجامعة بين أجزاء الثلث الأخير من السورة الاتحاد في الوزن، حيث بنيت كلُّ فواصل هذا القسم على وزن «فعليل» ماعداً فاصلة واحدة بنيت على وزن فعول في الآية رقم (٤٩).

أمّا لماذا كان التنويع بين الميم والنون في القسم الأوّل والمبادلة بين الواو والياء المردوفة بها فواصل السورة؟ قيل إنَّ ذلك ما هو إلا تنويع ومراوحة تمّت بين النون والميم تؤذن بإثارة اليقظة والانتباه، وتجدد النغمة على الآذان، وفي ذلك إثراء ومراوحة للسمع والنفس، ومتابعة للمعاني. وإنَّ المرواحة ما بين مدّي الواو والياء في فاصلة النون والتقارب بين الواو التي للين و«الياء» إنّما هو إيقاعٌ صوتي أوجد لنا وحدتين صوتيتين، على حين أنّ وجود كسر قبل الياء، وضم قبل الواو يسلم إلى امتزاج بين هاتين الحركتين والحرفين اللذين بعدهما، فما الكسرة إلّا جزء الياء، وما الضمة إلّا جزء الواو فهما في الحساب شيءٌ واحد لذلك تبادل واو المد ياء المد، وتبادل واو اللين ياء اللين هذا حتى يظل للكيف دوره في إيقاع الفاصلة^(٣). والتبادل قائمٌ بين الواو والياء، كما هو قائمٌ بين

(١) سميت بذلك لأنَّ طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها. انظر:

التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري، ص(١٠٠).

(٢) سميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقوف عليهنّ، وزيادة إتمام النطق بهنّ.

انظر: المصدر السّابق، ص(١٠١).

(٣) الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، ص(١٠٢).

النون والميم، فهذه المدود في الواو والياء قد وهبت فواصل السورة. «قيمة سمعية كبرى، فتكسب إيقاع الفاصلة وضوحًا لا سيما عندما تجانسها حركة ما قبلها، فتمحّض، لانطلاق الصوت مسافةً أطول، وهي عند التكرار يلمس لها تطريب تطيب به النفس، ويأنس إليه السمع والوجدان»^(١).

كذلك ما يلحظ في هذا التنوع وهذا التبادل بين مدّي الواو والياء في فاصلة النون من كسر للرتابة، وما ينتج عنه من جمالٍ إيقاعي عبر التكرار.

«إنّ دور فاصلة النون المردوفة بواوٍ أو ياءٍ في كسر «الرتابة» لا يمكن تفسيره إلاّ «بالإعجاز» فالفاصلة ذات وقع موسيقي متجانس، ودلالة عامّة هي «الجمع» ثمّ هي فوق ذلك فاصلة القرآن الأثيرة، فاللغة العربية على الرغم من تميزها بوفرة المفردات المتماثلة في الرويِّ، لم تغر الفواصل الربانية بالتزامها دائماً بل التزمتها بقدر وفي الحدود التي تحقق الغرض إنّ فاصلة النون المردوفة بواوٍ أو ياء وردت في الأسماء والأفعال والحروف»^(٢). ويزاد على ذلك أنّ المغايرة في حروف الفواصل واختلافها فيه متابعة للموضوع واهتمام به، فالموضوع والتعبير يتحكّم في الإيقاع، وأنّ الذي يميز نغمة الإيقاع إنّما هو الموضوع والمحتوى، ولا ينكر بعد ذلك اهتمام القرآن بالصوت والإيقاع كما مرّ من كثرة انتهاء الفواصل بحروف المدّ واللين، وإلحاق النون بكثرة فهو اهتمام بالصوت والتطريب، وما هذا إلاّ لأنّ القرآن يهتم بالتلاؤم الصوتي الذي يوجد فيه ترنم وتناسق صوتي بديع. ومع ملاحظة اتحاد أغلب الفواصل على حرف النون، فإنّ القاريء أو السامع لا يلحظ أي تكلف في إيراد تلك

(١) المصدر السابق، ص(١٠٢).

(٢) الفاصلة في القرآن، لمحمّد الحسناوي، ص(٣٠٣).

الفواصل على هذا المسار، وإن تغيرت الفاصلة فتغيرها لأسبابٍ منها اقتضاء المعنى وأهميته، ولشدَّ الانتباه عبر تغير الفاصلة إلى هذا المعنى، ومنها الإشارة إلى الانتقال من معنى إلى آخر.

حيث يلحظ في القسم الأوَّل من السورة اهتمام بتهديد المعارضين، وانتقال من الحجج العقلية في الأرض والسماء. وفي هذا القسم من السورة استمرار على فاصلة الميم والنون المتقاربتين بتتابع وخاصة في فاصلة النون حتَّى نشعر عندما نصل إلى الآية الثالثة عشرة من هذا القسم بانقطاع التتابع بحرف فاصلة مغاير لما سبق كلَّ المغايرة، وهو حرف «الذال» والذي افتتحت آيته بالتهديد الصريح المعلن لكفَّار قريش في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(١). حيث إنَّه يلحظ في هذا التغير، في حرف الفاصلة إثارة للانتباه حول المعنى الذي صرَّح فيه بالتهديد الصارم المنذر بالعقوبة، والذي اختلف فيه صوت حرف الفاصلة «الذال» عن صوت حروف الفاصلة السابقة واللاحقة حيث ترجع الفاصلة إلى وضعها التي كانت عليه بعد هذه الفاصلة، وحرف الذال حرفٌ شديد من حروف القلقلَّة، وللفضل به هنا حرفاً مغايراً يوافق في شدَّة إيقاعه المعنى، وممَّا لا حظُه اللغويون المحدثون في صوت الذال أنَّه صوتٌ انفجاري، والأصوات الانفجارية سريعة الانقضاء في نطقها، أي لا تستغرق وقتاً طويلاً في لفظها^(٢). ممَّا يؤيد الموقف والمعنى الذي جاءت له هذه الفاصلة، ويذكر إبراهيم أنيس، ما لاحظُه اللغويون المحدثون من أنَّ «النون» و«الميم» و«اللام» أصوات عالية النسبة في الوضوح السمعي، وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية، ص(١٦٠).

الصفة، ممّا جعلهم يسمونها أشباه أصوات اللين .
وقد شاهد المحدثون أنّه في حالة تسجيل الذبذبات الصوتية
لجملة من الجمل فوق لوح حسّاس، يظهر أثر هذه الذبذبات في
شكل خط متموّج، ويتكون هذا الخط من قمم ووديان . وتلك القمم
هي أعلى ما يصل إليه الصوت من الوضوح، وأصوات اللين تحتل في
معظم الأحيان تلك القمم، تاركةً الوديان للأصوات الساكنة . وقد
وجد المحدثون أنّ اللام والنون والميم، تحتلّ القمم في بعض
الأحيان مثلها في هذا مثل أصوات اللين^(١) .

ومن هنا نعلم مدى جهازة صوت الفاصلة النون والميم
ووضوحها في السمع، ممّا يتناسب مع قوّة معانيها وأغراضها التي
جاءت خادمةً لها .

ومن مميزات حروف الفاصلة في السورة الكريمة تناسب
الحروف في مخارجها والانسجام التام مع المدّ الناشيء في آخر كلّ
آية، والجدول الآتي يوضح لنا ما بين حروف الفاصلة من تأخ في
أكثر الصفات الصوتية، والمتأمل في مقاطع الفاصلة في السورة كلّها
يشعر بعدم التفاوت في مخارج الحروف، فكل حرف جاء ملائمًا
لمابعده في السياق مبنى ومعنى والجدول ستذكر فيه حروف فواصل
السورة مرتبةً ترتيبًا صوتيًا على طريقة ترتيبها في السورة الكريمة .

(١) المصدر السابق، ص(١٦٠) .

جدول توضيحي لمخارج وصفات حروف الفواصل يوضح التآلف والتقارب الصوتي بين حروف الفواصل وقد رتب ترتيباً صوتياً حسب الترتيب الصوتي لها في السورة وهو كالتالي :-

الرقم	الحرف	مخرجه	الصفات	عددتها	رقم الآيات الواردة فيها
١	الميم	بانطباق الشفتين	الجهر ، البينية ^(١) ، الاستفال ^(٢) ، الانفتاح ^(٣) ، الإذلاق ^(٤) .	٥	١ ، ٢ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ .
٢	النون	من طرف اللسان وما يجاذبه من غار الحنك الأعلى	الجهر ، البينية ، الاستفال ، الانفتاح ، الإذلاق .	٥	من الآية ٣ - ١٢ ومن ٣٨ ، ٣٣ و ٣١ - ١٤
٣	الراء	من طرف اللسان وما يجاذبه من غار الحنك الأعلى أو فوق الثنايا العليا وهي أدخل في طرف اللسان قليلاً من النون	الجهر ، البينية ، الاستفال ، الانفتاح ، الإذلاق ، الانحراف ^(٥) ، التكرير ^(٦) .	٧	٤٠ ، ٣٩
٤	الزاي	من بين طرف اللسان ومن بين الثنايا العليا والسفلي	الجهر ، الرخاوة ^(٧) ، الاستفال ^(٨) ، الانفتاح ، الاصمات ^(٩) ، الصغير	٦	٤١

(١) هي صفة وسط بين الشدة والرخاوة ، انظر: مذكرة في علم التجويد ، محمد نبهان حسن ، ص (٤٧) .

(٢) سميت بذلك ، لأن اللسان يستقل بها إلى قاع الفم عند النطق بها على هيئة مخارجها . انظر : التمهيد في علم التجويد ، لابن الجزري ، ص (١٠٠) .

(٣) سميت بذلك ، لأن اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها ، ولا ينحصر الريح بين اللسان والحنك ، بل ينفتح ما بينهما ، ويخرج الريح عند النطق بها . انظر : المصدر نفسه ، ص (١٠٠) .

(٤) معناه خروج الحروف من طرف اللسان ، وما يليه من الشفتين ، وطرف كل شيء ذلك . انظر : المصدر نفسه ، ص (١٠٠) .

(٥) حرفا الإنحراف وهما اللام والراء سميتا بذلك لأنهما انحرفا عن مخرجهما حتى اتصلا بمخرج غيرهما ، وعن صفتها إلى صفة غيرهما ، انظر : المصدر نفسه ، ص (١٠٦) .

(٦) سمي بذلك لأنه يتكرر على اللسان عند النطق به ، كأن طرف اللسان يرتعد به . انظر المصدر نفسه ، ص (١٠٦) .

(٧) الرخو : هو حرف ضعف الاعتماد عليه عند النطق به فجرى معه الصوت ، فهو أضعف من الشديد . انظر المصدر نفسه ، ص (٨) .

(٨) المصمته : المتنوعة من أن تكون مفردة في كلمة طويلة من قولهم صمت إذا منع نفسه الكلام : المصدر نفسه : ص .

(٩) سميت بذلك لأن الصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصغير (المصدر نفسه : ص (١٠١) .

الرقم	الحرف	مخرجه	الصفات	عددتها	رقم الآيات الواردة فيها
٥	الذال	من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا	الجهر ، الشدة ، الاستفال ^(١) الانفتاح ، الإصمات ، القلقلة	٦	١٣ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣
٦	الباء	من الشفتين مع الانطباع	الجهر ، الشدة ، الاستفال ، الانفتاح ، الإذلاق ، القلقلة	٦	٤٥
٧	الصاد	من بين طرف اللسان ومن بين الثنايا العليا والسفلى	الهمس ، الرخاوة ، الاستعلاء ^(٢) الإطباق ، الإصمات ، الصفر	٦	٤٩ ، ٥٤
٨	الطاء	من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا	الجهر ، الشدة ، الاستعلاء ، الإطباق ، الإصمات ، القلقلة	٦	٤٨
٩	الظاء	من ظهر طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا	الجهر ، الرخاوة ، الاستعلاء الإطباق ، الإصمات ،	٥	٥٠
١٠	الضاد	من إحدى حافتي اللسان وما يحاذيها من الأضراس العليا	الجهر ، الرخاوة ، الاستعلاء ^(٤) الإطباق ، الإصمات ، الاستطالة	٦	٥١

من هذا الجدول يتبين للناظر اشتراك كبير في أكثر الصفات والمخارج لهذه الحروف ، مما يزيدنا تأملاً في شدة التلاحم الصوتي ، وجمال الترتيب والرصف الحاصل بين حروف الفواصل على هذا .

(١) معنى الحرف الشديد أنه حرف اشد لزومه لموضعه ، وقوي فيه ، حتى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به . انظر

المصدر نفسه ، ص (٩٨) .

(٢) هو حرف جرى معه النفس عند التطق به لضعفه ، وضعف الاعتماد عليه عند خروجه ، فهو أضعف من المجهور .

(٣) سميت بذلك ، لأن الصوت يعلو عند النطق بما إلى الحنك ، فينطبق الصوت . انظر المصدر نفسه ، ص (١٠٠) .

(٤) الاستطالة : هو طول في المخرج ، وله حرف واحد ، وهو ((الضاد)) . انظر مذكرة في التجويد ، ص (٤٩) .

حروف الفواصل على هذا المدرج المرتب على ترتيبها في السورة الكريمة. ونستطيع أن نقول: إنَّ وجه الشبه بين كلِّ هذه الأصوات هو أنَّ مخرجها تكاد تنحصر بين أوَّل اللسان (بما فيه طرفه) والثنايا العليا (بما فيها أصولها).

وعلى رغم أنَّ هذه الحروف قد تقاربت في مخرجها، فإنَّ لكلِّ حرف منها صفاته الصوتية المتباينة، ويلحظ أيضًا أنَّ هنالك اشتراك بين حروف الفواصل في صفة الجهر، إلَّا في حرف واحد، وهو «الصاد».

ومن أوجه الاتفاق المتضح في الجدول يتبين أنَّ الميم والنون والرَّاء اتفقت في الجهر، والبينية، والاستفال، والانفتاح، والإذلاق، فقد اتفقت في معظم الصفات الصوتية، وقد أيدها المدرج الصوتي للسورة حيث جاءت هذه الفواصل متتابعة.

ولشدة التقارب بين الميم والنون والرَّاء، يقع بينها الإدغام، فتدغم «الرَّاء» مع «اللام» لقرب المخرجين، ولأنَّ فيها انحرافاً قليلاً نحو «اللام»، وقاربتها في طرف اللسان. كما هو واضح من الجدول، وهما في الشدة وجري الصوت سواء.

وتدغم النون في «الرَّاء» لقرب المخرجين على طرف اللسان وهي مثلها في الشدة، مثل «من ربِّكم»^(١).

وتدغم النون في «الميم» لأنَّ صوتهما واحد، وهما مجهوران مثل «من ماء»^(٢).

وقد جاء التتابع بين هذه الأحرف الثلاثة في السورة حيث كان حرف الميم في الآية (٣٦) وأتى بعده حرف النون في الآيتين (٣٧) و(٣٨)، ثمَّ أعقبها فاصلة الرَّاء في آيتين وهما (٣٩) و(٤٠). وفي

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.

هذا ترتيبٌ صوتيٌّ بديعٌ بين فواصل هذه الآيات . وفي فواصل السورة ظاهرة تستوقف المتأمل في بديع نظم فواصلها، وجمال رصفه، وهي ظاهرة التماسك والبناء الصوتي المتناسق . حيث يلحظ وجود الآيتين والثلاث الآيات تتوالى على حرفٍ واحد، ثمَّ يقطع هذا الحرف في آيتين بحرفٍ آخر أو بفاصلة تبدو أنَّها منفردة، ولكنَّ القارئ سيجد نفسه وسمعه بعد قليل يعود إلى الفاصلة التي سبقت بآية أو آيتين، ثمَّ يعاود الانقطاع ثمَّ العودة إلى الحرف نفسه، ويعني ذلك وجود اتصال نغمي، وائتلاف وتنوع، فيه اتصال وتماسك، فكلُّ آية تأخذ بأختها، وتدل أولياتها على أخرياتها والأمثلة على ذلك من السورة مالملاحظ في فاصلة «الذال» حيث أتت في الآية (٤٢). ثم فصل بحرف مغاير لها في الآية (٤٣)، وهو حرف الميم، ثم رجعت الفاصلة بعدها إلى حرف شديدٍ مساوٍ تمام المساواة في كلِّ صفاته الصوتية لحرف الذال في الجهر والشدة، والإذلاق، والقلقلة ثم عودة إلى حرف الذال في الآية التالية (٤٧)، ثمَّ الفصل بثلاث آيات متتالية بحروف الإطباق وهي «الصاد» و«الطاء» و«الظاء» في الآيات (٤٨)، (٤٩)، (٥٠).

ثمَّ عودةٌ أخرى إلى الذال في الآيتين (٥٢)، (٥٣)، ثمَّ تُختتم السورة بفاصلة «الطاء» التي تعود مرتبطة بأحرف الإطباق السابقة لحرف الذال قبل قليل، وهذا يعني أنَّ الصلات الصوتية بين حروف الفواصل مترابطة متناسقة، روعي فيها المعنى واللفظ .

٤ - دراسة التلاؤم والإيقاع الصوتي بين فواصل السورة

عبر التقطيع الصوتي لها

وهنا مازلنا نواصل الحديث عن كشف أسرار التلاؤم والإيقاع الصوتي الذي أحدثته لنا فواصل السورة الكريمة في نسقٍ عذبٍ متجانسٍ، وسيتم توضيح ذلك عبر معيار التقطيع الصوتي للفواصل، وسيكون التقطيع هنا على طريقة تقطيع المستشرقين للنثر، ومقاطع الكلام وفق دراستهم تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صغير أو قصير: يرمز له بخط قصير هكذا (-)، وهو يقابل في الكلام الحرف المتحرّك. ومتوسّط: يرمز له بالرقم (٥). أو دائرة صغيرة، وهو يقابل حرفين أوّلهما متحرك، وثانيهما ساكن. وطويل: يرمز له بالرقم (٩)، وهو يقابل ثلاثة أحرف، أوّلهما متحرك يليه ساكنان ولا يجيء هذا المقطع إلّا في نهاية كلام يُسكت عنده^(١).

وهذه الطريقة سيظهر من خلالها مدى التوافق العظيم بين فواصل السورة الكريمة، حيث انتظمت في سلسلة متجانسة متوالية يربطها صوت الإيقاع المتلائم عبر الاتفاق بين الكلمات في البنية المقطعية الواحدة^(٢).

وهذا هو السرُّ في كشف الاتفاق الصوتي بين الفواصل وتلاؤمها. فلننظر الآن إلى التقطيع الصوتي لفواصل السورة، ومدى مافيها من اتفاقٍ وتوافقٍ، حيث تفتتح السورة الكريمة بالحروف المقطّعة «حم» وهي تعتبر آية برأسها، وهي الآية الأولى من السورة، وعند تقطيعها يظهر أنّها تتكون من مقطعين متوسط وطويل^(٣). هكذا (ح + ميم) (٩+٥) وهي توافق بقيّة فواصل السورة الكريمة في الانتهاء بالمقطع الأخير كما سيأتي بيانه من خلال الجدول الآتي.

(١) ينظر: موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص(١٥١)، وينظر: التطبيق العملي لهذه المقاطع،

لأستاذنا الدكتور حسن بن محمد باجودة في كتابه تأملاتٌ في سورة العاديات، ص(٤٠).

(٢) يقصد بالبنية المقطعية: «عدد المقاطع في الكلمة وكونها قد جاءت موافقةً لنظيرتها في عدد المقاطع، وفي ترتيبها، وهي بهذا تكون قد اتفقت معها عند التقطيع».

(٣) عُدَّ حرف (ح) بحرفين؛ لأنّنا حينما نقرأ «حم»، نقرأ «ح» بمقدار حركتين، فهنا في الحقيقة مقطع متوسط.

حرف الفاصلة	التقطيع الصوتي لها	الفاصلة	الآية
الميم	(٩ - ٥)	الرَّحِيم	٢
النون	(٩ - ٥)	يَعْلَمُونَ	٣
النون	(٩ - ٥)	يَسْمَعُونَ	٤
النون	(٩ - ٥)	عَامِلُونَ	٥
النون	(٩ - ٥)	مُشْرِكِينَ	٦
النون	(٩ - ٥)	كَافِرُونَ	٧
النون	(٩ - ٥)	مُنُون	٨
النون	(٩ - ٥)	عَالِمِينَ	٩
النون	(٩ - ٥)	سَائِلِينَ	١٠
النون	(٩ - ٥)	طَائِعِينَ	١١
الميم	(٩ - ٥)	الْعَلِيم	١٢
الذال	(٩ -)	ثَمُود	١٣
النون	(٩ - ٥)	كَافِرُونَ	١٤
النون	(٩ - ٥)	يُجْحَدُونَ	١٥
النون	(٩ - ٥)	يَنْصُرُونَ	١٦
النون	(٩ - ٥)	يَكْسِبُونَ	١٧
النون	(٩ - ٥)	يَتَّقُونَ	١٨
النون	(٩ - ٥)	يُوزَعُونَ	١٩
النون	(٩ - ٥)	يَعْمَلُونَ	٢٠
النون	(٩ - ٥)	تَرْجِعُونَ	٢١
النون	(٩ - ٥)	تَعْمَلُونَ	٢٢
النون	(٩ - ٥)	نَحَاسِرِينَ	٢٣
النون	(٩ - ٥)	مَعْتَبِينَ	٢٤

حرف الفاصلة	التقطيع الصوتي لها	الفاصلة	الآية
النون	(٩ - ٥)	خاسرين	٢٥
النون	(٩ - ٥)	تغلبون	٢٦
النون	(٩ - ٥)	يعملون	٢٧
النون	(٩ - ٥)	يُحِلُّون	٢٨
النون	(٩ - ٥)	أَسْفَلِينَ	٢٩
النون	(٩ - ٥)	توعِدُونَ	٣٠
النون	(٩ - ٥)	تَدْعُونَ	٣١
الميم	(٩ -)	رَحِيمٍ	٣٢
النون	(٩ - ٥)	مُسْلِمِينَ	٣٣
الميم	(٩ -)	حَمِيمٍ	٣٤
الميم	(٩ -)	عَظِيمٍ	٣٥
الميم	(٩ -)	عَلِيمٍ	٣٦

حرف الفاصلة	التقطيع الصوتي لها	الفاصلة	الآية
النون	(٩ - ٥)	تعبدون	٣٧
النون	(٩ - ٥)	يسئمون	٣٨
الراء	(٩ -)	قدير	٣٩
الراء	(٩ -)	بصير	٤٠
الزاء	(٩ -)	عزيز	٤١
الذال	(٩ -)	حميد	٤٢
الميم	(٩ -)	أليم	٤٣
الذال	(٩ -)	بعيد	٤٤
الباء	(٩ -)	مريب	٤٥
الذال	(٩ -)	عبيد	٤٦
الذال	(٩ -)	شهيد	٤٧
الصاد	(٩ -)	محيص	٤٨
الطاء	(٩ -)	قنوط	٤٩
الطاء	(٩ -)	غليظ	٥٠
الضياء	(٩ -)	عريض	٥١
الذال	(٩ -)	بعيد	٥٢
الذال	(٩ -)	شهيد	٥٣
الطاء	(٩ -)	محيط	٥٤

من خلال هذه الجداول يتبين للناظر قمة الاتفاق بين فواصل السورة، حيث إنَّها قد اتفقت في المقطعين الأخيرين من كلِّ فاصلة وهما (- + ٩) حيث لا تختلف أي فاصلة في الانتهاء به. وهذا ممَّا يعطي الفواصل نسقًا صوتيًا منتظمًا وموحدًا.

ثمَّ لننظر إلى الاتفاق البديع بين فواصل السورة من الآية الثانية إلى الآية الواحدة والثلاثين، كيف اتفقت في بنيتها المقطعية، وحرف فاصلتها النون، أو الميم في فاصلتين اثنتين، ولم يختلف عن هذا الهرم الصوتي المنتظم إلا فاصلة الآية (١٣) حيث جاءت على مقطعين اثنين، ثمَّ إنَّه يلحظ وجود هرم صوتي بديع آخر في الثلث الأخير من السورة، والذي يبدأ منتظمًا من الآية (٣٩) إلى نهاية السورة في الآية (٥٤).

إنَّ هذا التوافق البديع قد كشف لنا هذا السر اللطيف في النسق الصوتي الجامع لفواصل السورة الكريمة، وسيأتي بعد البيانات التالية تفصيل أوسع وأدق لهذه الملاحظات الصوتية البديعة بين فواصل السورة الكريمة، حيث يقرن بجانب التقطيع الصوتي الوزن الصرفي للكلمات، وأمَّا هنا فإنَّنا سنستكمل قبل الانتقال إلى هذه النقطة، اتفاق الكلمات التي قبل الفاصلة في الآية مع التي سبقتها أو تأتي بعدها، وهذا يكشف للمتأمل مزيدًا من معرفة التلاؤم الصوتي والإيقاع المتتابع بين كلمات وفواصل السورة الكريمة، فلننظر إلى هذا التوافق البديع ما بين الآية الثانية والثالثة.

من قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
٩٥ ٥٥

وقوله تعالى: ﴿فَهَمُّ لَا يَسْمَعُونَ﴾
٩٥ ٥٥

حيث يلحظ الاتفاق التام ما بين الفاصلتين في الآيتين وماسبقها في التقطيع الصوتي لها فقد اتفقت في عدد المقاطع وترتيبها واجتمعت في وحدة إيقاعية متتالية بل إنَّ المتتبع لهذه الظاهرة يجد منها الكثير في السورة على ما يلحظ في الإحصائيات التالية:

العدد	الكلمات المتفقة	رقم الآيات
١	ربُّ العالمين ٩-٥ ٥٥	٩
٢	ءَ للسائلين ٩-٥ ٥٥	١٠
٣	تينا طائعين ٩-٥ ٥٥	١١
٤	هم لا ينصرون ٩-٥ ٥٥	١٦
٥	كانوا يكسبون ٩-٥ ٥٥	١٧
٦	كانوا يتقون ٩-٥ ٥٥	١٨
٧	كانوا يعملون ٩-٥ ٥٥	٢٠
٨	مما تعملون ٩-٥ ٥٥	٢٢
٩	كانوا خاسرين ٩-٥ ٥٥	٢٥
١٠	كانوا يعملون ٩-٥ ٥٥	٢٧
١١	كنتم توعدون ٩-٥ ٥٥	٣٠
١٢	ها ما تدعون ٩-٥ ٥٥	٣١
١٣	هم لا يستمون ٩-٥ ٥٥	٣٨

العدد	الكلمات المتفقة	رقم الآيات
١	من الخاسرين ٩-٥ ٥٥-	٢٣
٢	من المعتبين ٩-٥ ٥٥-	٢٤
٣	من الأسفلين ٩-٥ ٥٥-	٢٩
٤	غفورٌ رحيم ٩-٥ ٥٥-	٣٢
٥	من المسلمين ٩-٥ ٥٥-	٣٣
٦	وليُّ حميم ٩-٥ ٥٥-	٣٤

ثم لننظر إلى هذا التوافق البديع في آخر السورة الكريمة في هذا الجدول الآتي :

العدد	الكلمات المتفقة	رقم الآيات
١	ل شيءٍ قديرٍ ٩-٥٥-	٣٩
٢	كتابٌ عزيزٍ ٩-٥٥-	٤١
٣	حكيمٍ حميدٍ ٩-٥٥-	٤٢
٤	عقابٍ أليمٍ ٩-٥٥-	٤٣
٥	مكانٍ بعيدٍ ٩-٥٥-	٤٤
٦	عذابٍ غليظٍ ٩-٥٥-	٥٠
٧	دعاءٍ عريضٍ ٩-٥٥-	٥١
٨	شقاقٍ بعيدٍ ٩-٥٥-	٥٢
٩	ل شيءٍ شهيدٍ ٩-٥٥-	٥٣
١٠	ل شيءٍ محيطٍ ٩-٥٥-	٥٤

من هنا يتبين للمتأمل في هذه الجداول ما أحدثته كلمات وفواصل السورة الكريمة من تلاؤم صوتي وإيقاع متلاحق لطيف لا عسر فيه ولا تكلف بل قد جاء موافقاً للمعاني وجو السورة في بيان عظيم لا يجارى. فهو من عند الحكيم الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأمّا إذا ذهبنا إلى طريقة أخرى أدق ممّا سبق في دراسة النسق الصوتي في فواصل السورة الكريمة، فإنّنا سنعثر على المزيد من الأسرار العجيبة. وذلك بأن يتم النظر إلى التوافق بين كلمات الفواصل في التقطيع أو البنية المقطعية، يضاف إليها النظر إلى الاتفاق في الوزن الصرفي. بهذه النظرة نجد الميزان سيكون دقيقاً، وبه نجد المناسبة اللفظية بين فواصل السورة الكريمة.

ولقد عرّف ابن أبي الإصبع المناسبة التي نحن بصددنا حيث يقول هي: «توخي الإتيان بكلماتٍ متزنات، فإن كان مع الاتزان تقفية فهي تامّة، وإلا فناقصة»^(١).

والمقصود من الوزن في تعريف ابن أبي الإصبع على ما يبدو (الوزن الصرفي). وفواصل السورة الكريمة فيها هذه المناسبة اللفظية حيث يلحظ المتأمل وجود فواصل في السورة قد اتفقت في وزنها الصرفي مع اتفاقها في حرف الفاصلة التقفية يضاف إلى ذلك وهي نتيجة حتمية الاتفاق في البنية المقطعية، وهذه مناسبة لفظية تامّة. وهناك فواصل اتفقت في الوزن الصرفي والتقطيع، ولم تتفق في التقفية أي في الحرف الأخير حرف الفاصلة، وهذا يعني أنّها مناسبة لفظية ناقصة. وعلى هذه النظرية يُلحظ أنّ دراسة المناسبة اللفظية بين فواصل السورة الكريمة تنقسم إلى قسمين^(٢).

(١) بديع القرآن، ص(١٤٩).

(٢) ينظر في هذا الموضوع بتوسع في كتاب: المناسبة اللفظية في القرآن الكريم، للدكتور حازم

القسم الأوّل: المناسبة اللفظية التامة بين فواصل السورة، وهي التي اتفقت في الوزن الصرفي، والتقطيع الصوتي، وحرف الفاصلة أي التقفية. ويندرج تحت هذا القسم فقرتان هما:

(أ) فواصل تتفق في الوزن الصرفي والبنية المقطعية.

(ب) فواصل تتفق في البنية المقطعية، وتختلف في الوزن الصرفي.

القسم الثاني المناسبة اللفظية الناقصة: وهي التي لم تتفق في الحرف الأخير، حرف الفاصلة، ويندرج تحت هذا القسم أيضاً فقرتان:

(أ) فواصل تتفق في الوزن الصرفي والتقطيع.

(ب) كلمات تتفق في التقطيع وتختلف في الوزن الصرفي^(١).

وعلى هذه النظرة ستكون دراسة الفواصل وفقاً للحرف الأخير، إلى مقاطع مركبة «والمقطع هو الآيات التي تتفق فواصلها في الحرف الأخير، والمقطع المركب، لا يشترط فيه أن تكون آياته متتالية»^(٢).

وإذا نظرنا إلى فواصل السورة الكريمة، من هذه الناحية فإننا نجدها تنقسم إلى ثلاثة مقاطع مركبة تدرج تحت ما يسمّى بالمناسبة اللفظية التامة كما مرّ بيان هذا التقسيم فيما سبق. وهي كالاتي:

المقطع المركب الأوّل:

وحرف فاصلته «الميم» وتوجد مناسبة لفظية تامة بين فواصل هذا المقطع، وهذه الفواصل هي (رحيم، عليم، رحيم، حميم، عظيم، عليم، أليم)^(٣). وأرقام آيات هذه الفواصل هي: (٢، ١٢، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٣). والمناسبة اللفظية التامة هنا تقوم

= علي كمال. (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٦م)، ص(٣٦، ٣٧).

(١) ينظر: المصدر السابق، ص(٣٦، ٣٧).

(٢) المصدر السابق، ص(٦٩).

(٣) بعض هذه الفواصل معرّف بأل التعريف، وهي أداة للتعريف فلم تدرج في الوزن هنا، ولا في البنية المقطعية، فعلى هذه النظرة نجد الإتفاق.

على الاتفاق في البنية المقطعية والوزن الصرفي وحرف الفاصلة.
حيث إنَّ التكوين المقطعي لهذه الفواصل هو:

رحيم	—	رَ + حيم	—	(٩ + -)
عليم	—	عَ + ليم	—	(٩ + -)
رحيم	—	رَ + حيم	—	(٩ + -)
حميم	—	حَ + ميم	—	(٩ + -)
عظيم	—	عَ + ظيم	—	(٩ + -)
عليم	—	عَ + ليم	—	(٩ + -)
أليم	—	أ + ليم	—	(٩ + -)

والوزن الصرفي لهذه الفواصل هو «فَعِيل». فهنا نلاحظ في هذا المقطع المركَّب والذي فاصلته الميم الاتفاق في البنية المقطعية. كما هو واضح من التقطيع العملي السابق، والاتفاق كذلك في الوزن الصرفي لجميع فواصل هذا المقطع، فالمناسبة هنا مناسبة لفظية تامَّة تدرج تحت الفقرة (أ) من التقسيم السابق.

المقطع المركَّب الثاني:

وحرف فاصلته «النون»، وينقسم إلى فقرتين. هما
(أ) المناسبة التامَّة بين فواصل الآيات (٥، ٧، ١٠، ١١، ١٤، ٢٣، ٢٥). وهذه الفواصل هي (عاملون، كافرون، سائلين، طائعين، كافرون، خاسرين) والمناسبة اللفظية هنا تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية والوزن الصرفي. حيث إنَّ التكوين المقطعي لهذه الفواصل هو:

عاملون	—	عا + م + لون	—	(٩ + - + ٥)
كافرون	—	كا + ف + رون	—	(٩ + - + ٥)
سائلين	—	سا + ء + لين	—	(٩ + - + ٥)
طائعين	—	طا + ء + عين	—	(٩ + - + ٥)
كافرون	—	كا + ف + رون	—	(٩ + - + ٥)

خاسرين — خا + سِ + رين + (٥ + - + ٩)

خاسرين — خا + سِ + رين + (٥ + - + ٩)

والوزن الصرفي هنا لمفرد هذه الفواصل هو «فاعل»^(١).

(٢) المناسبة التامة بين فواصل الآيات (٣، ٤، ١٥، ١٨، ٢٠،

٢٧، ٢٨، ٣٨). وهذه الفواصل هي : (يعلمون، يسمعون، يجحدون،

يتقون، يعملون، يعملون، يجحدون، يسأمون). والمناسبة اللفظية

هنا تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية والوزن الصرفي.

والتكوين المقطعي لهذه الفواصل هو:

يعلمون: — يعْ + لَ + مون — (٥ + - + ٩)

يسمعون: — يسْ + مَ + عون — (٥ + - + ٩)

يجحدون: — يجْ + حَ + دون — (٥ + - + ٩)

يتقون: — يتْ + تَ + قون — (٥ + - + ٩)

يعملون: — يعْ + مَ + لون — (٥ + - + ٩)

يجحدون: — يجْ + حَ + دون — (٥ + - + ٩)

يسأمون: — يسْ + ءَ + مون — (٥ + - + ٩)

فهنا مناسبة تامة بين فواصل هذه الفقرة، حيث اتفقت في البنية

المقطعية والوزن الصرفي، حيث إنَّ الوزن لهذه الفواصل المتفقة

«يفعلون» واتفقت في الحرف الأخير حرف الفاصلة.

(ب) المناسبة التامة بين فواصل الآيات (١٧، ٢٦، ٣١). وهذه

الفواصل هي: (يكسبون، تغلبون، تدعون). والمناسبة اللفظية هنا

تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية مع الاختلاف في الوزن الصرفي

(١) نجد من بين هذه الفواصل فاصلتين معرفتين بأل التعريف، وهي في الآيتين رقم (١٠، ٢٣).

وأداة التعريف هنا لم تدرج في التقطيع، وعلى هذا نجد الاتفاق، بالنظر هنا إلى مفرد

الفواصل؛ لأنَّ الاختلاف بين الواو والياء، وهما حرفا مد، راجعٌ إلى الاختلاف في

الوظيفة النحوية للكلمات، لأنَّ هذه الفواصل جمع مذكّر سالم، انظر لهذه التفاصيل في

كتاب المناسبة اللفظية في القرآن، ص (٧١، ٧٢).

والتكوين المقطعي لهذه الفواصل هو:

يكسبون — يكُ + سِ + بون — (٩ + - + ٥)
 تغلبون — تغُ + لِ + بون — (٩ + - + ٥)
 تدَّعون — تدُّ + دَ + عون — (٩ + - + ٥)

والوزن الصرفي للفاصلة (يكسبون) هو (يُفْعِلُونَ)، والوزن الصرفي للفاصلة (تغلبون) هو (تَفْعِلُونَ)، والوزن الصرفي للفاصلة (تدَّعون) هو (تَفْعِلُونَ).

وعند التأمّل يلحظ أنّه قد لحق بهذا المقطع المركّب أربع فواصل اتفقت فيه كل فاصلتين في البنية المقطعية والوزن الصرفي، والمناسبة بينهما تامّة. وهي على التوالي كالتالي:

(١) الأولى: في الفاصلتين (يُنصرون) و(يُوزعون) وأرقام الفاصلتين (١٦، ١٩)، والمناسبة اللفظية التامّة هنا تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية والوزن الصرفي. حيث إنّ التكوين المقطعي لهاتين الفاصلتين هو:

يُنصرون: يُنُ + صَ + رُون — (٩ + - + ٥)
 يُوزعون: يُوُ + زَ + عُون — (٩ + - + ٥)

والوزن الصرفي هنا هو «يُفْعِلُونَ».

(٢) الثانية في الفاصلتين (تُرجعون - وتُوعدون). وأرقام الفاصلتين هي (٢١-٣٠)^(١). والمناسبة اللفظية هنا تامّة تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية والوزن، حيث إنّ التكوين المقطعي لهاتين الفاصلتين هو:

(١) هذا ولا يلحظ هنا فاصلٌ كبيرٌ بين الفاصلتين فما بينهما يُقدَّر بثماني فواصل، وهذا الفاصل لا يُعد بالطويل، لأنّ ما بين الفاصلتين فيه تقابلٌ معنوي، فالأولى في مصير الكافرين، «تُرجعون»، والثانية في الوعد للمؤمنين بالجَنَّة «تُوعدون»، وهذا التقابل المعنوي قرّب ما بين الفاصلتين فجعل بينهما اتصالاً معنوياً كما يلحظ الناظر، واتصالاً لفظياً في اتفاقهما في الوزن والبنية، وحرف الفاصلة.

تُرْجَعُونَ: تُرْ + جَ + عُون — (٥ + - + ٩)

تُوْعَدُونَ: تُوْ + عَ + دُون — (٥ + - + ٩)

والوزن الصرفي هنا «تُفْعَلُونَ». وهذه الفواصل الأربع التي لحقت بهذا المقطع المركَّب تدرج تحت المناسبة اللفظية التامة من فئة (أ) كما مرَّ بيان ذلك. وممَّا لوحظ في المقطع المركَّب الثاني أنَّ فواصلها كلّها قد اتفقت في البنية المقطعة، وحرف الفاصلة كما يلحظ المتأمل في التقطيع الصوتي لكل فواصل هذا القسم ومالحق به من فواصل.

المقطع المركَّب الثالث:

وحرف فاصلته «الذال»، وتوجد مناسبة لفظية تامة بين فواصل هذا المقطع، وهذه الفواصل هي (حميد، بعيد، بعيد، شهيد، بعيد، شهيد) وأرقام آيات هذه الفواصل هي (٤٢، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣)، والمناسبة اللفظية التامة هنا تقوم على الاتفاق في البنية المقطعية، والوزن الصرفي. حيث إنَّ التكوين المقطعي لهذه الفواصل هو

حميد — حَ + ميد — (٩ + -)

بعيد — بَ + عيد — (٩ + -)

عبيد — عَ + ييد — (٩ + -)

شهيد — شَ + هيد — (٩ + -)

بعيد — بَ + عيد — (٩ + -)

شهيد — شَ + هيد — (٩ + -)

والوزن الصرفي لهذه الفواصل هي «فَعِيلٌ». ويلحظ الناظر هنا أن بين فواصل السورة علاقة مترابطة حيث نجد اتفاق فواصل هذا المقطع مع المقطع المركَّب الأوَّل والذي حرف فاصلته «الميم» في الوزن والبنية المقطعية.

ويتبقَّى من فواصل السورة فاصلتان على حرف الرّاء، وتوجد

مناسبة لفظية تامةً بينهما. وهي (قدير) و(بصير)، وأرقام هذه الفواصل هي (٤٠، ٣٩).

والتكوين المقطعي لهذه الفواصل هو:

قدير — ق + دير — (٩ + -)

بصير — ب + صير — (٩ + -)

والوزن الصرفي لهاتين الفاصلتين هو «فعليل»، وتتفق هاتان الفاصلتان مع المقطع المركب الثالث في الوزن والبنية المقطعية. ويلحظ ممّا سبق أنّ معظم فواصل السورة الكريمة، قد جاءت أغلبها على القسم الأوّل، وهي المناسبة اللفظية التامة^(١).

القسم الثاني: المناسبة اللفظية الناقصة^(٢).

(١) الاتفاق بين فاصلتي (ثمود، وقنوط). وأرقام هذه الفواصل هي (٤٩، ١٣). وقد اتفقت في الوزن والبنية المقطعية

ثمود — ث + مود — (٩ + -)

قنوط — ق + نوط — (٩ + -)

والوزن الصرفي هو «فعلول».

(٢) الاتفاق أيضاً بين الفواصل الآتية في الوزن والبنية المقطعية (عزيز، محيص، غليظ، عريض). وأرقام هذه الفواصل هي (٤١، ٤٨، ٥٠، ٥١). وقد اتفقت في الوزن والبنية المقطعية.

عزيز — ع + زيز — (٩ + -)

محيص — م + حيص — (٩ + -)

غليظ — غ + ليظ — (٩ + -)

عريض — ع + ريض — (٩ + -)

والوزن الصرفي لهذه الفواصل هو «فعليل».

(١) انظر لحديث مفصل سابق عن هذا القسم في ص (٢٢).

(٢) وهي التي لم تتفق في حرف الفاصلة.

ويستنتج ممّا مضى أنّ الثلث الأخير من السورة الكريمة يتفق في الوزن والبنية المقطعية، والذي يبدأ من الآية (٣٩-٥٤) إلى نهاية السورة ما عدا فاصلة الآية رقم (٤٩) المختلفة في الوزن الصرفي، فقد جاءت على وزن (فعول). من هنا نعلم مدى ما أحدثته فواصل السورة من إيقاع جميل متناسق ومتلائم مترابط له وقع وصداه الذي يتوافق مع معاني السورة وأغراضها.

ونزداد تملياً للجمال الإيقاعي المتلائم بين فواصل السورة الكريمة عند دراسة النبر الذي يقع على المقطع الأخير في كلّ فواصل السورة ممّا يبيّن متانة العلاقات الصوتية الإيقاعية بين فواصل السورة كلها، وجمال التناسب الصوتي. فما هو المقصود بالنبر هنا؟؟

النبر هو: «كون صوت من الأصوات في الكلمة أقوى من بقيتها، فالنبر موقعية تشكيلية ترتبط بالموقع في الكلمة، وفي المجموعة الكلامية، وحدّه أنّه وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام، ويكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم»^(١).

والمرء حيث ينطق بلغته، يميل عادةً إلى الضغط على مقطع خاص من كلّ كلمة، ليجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة، وهذا الضغط هو الذي نسميه بالنبر^(٢).

ويذكر إبراهيم أنيس أنّ لمعرفة موضع النبر من الكلمة العربية، يبدأ أولاً بالنظر إلى المقطع الأخير، فإذا وجد أنّه من النوع الرابع أو الخامس^(٣) فالنبر واقع فيه. نذكر منها المقطع الرابع الذي كان

(١) مناهج البحث في اللغة، د/ تمام حسّان، ص(١٦٠).

(٢) الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، ص(١٧٠).

(٣) يقصد بذلك ويعني المقاطع الصوتية الخمسة للغة العربية التي ذكرها في كتابه الأصوات =

المقطع الأخير لفواصل السورة الكريمة حيث جاءت عليه . وهو صوت ساكن + صوت لين + صوت ساكن . وبالطبع أنّ النبر في جميع الفواصل قد وقع على هذا المقطع للفواصل وهو كالآتي : «حيم، مون، عون، لون، رون، نون، مين، لين، عين، ليم، دون» وهكذا في بقية فواصل السورة .

فدراسة النبر في كلمات الفواصل توضّح القيمة الصوتية المتلائمة التي تسير على نسقٍ صوتيٍّ منتظم، حيث وضوح الصوت بمقدار أعلى عند نهاية كلِّ فاصلة . ممّا يعطي دقات صوتية عالية، ورنّةً قويّةً تتلاحم مع صوت حرف الفاصلة . هذا إذا زدت على ذلك ملاحظة اللغويين المحدثين عن الأصوات الأنفية، وشدّة وضوحها كما مرّ بيانه سابقاً .

يقول إبراهيم أنيس : «النبر هو نشاطٌ في جميع أعضاء النطق في وقت . فعند النطق بمقطعٍ منبور نلحظ أنّ جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط، إذ تنشط عضلات الرئتين نشاطاً كبيراً، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين، ويقتربان أحدهما من الآخر؛ ليسمحاً بتسرب أقل مقدارٍ من الهواء، فتعظم لذلك سعة الذبذبات . ويترتب عليه أن يصبح عاليًا واضحًا في السمع»^(١) .

وكلُّ هذا يؤكّد لنا موافقة فواصل السورة لأجواء السورة ومحتواها من المعاني القويّة الصارخة، ومن أخبار الصاعقة الجاهرة المهلكة، والريح المدمرة . والعذاب والحشر، والوعد والوعيد . والله أعلم .

= اللغوية، ص(١٦٣)، فانظر إلى كلامه فيها بالتفصيل هناك .

(١) الأصوات اللغوية، ص(١٦٩) .

٥ - دراسة التلاؤم الصوتي والإيقاع بين كلمات السورة

١- خفة الكلمات وانسجامها

إنَّ النظرة إلى التلاؤم الصوتي بين جزئيات السورة وآياتها يكشف لنا العلاقة بين اللفظ وما يجاوره من الألفاظ من ناحية الأصوات والدلالات، فلا نحس نشوزاً ولا اختلالاً بل نشعر بالانسجام التام بين الكلمات والخفّة والسلاسة التي تتمتع بها كلمات السورة. فكلما كانت الكلمات خفيفةً عذبةً على اللسان كان الانسجام والتلاؤم أكثر وضوحاً بين الكلمات. والانسجام كما عرفه ابن أبي الإصبع هو: «أن يكون الكلام منحدراً كانحدار الماء المنسجم بسهولة سبك وعذوبة ألفاظ وسلامة تأليف. حتّى يكون للكلام موقع في النفوس وتأثير في القلوب مالميس لغيره، وإن خلا من البديع»^(١). والانسجام ينطبق على كل موضع في القرآن فهو وصفٌ عامٌّ له.

إنَّ الانسجام يُعد ظاهرة من الظواهر الجميلة التي تتجلى في النّظام الصوتي والجمال اللغوي. فما الانسجام إلّا تآلفٌ واتساقٌ بين كلمات القرآن، وتلاؤمٌ فيما بينها في الحركات، والسكنات، والمدّات، والغنّات، وفي الفصل والوقف اتساقاً عظيماً، وائتلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع، ويستهوِي النفوس، في نظامٍ بديعٍ لا يصل إلى مستوى نظمه كلام.

وممّالا شك فيه أنّ الانسجام والخفّة والعذوبة واضحةٌ في كلمات القرآن الكريم، والأصوات في القرآت ترتبط بالموقف من حيث الشدّة في مواقف الترهيب، واللّين في مواقف الترغيب. فالموقف هو الذي يحدّد طبيعة الحروف والحركات.

(١) بديع القرآن لابن أبي الصبع، ص(٤٦٠).

والقرآن مع هذا تتسم كلماته بالخفة والسلاسة، وليس فيه ما يثقل على اللسان أو الأذن، أو يبعث على النفور، إنما كانت فيه أصواتٌ شديدة، تجسّم المعاني المطلوبة. فهل قدّم العلماء معياراً واضحاً يضبط لنا الخفة في الكلمات، والعدوبة فيها والتآلف؟ نجد في هذا المجال كلاماً كثيراً لهم. يذكر من ذلك عن الجاحظ توضيحه لجوانب الوعورة والخشونة، والتي تقع في الألفاظ وسهولتها، وفي انسجام الكلمات فيما بينها، وعن الكلمة وتلاؤم حروفها. فنراه يهتم بحسن البيان وبما يعترى الألفاظ من تنافرٍ وثقلٍ حيث تحدّث عن عيوب النطق، ومخارج الحروف، وما يتلاءم منها، وما يتنافر.

ويوضّح أنّ من الحروف ما لا يقترن في كلمة لما يحدث بسبب اقترانها من تنافرٍ وثقلٍ على اللسان. «فالجيم لا تقارن الظاء. ولا القاف ولا الطاء، ولا الغين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء، ولا السين ولا الضاد، ولا الذال بتقديم ولا تأخير»^(١)

وهذا يُعد من التنافر بين المخارج، وهو هنا يستقبح الثقيل الوعر، ويبين ميله إلى سهولة المخارج، وهو بهذا الكلام يفتح الباب للحديث عن الحروف وتلائمها وتنافرهما والأسباب التي تؤدي إلى ذلك، ويقول عن تنافر الألفاظ: «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تنافر، وإن كان مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلاّ ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
وأجود الشعر عند الجاحظ ما كان متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، وكذلك حرف الكلام، وأجزاء الشعر في البيت تراها

(١) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون. (القاهرة: مكتبة الخانجي).

متفكّةً لمسًا وليتّة المعاطف سهلة، وتراها مختلفةً متباينةً، ومتنافرةً مستكرهةً تشق على اللسان وتكثّه^(١).

هذا وإن لم يكن حديث الجاحظ السابق فيما يخصنا في القرآن، إلاّ أنّه فتح باب النظر في السهولة والانسجام بين الكلمات والوعورة والثقل. وإذا ما انتقل الحديث إلى الرّماني فإنّنا نجده يقدّم كلامًا عامًّا يبين فيه سهولة المخارج في كلمات القرآن كلها، وهذا ما يلحظه كل متطلّع لكتاب الله تعالى. فما الذي كان يراه الرّماني سببًا في التلاؤم اللفظي؟؟

يرى الرّماني أنّ السبب في التلاؤم اللفظي هو التقارب أو التباعد في مخارج الحروف. حيث يقول: «والسبب في التلاؤم؛ تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤمًا، فأما المتنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد، أو القرب الشديد؛ وذلك أنّه إن بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنّه بمنزلة رفع اللسان وردّه إلى مكانه، وكلاهما صعبٌ على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال؛ ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال»^(٢).

وابن سنان يرى أنّ الخفّة في الكلمات يكمن في تباعد المخارج، وهذا هو الأساس الأوّل عنده في جمال الكلمة وفصاحتها. حيث يقول: «الأوّل أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج، وعلة هذا واضحة، وهي أنّ الحروف التي هي أصواتٌ، تجري في السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شكّ أنّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة»^(٣).

(١) ينظر المصدر السابق (١/٦٥).

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرّماني، ضمن ثلاث رسائل في الإيجاز، ص (٩٦).

(٣) سرّ الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، ص (٦٠).

ويذكر أنّ التآليف من الحروف المتباعدة كثير. وجُلّ كلام العرب عليه، أمّا التآليف من الحروف المتقاربة فمثاله لفظ «الهعخع» ولحروف الحلق مزينة في القبح إذا كان التآليف منها فقط، وأنت تدرك هذا وتستقيحه^(١).

والمتمائل في بديع نظم القرآن يتضح له من كلّ مامرّ أنّ النظريات لا تكفي وحدها في حصر الجمال والتآلف الصوتي الذي احتكموا فيه إلى الذوق الشخصي أو السمع حيث نجد القرآن الكريم في كلماته العذبة السلسلة يبطل بعض هذه النظريات القاصرة، ويؤكد لنا أنّ النظرة يجب أن تكون شاملة لعلم الأصوات، وفقه اللغة، وعلم التجويد، كما اتضح من لمسات الرافي التي وصلت إلى شيء عظيم من ذلك، حيث اهتم في نظريته بعلم التجويد، وصفات الحروف، وجمال ترتيبها^(٢).

٢- دراسة نماذج للإيقاع والتلاؤم الصوتي بين كلمات السورة

إنّ دراسة الإيقاع والتلاؤم الصوتي بين كلمات السورة يتبدّى جلياً ظاهراً في جمال ترتيب الحروف المتكررة بين الكلمات أو من تكرار بعض الضمائر التي أحدثت إيقاعاً له نعمة تبهر السمع والنفس، فهناك إيقاعٌ بالتكرار، وإيقاع بالصيغة، وإيقاع بالأسلوب^(٣).

وعند التعرض لهذه الطرق ستُذكر الملاحظات التجويدية والصوتية التي أضفت على الآية روحاً من التآلف والتناسق الصوتي، وبعض النظرات الصوتية في علم الأصوات اللغوية الحديثة، وكلّ ذلك له دوره الواضح في إبراز وتوضيح الجمال في الإيقاع والتلاؤم الصوتي بين الكلمات، فماذا يقصد من الإيقاع هنا وما مدلوله؟؟

(١) ينظر: المصدر السابق، ص(٦١).

(٢) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص(١٩٤ وما بعدها).

(٣) انظر: لدراسة عمرالسلامي للإيقاع في كتابه الإعجاز الفئّي في القرآن، ص(٢١٥).

الإيقاع: هو «الترديد المتواصل لنظام معين، ووظيفة هذا الإيقاع هي استنفاد للطاقة الشعورية، وهو جزء من دلالة التعبير كالدلالة المعنوية اللغوية، ومهمته أن ينقلنا من حال اعتيادية إلى حال تموج بالحركة والنغم، وتمدنا بطاقة نفسية نعيش بها لحظات ممتازة، وتهدينا إلى المغزى»^(١).

ومن الظواهر البارزة في السورة الكريمة الإيقاع عن طريق التكرار للحروف أو الكلمات أو الأدوات.

الإيقاع عن طريق التكرار :

نجد في السورة الكريمة إيقاعاً واضحاً في جميع أجزائها عبر التكرار بالحرف أو التنوين، أو الكلمة حيث يعطي تناسقاً في الآية، وشحنة من النغم الإيقاعي المتواصل البديع، والأمثلة الآتية توضح هذا الأمر وتجليه. من ذلك ما يلحظ من تكرر حرف «الحاء، والميم» في مقدمة السورة مع البسمة في قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾^(٢)

نلحظ جمال الإيقاع بحرف الحاء والميم في البسمة «الرحمن الرحيم» وتآلفها مع «حم» ثم إحدائها للإيقاع المتوالي مع الرحمن الرحيم المكرر في الآية الثانية. وتآلف التنوين مع الميم وإيقاع الفاصلة النون المتآلف معها، ثم لننظر إلى تكرر نغمة الإيقاع عبر التنوين المتلاحق في الآيات في الكلمات «تنزيل، كتاب، قرآن، عربياً - لقوم».

لقد شكل تلاؤماً صوتياً مع حرف النون والميم، والتنوين والنون والميم بينها صلوات مترابطة. واستمرار تنوين التنكير الذي هو

(١) الإعجاز الفئّي في القرآن، لعمر السلامي، ص(٢٢٦).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤-١.

للتعظيم إلى قوله بشيرًا ونذيرًا ينتج إيقاعًا متواصلًا يتوافق مع المعنى الذي جاء لبيان منزلة القرآن وعلو قدره وصفاته .
 «إنَّ للحروف إيقاعًا يتناغم بحكم حسن التوزيع بحكم حسن التوزيع، والدقة في النطق والإخراج، وكلُّ ذلك يشير إلى النموذج الأدبي الرفيع في مقدرة القرآن على نظم الحروف، ودقة توزيعها، والإيقاع الذي تحدته الحروف تصحبه نغمة ذات جرس وغنة تعلو وتنخفض»^(١).

ومن الملاحظات الصوتية البديعة في الآيات السابقة، في قوله تعالى: ﴿فهم لا يسمعون﴾، ملاحظة ابن القيم في جمالية النفي بلا دون لن، حيث يقول: «ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف «لا» إذا قلت: زيدٌ لا يقوم أبدًا، وقد قدمنا أنَّ الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها يتفرس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسّه. كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح في الأجساد التي هي قوالبها بفطنة».

ويقول: «وتأمل حرف «لا» كيف تجدها لا مَّا بعدها ألف يمتدُّ بها الصوت مالم يقطعه ضيق النَّفس فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها و«لن» بعكس ذلك فتأمله فإنَّه بديع»^(٢).

والنفي بـ«لا» في الآية الكريمة يتمشى مع الإيقاع فيها، فلو قيل «فهم لن يسمعوا» لا انكسر الإيقاع. وملاحظة ابن القيم هذه تزيد من تملي جمالية الصوت ومتابعته للمعنى واهتمامه به. وكما قيل سابقًا إنَّ الانسجام الحاصل بين الكلمات مانعٌ إلَّا عن سهولة في الكلمات وخفتها، ومن الملاحظات التجويدية التي تشارك في نطق

(١) الإعجاز الفني في القرآن، لعمر السلامي، ص(٢٤٤).

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم، تحقيق بشير محمد عيون(ط١)، دمشق: مكتبة دار البيان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، (١/١٠٥).

الكلمات بيسرٍ وسهولة ملاحظة «الرَّاء المشدَّدة في كلمة «الرَّحْمَن» و«الرَّحِيم». حيث يقول الحكم التجويدي هنا «إذا أتت الرَّاء مشدَّدة وجب على القارئ التحفظ من تكريرها، ويؤدِّيها بيسرٍ، من غير تكرير، ولا عسر»^(١).

وهذا يدخل في دراسة التلاؤم الصوتي والانسجام بين الكلمات بكلِّ يسرٍ وسهولة في الآية والآيات، ومن الملاحظات التجويدية التي تنظر إلى تألف الكلمات وانسجامها، ملاحظة ظاهرة الإدغام^(٢) بين الكلمات في قوله تعالى: «تَنْزِيلٌ مِّنْ، وَلِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بِشِيرًا وَنَذِيرًا». كل هذا يضيف على الآيات رونقًا من الانسجام التام بين الكلمات والحروف، وهو هنا إدغام غير مستكمل لبقاء الغنة، وهي بعض الحرف، وعلَّة الإدغام في الواو والياء أنَّ الغنة التي فيها أشبهت المدَّ واللين اللذين فيهما، فحسن الإدغام لهذه المشابهة، وعلَّة الإدغام في الميم المشترك في الغنة فتقاربا بهذا، فحسن الإدغام»^(٣). فالإدغام ظاهرة من مظاهر الانسجام الصوتي والتلاؤم. ويذكر إبراهيم أنيس أنَّ هذه الظاهرة يترتب عليها دائماً اقتصادٌ في الجهد العضلي، ووصول بالنطق إلى مرماه من أقصر الطرق^(٤). وفي حالة الإدغام نحتاج إى وضع واحد للسان. وإذا نحن تابعنا المسير في محاولة كشف شيءٍ من الإيقاع عبر التكرار فإنَّه سيُلاحظ الكثير منه في السورة. حيث نجد في الآية التالية للآيات السابقة إيقاعاً عبر التكرار في الضمير «نا» في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا دَدَعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴾^(٥)،

(١) التمهيد في علم التجويد، للجزري، ص(١٣٣).

(٢) الإدغام: هو جعل الحرف الأول كالثاني، والنطق بهما حرفاً مشدداً كالثاني.

(٣) التمهيد في علم التجويد، ص(١٦٧).

(٤) ينظر: الأصوات اللغوية، ص(٢٥١).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥.

فلنمعن النظر إلى الضمير المتصل «نا» في الكلمات في امتداد إيقاعها عبر المقاطع المفتوحة^(١). والتي استخدمت في الآية استخدامًا فنيًا بديعًا. ويظهر ذلك في الكلمات «قلوبنا، تدعوننا، آذاننا، بيننا، إننا». والإيقاع عبر هذا النغم المتتالي عبر المقاطع المفتوحة ماهو إلا متابعة للمعنى الذي هو تعبيرٌ عن موقف المشركين من القرآن، وما يدعوا إليه، والمقاطع المفتوحة هنا طويلة تستغرق وقتًا أطول مما تستغرقه المقاطع المقفلة، وهذا ما يتناسب مع المعاني المعبرة هنا عن الموقف، فالصوت مرتبطٌ بالمعنى أشدَّ ارتباطًا، والإيقاع الناشيء عن هذا التكرار المتوالي المتناسق قد أحدث لنا هذا التألف والجمال.

إنَّ توالي المقاطع المفتوحة على هذا النسق والتتابع، وترتيبها له الأثر الأكبر في إحداث أنواع من الموسيقى، تتناسب مع الأفكار التي تعبر عنها وتصورها، فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنًا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، من هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لوثًا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة والعكس صحيح^(٢).

ثمَّ لننظر إلى تناسق الإيقاع في الآية مع فاصلة النون، وامتداد إيقاعها عبر المدَّ العارض للسكون^(٣). وهكذا إذا تتبَّعنا السورة

(١) المقاطع الصوتية، تنقسم إلى قسمين: «مقفل»، وهو الذي ينتهي بصوت ساكن، و «مفتوح»: وهو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل. ينظر: الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، ص(١٥٩).

(٢) لغة القرآن الكريم في جزء عم، د/ محمود أحمد نحلة(بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م)، ص(٣٥٧).

(٣) المد العارض للسكون «هو المد الطبيعي قبل آخر الكلمة الموقوف عليها بالسكون العارض، ومقدار مده حركتان، أو أربع، أو ست حركات. انظر: مذكرة في التجويد، ص(٣٥).

الكريمة في الإيقاع عبر التكرار لوجدنا كمًا هائلًا من ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩). وآثرنا الإتيان بهذه الآية بعد الآية السابقة للمشابهة فيما بينهما في التكرار المتوالي عبر المقاطع المفتوحة.

إنَّ تكرار الضمير المتصل «نا» في هذه الآية سواءً الدال على الجمع أو التثنية قد أحدث لنا بتكراره تناسقًا إيقاعيًا يتمشى مع المعنى بدقة متناهية، حيث عبّر هذا الإيقاع بالتُّون عن نبرة الأسى والأين، في موقف هؤلاء القوم المحزن يوم القيامة، لمَّا رأوا خسارتهم وفداحة ما سيصيبهم، فما كان منهم إلاَّ النَّدَم والغَيْظ الحانق على من أضلَّهُم. إنَّ دور الإيقاع بحرف النون الضمير المتصل عبر المقاطع المفتوحة الطويلة قد صوّر لنا هذا الموقف وعبّر عنه أجمل تعبير. وكلماته هي «ربنا، أرنا، أضلَّنا، أقدامنا، ليكونا». انظر إلى توالي المقاطع المفتوحة بهذا الشكر «نا، نا، نا، نا، نا» وجمال تناسقها الإيقاعي مع إيقاع الفاصلة بالنون في كلمة «الأسفلين». والتناسق بين كلمتي «الذين، واللَّذين» و«الجنُّ والإنس» في الوزن والبنية المقطعية كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى في التقطيع الصوتي لكلمات السورة. فالإيقاع هنا قد حقّق المعنى في رنة النون المعبّرة عن نبرة الحزن والأسى في موقف الحسرة والندم.

ثمَّ ما يزال الحديث يطرد عن الإيقاع المتناسق عبر التكرار المعجز الذي يؤكد المعنى ويزيده نغمًا شجيًّا في موقف الحسرة، ونغمًا هادئًا في موقف التفكير والتدبر، كما يتضح هذا في قوله تعالى من السورة عن خلق الأرض ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ

فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾^(١). فلننظر إلى جمال تكرار كلمة «فيها» ثلاث مرّات وجمال إيقاعها مع الهاء في كلمة «فوقها»، والهاء في كلمة «أقواتها». ولا يتوقف النسق الإيقاعي في هذه الآية إلى هذا الحدّ من التكرار، وإنّما يتعدّى ذلك إلى جمال التناسق في توالي الأفعال الثلاثية المفتوحة، وتساوق الحركات مع الكلمات، حيث نجد الأفعال قد توالى فيها حركة الفتح، وكل ذلك أحدث لنا إيقاعًا متتاليًا مع توالي كلمة «فيها» بعد كلّ فعل ماضٍ، ممّا جعل النغمة تتكرّر ويبقى أثرها واضحًا في الأذن. «وَجَعَلْ فِيهَا، وَبَارَكْ فِيهَا، وَقَدَّرْ فِيهَا».

وانظر إلى تناسق حرف العطف الواو مع كلّ فعل مع تساوي هذه الكلمات في عدد المقاطع «جعل، بارك، قدر».

--- -- -

وكل هذه الإيقاعات جاءت لتوقظ بنغمتها المتكررة الفكر والعقل والوجدان إلى التدبر والتأمل في معرفة حقيقة الخلق الأوّل. ثمّ إذا زدنا النظر في التأمل في جمالية المدّ في كلمتي «سواء» و«السائلين» وتساوي المقدار المحدّد في هذين المدّين، حيث تُمدّ بمقدار أربع حركات أو خمس، وهو مدّ متصل، والقاعدة التجويدية «توجب تسوية المدود المتماثلة في الآية الواحدة ذات المرتبة الواحدة بحيث إذا كانت آية بها مدّان متصلان، ومددت الأوّل أربع حركات ينبغي لك مد الثاني أربع حركات، وإذا مددت الأوّل خمس حركات، فينبغي عليك مد الثاني خمس حركات أيضًا»^(٢). وهذه النظرة التجويدية تؤكد لنا الاهتمام بالنسق والانسجام الصوتي عبر المدود ذات الطول المقدر.

(١) سورة فصلت، الآية (١٠).

(٢) مذكرة في التجويد، محمد نبهان حسين مصري، ص (٩٥).

ويذكر إبراهيم أنيس أنَّ سرَّ الإطالة في مثل هذا المدَّ «إنَّما هو الحرص على صوت اللين وطوله؛ لئلاً يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام؛ لأنَّ الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين المتناقضين، إذ الأوَّل يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حرًّا طليقًا، وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة. في حين أنَّ النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباعًا محكمًا يليه انفراجها فجأة، فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصةً ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التي تحتاج إلى مجهود عضوي كبير، وإلى عملية صوتية تباين كلَّ المباينة الوضع الصوتي الذي تطلبه أصوات اللين. (١)

فمن هنا نعلم دور الإطالة في المدِّ وماتحدثه من تسهيل وتيسير في التكلم، وهذا ممَّا يساعد على خفة الكلام وجمال إيقاعه. ولننظر إلى النسق الإيقاعي المتقابل في هذه الآية الكريمة من قوله تعالى:

﴿فقال لها وللإرض اثتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا أتينا طائعين﴾ (٢)

فقد حدث الإيقاع المتقابل بين كلمة «فقال، وقالنا، وبين اثتيا، وأتينا» حيث يلحظ فيه التجانس الذي يُسائر المعاني الجليلة التي جاءت تبين وتصوّر لنا انقياد هذا الكون الفسيح لخالقه جلَّ وعلا، وما يحلظ من اتفاق كلمتي «طوعًا، وكرهًا» في الوزن والبنية المقطعية. كما سيأتي بيان ذلك عند التقطيع الصوتي لكلمات السورة.

كذلك ما يتضح في إثارة صيغة الجمع على المثني هنا وما يظهر في ذلك من تمش مع القالب الصوتي الإيقاعي فلو قيل طائعتين لكسر الإيقاع مع أنَّنا نعلم علم اليقين أنَّ الصيغة التي أُختيرت هنا

(١) الأصوات اللغوية، ص (١٥٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

هي المتمشية مع المعنى والقالب الصوتي. وذكر السر في العدول إلى هذه الصيغة سيذكر بأمر الله تعالى في المباحث البلاغية. ثم لننظر إلى جمال التكرار في توالي الفاءات سواء كانت عاطفة أو رابطة في نسق إيقاعي بديع في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُم صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧). وما أحدثته صيغة الأفعال الماضية من جرسٍ بديع يتلاءم مع التكرار في الفاءات، وهو نوعٌ من أنواع الجمال الإيقاعي المتلاحق بين هذه الكلمات، وما يلمس أيضًا من تساوٍ بين (الهدى والعمى) في عدد المقاطع والاتحاد في التقفية وهو سر الإيقاع

٥-٥ ٥-٥

القائم بين الكلمتين.

ومن الأمور اللافتة للنظر في إيقاع السورة مانجده من تركيز متلاحق عبر التكرار في ضمير الجمع الميم سواء كان ذلك خطابًا للمعرضين أو ضميرًا للغائبين، وما يحمل هذا التكرار من معاني متعددة تحمل نبرة التوبيخ، ونبرة الدمدمة والزمجرة التي تتوافق مع المواقف. وتظهر هذه الأمور جليّةً في آيات الحشر ومواقف يوم القيامة، وهذه الضمائر المكررة فيها تعبير وافٍ عن هول الموقف مع صيغة الجمع التي تؤثر.

وتتضح هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنْ

الْخَسِرِينَ ﴿٢٣﴾^(١). فلننظر إلى الإيقاع المتناسق الظاهر عبر التكرار في ضمير الجمع المتصل سواءً كان للغائبين أو خطاباً لهم يقرع الأسماع بجرسه، وكل هذا التكرار في ميم الجمع و«كم» أحدث لنا هذا الإيقاع الدال على الزمجرة والدمدمة في هذا الموقف. فحينما يأتي خطابهم نجد حدة الإيقاع تزداد نغماً؛ لتوالي التكرار، ويتضح هذا أكثر في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٢٣﴾

وكل هذا الإيقاع في الآيات أحدثه التكرار المعبر عن المعاني المقتضية لهذا الموقف في أوفى تعبير وأدق تصوير، إن تكرار (الميم) و(كم) قد مدد المغزى قوةً وجرساً وإيحاءً وتأكيدياً للمعنى الوارد في حق هؤلاء القوم، وموقفهم المثار عن طريق الخطاب الذي أحدثته «كم» و«الميم» بجرسها الذي يغلق الشفتين ويوحي بمباغته النفس كما أنها تنفح بالاحتقار والمهانة وغير المبالاة. وهذه النغمة تنعكس على النفس فتتهزها وتبكتها^(٢). وما يحلظ أيضاً من تكرار لكلمة «الظن» في هذه الآيات ثلاث مرات في قوله تعالى: ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم﴾ وقوله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم﴾. يشعرنا هذا التكرار لهذه الكلمة بظهورها حيث تبين الآيات أن سبب ما هم فيه من الهلاك كان بسبب ظنهم السيء بالله، مما جعل الإيقاع المتكرر بهذه الكلمة يحدث ضغطاً عبر حرف «الظاء» يعوج عن طريقه اللسان، ويكاد يخرج من الحنك يوحى بالمعنى أشد إيحاءً.

ومن دلائل الاهتمام بالإيقاع في هذه الآيات ورود «ذلكم» في قوله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم﴾ على صيغة الجمع، وكان بالإمكان ورودها مفردة مثل «وذلك ظنكم» ولو أنا قرأناها هكذا لشعرنا بكسر

(١) سورة فصلت، الآية: ١٩-٢٣.

(٢) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، لعمر السلمي. (٢٣١). في تطبيق مماثل لهذه الآيات.

في الإيقاع «إضافة إلى أن ورودها جمعاً يحقّق غرضاً فنياً فيه التناسق في الصيغة التعبيرية، ونفسياً فيه الإسهام مع تكرار «كم» و«ميم» الجمع الأخرى للتأكيد والإثارة والتأثير»^(١).

كذلك لا ينسى دور الفاصلة النون في التلاؤم الإيقاعي مع الميم المكررة لما بينهما من تقارب أهلها لأنّ يحقّقا تجانساً في الإيقاع، وما أحدثه الاستفهام والحوار من إيقاع له صداه البارز. وممّا يوضّح السهولة والانسجام الصوتي بين الكلمات في الآيات الدور التجويدي الذي يسهم بفاعلية واضحة في السعي إلى إحكام الانسجام والتلاؤم، والنطق الصحيح للكلمات في القرآن. من ذلك ما يلحظ من حكم تجويدي في كلمة «ذلكم» وهو ترقيق حرف الذال إذا أتى بعدها ألف وإلا دخلها التفخيم، فيؤديها إلى الإطباق فتصير عند ذلك ظاء^(٢). وما الترقيق كما يقول إبراهيم أنيس: «إلاً اقتصاد في الجهد العضلي وتسهيل^(٣) وما في كلمة «شهدتم من إدغام الدال في التاء ولا شك أنّ هذه الظاهرة الإدغام قد ترتّب عليها هنا اقتصاد واضح في الجهد العضلي ووصول بالنطق إلى مرماه من أقصر الطرق فهو يوفر علينا انتقال اللسان من مخرج الدال المجهور إلى مخرج التاء المهموس حيث أصبح النطق واحداً بصوت التاء المهموسة، ووضع اللسان وضع واحد، ممّا سهّل عملية النطق بالكلمة وسلامتها.

والملاحظات التجويدية كثيرة، ولكن نختصر في ذكرها كلها خوفاً من الإطالة فنذكر ما يتوافق مع الآيات التي تطرق الحديث لها باختصار، لتوضيح وكشف بعض من المميزات الكاشفة للانسجام والتلاؤم الصوتي، ثمّ إنّه يلحظ في السورة الكريمة بعد الآيات

(١) المصدر السابق، ص(٢٣١).
 (٢) التمهيد في علم التجويد، ص(١٣٢).
 (٣) ينظر: الأصوات اللغوية، ص(٢٥١).

السابقة عن الحشر، وموقف المحشورين يوم القيامة استمرار في الإيقاع عبر التكرار في «ميم» الجمع المكررة التي وحدث بين هذه الآيات، حيث نجد في الآية التالية للآيات السابقة بياناً للسبب الموقع لهم في العذاب والخسارة الفادحة . في قوله تعالى:

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ (٢٥)

فلننظر إلى التناسق الإيقاعي بين كلمة «لهم» المكررة، وضمير الجمع المتصل «هم» في الكلمات، وكلُّ هذه الميمات تحكي هذا الموقف، وهو موقف الخسارة الذي كان سببه اتباع هؤلاء القرناء.

إنَّ هذا الإيقاع المتتالي عبر «ميم» الجمع يحكي لنا الخسارة التي وقعوا فيها، والحسرة التي سيكونون فيها حيث جاء الإيقاع متنامياً هكذا «لهم، لهم، إيديهم، خلفهم، عليهم، قبلهم، إنهم». إنَّه تتابعٌ إيقاعي متناسق يتفق مع المعنى والموقف الذي يتضح من خلال الميم ونون التوكيد التي تحكي الأنين والحسرة. وكان الختام بها يؤكد خسارتهم هم وخدمهم، حيث أحدثت إن المضعفة مع هذا الإيقاع المتناسق تأكيداً للعبارة يتوغل في النفس عبر قوة التأكيد للمعنى، حيث تشعر بضغط قوي من الفك الأعلى لشدقي الفم، مشوب بنغمة إيقاعية، تحمل أنيناً، ينطوي على التوبيخ، زد على ذلك التوافق الإيقاعي بين أجزاء الآية والفاصلة النون التي تمتد في إيقاعها مع حرف المدِّ الياء؛ لتحكي لنا نهاية الأمر، وهو الخسارة.

وهذه الآية مع الآيات السابقة لها تعطينا وحدة إيقاعية متتالية مترابطة ترابطاً إيقاعياً واحداً، عبر التكرار «للميم والنون». وما ذلك إلاَّ لأنَّ «الإيقاع يرتبط دومًا بالمعنى، لأنَّ المعنى يحدده شكل العبارة وصيغتها، ومن الشكل والصيغة يتولَّد الإيقاع

الذي يحمل في جوهره الصلة العميقة بالمعنى»^(١). ثمّ للنظر إلى الجمال الإيقاعي المتناسق في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٢). انظر إلى جمال التناسق في تكرار حرف «اللام» وما يوضّحه عبقرية الأداء الصوتي، وما يتبين اجتهادياً من الإعجاز الصوتي في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ تأمل (لا- للقمر) فاللام في الشمس شمسية تنطق اللام مدغمة في الحرف الذي بعدها أمّا «للقمر» فاللام الأولى مكسورة والثانية ساكنة، أمّا «الله» فهنا ثلاث لامات كتابة؛ ولكنها أداءً تتلوّن تلويناً صوتياً، هكذا «لل» «لا» فاللام الأولى مكسورة تعقبها لامٌ ساكنة - و«لاه» اللام الأولى مفتوحة بعدها ألف الإطلاق^(٣).

وهكذا بهذا النسق الجميل ندرك معنى التلاؤم ودقّة الرصف في أحرف الكلمات أضف لذلك جمال التناسق في «لا» الناهية في قوله «لا تسجدوا»، «ولا للقمر» وامتداد الصوت بها لامتداد المعنى بها والإيقاع بين «لا تسجدوا، واسجدوا»، وما يلحظ في تجاور كلمتي الليل والنّار والشمس والقمر، وجمال التناسق في ذكر القمر بجانب الشمس، والذي زاد ذلك روعة انتظام تلك الحروف فالكلمة الثانية «النهار» تنتهي بحرف الراء، والكلمة الرابعة «القمر» تنتهي - أيضاً - بحرف «الراء»، ولكن لو ذكر القمر قبل الشمس لشعرنا بكسر في الإيقاع والمعنى، حيث إنّ القرآن يقدّم المعنى الذي هو

(١) الإعجاز الفني في القرآن، لعمر السلامي، ص(٢٣١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني، د/ مصطفى الصاوي الجويني (الإسكندرية: منشأة المعارف). ص(١٢٣).

أولى وأفضل . فتقديم الشمس على القمر لأولييتها ولكونها أشرف ، وفي هذا التقديم تنويهٌ بنعمة الله بها على سائر المخلوقات ، ثمَّ للنظر إلى صفات الحروف في الكلمتين ، فالشين والسين من الحروف الهامسة ذات الصفير تحدثنا عن جمال سريان الكوكبين في جوانب الكون الفسيح . والشمس والقمر والليل والنهار تحدثنا عن معنى العظمة والقوة القادرة للإله الموجد لهذا الكون ، فما أجمل تلاحم الإيقاع القرآني المعجز ، حيث اشتركت فيه كل الأدوات من حرف وصفة للحرف ، وصوت متلائم مع المعنى ، وجمال رصف وبناء . ويلحظ أيضًا ترابط إيقاعي عبر التكرار في مقدمة هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ ، وقوله تعالى في الآية التالية لها : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾^(١) .

إنَّ تكرار الكلمات في قوله تعالى في الآيتين المتلاحقتين ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ وقوله : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ . قد حمل وأثار إيقاعًا خاصًا يحمل معه نغمة الإعجاب بما تبذره القدرة الإلهية ، ويوحى بالعظمة وقوة البرهان الإلهي لمخلوقاته ، وبأنَّ واجبهم الإمعان والتأمل لعلَّ النفوس ترجع وتهتدي .

«إنَّ مهام التكرار التأكيد ، ولفت النظر وانصهارهما في نغمة إيقاعية تسود الآيات وتتضح فيها»^(٢) .

ثمَّ لننظر إلى النسق الإيقاعي في توالي ختام الآيات بـ«إنَّ» المؤكدة في الآية السابقة مع الآيات التالية لها ، وهي على هذا النسق الإيقاعي في توالي ختام الآيات بـ«إنَّ» المؤكدة في قوله تعالى : ﴿إنَّ

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٧-٣٩ .

(٢) الإعجاز الفني في القرآن ، لعمر السلامي . ص (٢٣٤) .

الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْحَى الْمَوْقِعِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ (١)

(٩ -)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا ﴾ ﴿٤٠﴾ وفي ختام الآية ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٤١﴾ (٢)

(٩ -)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ ﴿٤٢﴾ (٣)

(٩ -)

أحدثت لنا «إِنَّ» المكررة في هذه الآيات إيقاعاً لافتاً يحمل في طياته نبرة التوكيد القويّة التي تمتد بإيقاعها داخل النفس لتؤكد هذه المعاني للنفوس الضعيفة، فالتأكيدات ذات نبره ونغمة متتالية تؤكد المعاني وترسخها حتى إنه يلحظ تساوي الإيقاع عبر التكرار في ختام هذه الآيات الثلاث عبر رنة التوكيد في «إِنَّ» مع الضمير أضف إلى ذلك تساوي الفواصل. في الوزن الصرفي، والتقطيع الصوتي واتساق إنَّ المؤكدة في بداية الآيات مع إنَّ المؤكدة في أواخرها وكلّ هذا أحدث هذا الإيقاع المنتظم المتناسق الموافق لجوِّ الآيات ومعانيها. «والتكرار وهو يؤدي غرضه الفني والنفسي والاجتماعي والديني من خلال آي القرآن، لكي يعطي آي القرآن إيقاعاً يخضع لمحتويات أغراضه في أوسع معانيه، ولكي ينسجم المحتوى مع الأغراض في وحدة من الإيقاع» (٤).

ثمَّ إنَّه يلحظ خاصيّة إيقاعية (٥) فريدة عبر تكرار الحرف تُلحظ في الآيات الكريّمات التي ختمت فاصلتها بالنون مردوفة بالواو حيث يوجد جمال إيقاعي في تناسق الواو في الكلمات داخل الآية وتوافقه

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٤) المصدر السابق، ص (٢٣٦).

(٥) هذه نظرة تأملية للباحث.

إيقاعياً مع الواو في كلمة «الفاصلة».

ومن نماذجها ما يلي:

(١) قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يُجْحَدُونَ﴾^(١). فانظر إلى هذا التناسق بين الكلمات في حرف الواو، وبين كلمة الفاصلة المردوفة به (استكبروا، وقالوا، يروا، هو، وكانوا، يجحدون). إنه نسق إيقاعي فريد.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٣). فانظر إلى الكلمات «كفروا، تسمعوا، الغوا، تغلبون» كيف توافقت الواو في الإيقاع في آخر كل كلمة مع حرف الردف الواو في الفاصلة في نسق إيقاعي بديع. ثم نزداد تملياً في التناسق الصوتي البديع بين مخارج حروف هذه الفواصل بما يلحظ كمثال على ذلك في الفاصلة «تغلبون» فالتاء فيها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، والغين من أدنى الحلق، واللام ما بين حافتي اللسان^(٤) وما يحاذيهما من اللثة العليا والباء من الشفتين مع الانطباق، والواو من أعلى الشفتين دون إطباقهما حتى لا ينقطع النفس، وحتى يظل الجرس مديداً لا يُمَلُّ، وهو كذلك جرس مديد في كل الفواصل، فهنا نتأمل كيف شكلت الحروف إيقاعاً صوتياً عذباً حيث تناسب المخارج في القرب والبعد.

ومن الأمثلة على الخاصية السابقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٤) انظر: إلى الجدول السابق في مخارج الحروف. ص (١٨، ١٩).

وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ (١). وهذا مما يؤكد هذه الخاصية الإيقاعية في هذه السورة الكريمة، ومامر من أمثلة تدل عليها.

وكلُّ ماسبق كان في الحديث عن تكرار الحرف أو الضمائر، وإحداثها للإيقاع المتتالي. والذي جاء محققاً لمعاني السورة وأغراضها، ثم إنه يلحظ هنا فيما سيأتي ذكره إيقاعاً متكرراً بين أجزاء السورة في مواضع مختلفة، عبر تكرار بعض الكلمات التي تتلون مع كل معنى بلون يوافقه وهذا مانجده في تكرار كلمتي ﴿أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ﴾ في آيات مختلفة أولها قوله تعالى عن مجيء الرسل إلى الأقوام المكذبة. ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ (٢). وقوله تعالى عن سبب ضلال الكفار: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (٣). وقوله تعالى عن القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ البَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٤).

إن هذا الأداء في الإيقاع المتكرر حتى ولو ابتعدت آياته فقد أنتج لنا إيقاعاً تترابط نغماته بين أجزاء السورة في جمال إيقاعي يتلون مع معاني الآيات في مقاماتها المختلفة.

الإيقاع بالصيغة

إنَّ لصيغة التعبير من حيث الدقة، وحسن الاختيار، والإحكام وقوة السبك، وجمال التناسق الأثر في إحداث الإيقاع داخل العبارة، وإنَّ مفردات العبارة خاصّة التي تحمل دلالات تنسجم، ودلالة العبارة بوجه عام تكيّف نغمة الإيقاع (٥). وأكثر ما يتضح ذلك في قوله

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٥) الإعجاز الفئّي في القرآن الكريم، لعمر السلامي، ص(٢٤٠).

تعالى من السورة. ﴿ فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) (١).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٠) (٢).

فهذه الصيغ في الأفعال المضارعة المؤكدة باللام والنون الثقيلة في كلتا الآيتين، قد أحدثت جرسًا وضغطًا عند النطق بها، وهي تشير بذلك إلى القوة والعنف اللذين يسودان جوًّا كلًّا من الآيتين فهي «تمدنا بإيقاع يمتزج مع أجراس الطرقة التي تحدثها المطرقة، وينتهي بنغمة تناسب مع قوّة المعنى، ومغزى المحتوى» (٣).

ومن الإيقاع بالصيغة مايلحظ في صيغ الأفعال الماضية التي تكرّرت في صيغة الجمع، والتي تنسب إلى الخالق المبدع سبحانه، حيث أحدثت إيقاعًا له نغمة موحدة، حيث إنّها إذا جمعت للنّاطر متتالية تُشعر بتلك النغمة الواحدة. وهي «زيّنا، أرسلنا، نجينا، قيّضنا، أنزلنا، آتينا، أنعمنا» (٤).

وبعض هذه الأفعال تتحد في الوزن والبنية المقطعية مثل «زيّنا» مع «قيّضنا». و«أرسلنا» مع «أنزلنا» و«أنعمنا» وسيأتي توضيح مفصل لذلك بإذن الله تعالى. فهذه الأفعال ذات الصيغة الواحدة على امتداد السورة تمثل نغمة التلاؤم الصوتي البديع، والإيقاع الذي يشير بنغماته إلى نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى، وإن تباعد بعضها في الآيات فإنّها تردنا إلى نغمة واحدة، وإيقاع واحد، وهي نغمة تلك الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى، والتي يدل جمعها على التعظيم.

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٤٠.

(٤) أرقام آياتها على التوالي هي: «١٢، ١٦، ١٧، ٢٥، ٣٩، ٤٥، ٥١».

ومن الإيقاع بالصيغة ما يلحظ في صيغة الشرط من أداة فعل وجواب، وجمال التقسيم الذي أحدث هذا الإيقاع المتقابل. وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(١)

تابع الإيقاع هنا في هذه الصيغة ما بين أداة الشرط وفعل الشرط وجوابه وحسن ما يقابله من أداة شرط وفعل وجواب في الشرط المقابل من الآية. فانظر إلى «فإن» في الشرط الأول من الآية، و «إن» في الشرط الثاني منها. و «يصبروا» في الأول، و «يستعتبوا» في الشرط الثاني مقابلاً للأول، وما يحملان من تساوي في الحرف الأخير منهما، وهو «الواو» بالإضافة إلى التقابل في المعنى فالمعنيان فيهما تضاد، وماتحملة الفاء الرابطة في الشرطين من تناسق إيقاعي.

من هنا نعلم ما أحدثته هذه الصيغة من إيقاع فيه جمال التقسيم والتقابل الذي أبرز المعنى، ووافق الغرض.

الإيقاع بأسلوب العرض :

وهذا النوع فيه ألوان بديعة في السورة سيذكر منه ما يمكن أن يكون شاهداً على هذه الظاهرة، والذكر هنا للتمثيل وليس للحصر. فالذي يتفنن به دارسوا القرآن هو «أسلوبه في العرض، وتنوعه في إثارة النفس والمخيلة، وتحريك العقل، وبعث النشاط في الحواس، وإن لهذا الأسلوب إيقاعاً تختلف نغمته باختلاف تنوع الأسلوب^(٢)». وسنقتصر في هذه الفقرة على عرض للأسلوب الاستفهامي في السورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣). انظر إلى

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص(٢٤٥).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

الإيقاع في همزة الاستفهام كيف يعلو وينخفض في قوله: «أأنكم» حيث يحمل المخاطبة والمواجهة للنفس فيمس منها العقل والحواس والعاطفة. وهي مخاطبة تثير إيقاعاً يتلاءم ومغزاه، ودرجة قوّة محتوى الآية، وتسوده روح من التحريك والإثارة، مشوبة بالتوبيخ الصنيف والمباغت ووضع النفس أمام حقيقتها عبر الاستفهام الإنكاري فالآية تضعهم أمام حقيقتهم. وهو الكفر، وتنكر عليهم ذلك وهذه طريقة نفسية تجعل النفس تدرك حقيقتها وتعرفها، وهي إذا عرفت ذلك ولم تبغ اتباع الحقّ، فلا شكّ أنّها ستشعر بالحسرة حيث إنّها أوحلّت لعرفت مصدر ماهي فيه من التعامي والتجاهل. فالإيقاع في الآية منطبع بهذا الصراع الداخلي للنفس، وانفعالاتها فيخلى في الآية، وهو يحمل نغمة تأوهات النفس، يعززها انتهاء الفاصلة في الآية بحرف النون الذي يوحى بالأنين، وانكسار النفس في جوهرها وهي لا تشعر.

إنّ أسلوب الخطاب المباشر، المشوب بالإنكار والتهديد يعقد في النفوس إثارة واضحة.

«إنّ الإيقاع لا بد أن ينطبع بهذا الصراع الداخلي للنفس وانفعالاتها المكبوتة»^(١).

والأمثلة كثيرة لهذا الجانب منها قوله تعالى في خطاب المعرضين عن القرآن.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي سِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾^(٢).

فالاستفهام هنا يمس النفس في عقلها وحواسها وعاطفها ومخيلتها، وهو يحمل لنا إيقاعاً تسوده روح من التحريك والإثارة

(١) المصدر السابق، ص(٢٤٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

مشوبة بالتوبيخ. والإيقاع في السورة بعامة. يستمد دلالته من النغمة التي تحدثها الألفاظ والتناسب كذلك في حروف الفواصل: الميم والنون، وبقية حروف فواصل السورة وجرس التناسق الفني بين الآيات جميعها، وطابع الأسلوب العام حيث الإثارة والتحريك^(١). ولقد اقتصرنا على هذه النماذج لأنه سيتبين بمشيئة الله تعالى من خلال التقطيع الكامل لكلمات السورة عبر المناسبة اللفظية جانب الإيقاع والتلاؤم الصوتي البديع في صورة واضحة وشاملة.

(١) ينظر: المصدر السابق. ص(٢٤٦).

التقطيع في السورة الكريمة

لقد اتضح من خلال التقطيع الكامل لكلمات السورة الكريمة كما سيأتي وجود اتفاق كبير بين الكلمات عبر الاتحاد في البنية المقطعية التي تظهر لنا سرًا من أسرار التلاؤم الصوتي بين الكلمات، بالإضافة إلى روعة الإيقاع بينهما، وجمال وقعه الصوتي على الأذان، في عذوبة وجمال سبك بديع، ولقد تمّ وضع الكلمات المتحدة في البنية المقطعية الواحدة في جداول لكلّ بنية اتفقت حولها كلمات كثيرة من السورة. جدول يوضح للمتأمل جمال التلاؤم بين الكلمات، وقد ذكرت في الجداول الجوانب الأخرى غير الإتفاق في البنية المقطعية، مثل الاتفاق في الوزن الصرفي بين الكلمتين أو الحرف الأخير، ممّا يدخلها في علاقات أخرى تقوي الصلة الإيقاعية والتلازم الصوتي، حيث توجد بينهما مناسبة لفظية تامّة^(١).

وهذا الاتفاق الحاصل بين الكلمات في البنية المقطعية، ينتج عنه جرسٌ ظاهر يحتفظ بسمة من النغم، لها طبيعتها التي تميزها عن غيرها، ويتضح هذا أكثر عندما نجد كلمات أخرى كثيرة، قد انتقلت إلى بنية مقطعية أخرى، اتفقت عليها، وانطبعت بإيقاعها. فالنغم والإيقاع يتغير بتغير البنية المقطعية بين الكلمات، وهذا ما سيلحظه القارئ للجدول القادمة عندما يتابع النغمة من خلال الاتحاد في البنية المقطعية، وعندما ينتقل الإيقاع ويتغير إلى وحدةٍ أخرى لها بنية مقطعية مختلفة، والجدول الآتي قد روعي فيها وضع الملاحظات الأخرى، ورقم الآيات التي تبين أنّه لا تباعد بين الكلمات المتفقة، بل هي في داخل الآية الواحدة أو التي تليها مباشرة في الغالب، حتّى يظلّ للإيقاع والتلاؤم دورهما المتين، والواضح بين كلمات السورة

(١) انظر التفصيل الشامل للمناسبة اللفظية، ص (٢١، ٢٢).

الكريمة . ولقد تم وضع جدولٍ خاصٍ لكلِّ بنيةٍ مقطعيةٍ اتفقت حولها كلماتٌ كثيرةٌ من السورة تتبين فيها كل الأمور المذكورة سابقاً، ولا شكَّ أنَّ هذه الظاهرة من الظواهر التي توضح لنا سرا من أسرار التلاؤم بين الكلمات والجرس ، وهناك ظواهر غيرها مثل التكرار ، والتناسق ، وانسجام الحروف ^(١) .

الجدول الأول :

وبنيته المقطعية تتكون من ثلاثة مقاطع ، اتفق عليها عدد كبير من كلمات السورة وهي (مقطع متوسط + مقطع صغير + مقطع متوسط) على هذا الشكل (٥-٥) .

ملاحظات أخرى	رقم الآيات	الكلمات المتفقة في البنية المقطعية
يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((بيننا ، وإنما)) . في الحرف الأخير وامتداد الإيقاع به وكذلك الأدوات ((إنما ، وإنما)) مما يزيد التوافق بين هذه الكلمات والأدوات .	٦ ، ٥ (٦)	بيننا ، إنما ، إنما ٥-٥ ٥-٥ ٥-٥ ملككم ، واحدٌ ، إنما ٥-٥ ٥-٥ ٥-٥
يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((فوقها)) و((أمرها)) في الوزن الصرفي بالإضافة إلى الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة كذلك يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((العمى)) و ((الهدى)) في الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة .	١٢ ، ١١ ، ١٠ ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٠- ١٧ ، ١٧	فوقها ، قالتا ، أمرها ، أعرضوا ٥-٥ ، ٥-٥ ، ٥-٥ ، ٥-٥ قوةٌ ، قوةٌ ، خلفهم ، صرصراً ٥-٥ ، ٥-٥ ، ٥-٥ ، ٥-٥ العمى ، الهدى ٥-٥ ٥-٥
يلحظ اشتراك هذه الأفعال في واو الجماعة مما زاد في جمال الإيقاع والمناسبة فيما بينها ويلحظ اتفاق الفعلين المضارعين (تشتهي) و (تستوي) في الحرف الأخير وفي الوزن الصرفي ، والمناسبة بينهما تامة .	٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ٣٠ ، ٣٠ ٣٤ ، ٣١	يصبروا ، زينوا ، تسمعوا ٥-٥ ٥-٥ ٥-٥ تحزنوا ، ابشروا ٥-٥ ٥-٥ تشتهي ، تستوي ٥-٥ ٥-٥
====	٤١ ، ٤٠ ، ٤٠ ٤٤	آمنأ ، اعملوا ، جاءهم ٥-٥ ٥-٥ ٥-٥ فُصِّلَتْ ٥-٥

(١) انظر إلى هذه التفاصيل في الإعجاز الفني في القرآن ، لعمر السلامي ، ص (٢١٥) ، (٢٦٥) .

من هذا الجدول يتبين للناظر ما أحدثه الاتفاق في البنية المقطعية من تلاؤم صوتي بين الكلمات ، وجرس له نغمة توحد الإيقاع بين الكلمات ، حيث يتميز ذلك بوضوح ، عند تتابع قراءة الكلمات في الجدول ، وفي الجدول الآتي ستتغير نغمة الإيقاع إلى نغمة أخرى ، نظراً لتغير البنية المقطعية للكلمات ، وفي هذا تنوع فريد ، يعطي أذن القارئ راحة و متعة .

الجدول الثاني :

وبنيته المقطعية تتكون من ثلاثة مقاطع ، وهي مقطع (صغير + مقطع متوسط + مقطع متوسط) على هذا الشكل (-٥٥) حيث جاءت على هذه البنية الكلمات الآتية .

الجدول الثاني :

ملاحظات أخرى	رقم الآيات	الكلمات المتفقة في البنية المقطعية
يلحظ اتفاق كلمتي ((بشيراً)) ((ونذيراً)) في الوزن الصرفي والحرف الأخير فالمناسبة بينهما تامة	٤ ، ٤ ، ٣ ، - ١٠ ، ٦	كتاب ، لقرم ، بشيراً ٥٥- ٥٥- ٥٥- وويل ، سواء ، ٥٥- ٥٥-
يلحظ اتفاق كلمتي ((كتاب)) و ((حجاب)) في الوزن الصرفي والحرف الأخير للكلمتين فالمناسبة بينهما تامة .	١٢ ، ١١ ، - ١٤ ، ١٢ ، ١٢	كتاب ، حجاب ، دخان ، وأوحى ٥٥- ٥٥- ٥٥- ٥٥- سما ، وحفظاً ، فأماً ، ٥٥- ٥٥- ٥٥-
يلحظ اتفاق هذه الأفعال في الوزن الصرفي والاشتراك في واو الجماعة والمناسبة بينهما تامة .	١٥ ، ١٥ ١٨	وقالوا ، وكانوا ، ٥٥- ٥٥- وكانوا ٥٥-
الاتفاق بين كلمتي ((عليكم)) و ((ظننتم)) في الانتهاء بميم الجمع مما يزيد من عمق المناسبة بينهما بالإضافة إلى انتهاء بقية الكلمات بالتونين .	٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٥ ٥٥ -	علينا ، عليكم ، كثيراً ، ظننتم ٥٥ - ، ٥٥ - ، ٥٥ - عداباً ، شديداً ، جزأ ٥٥ - ، ٥٥ - ، ٥٥ -

الكلمات المتفقة في البنية المقطعية	رقم الآيات	ملاحظات أخرى
تخافوا ، غفور ، رحيم ^(١) -٥٥ ، -٥٥ ، -٥٥ ولي ، حيم ، عظيم -٥٥ ، -٥٥ ، -٥٥	٣٤ ، ٣٢ ، ٣٠ ٣٥	الاتفاق بين كلمتي ((حيم)) و ((عظيم)) في الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة .
لقالوا ، ولولا ، وظنوا ، -٥٥ - -٥٥ - -٥٥ -	٤٧ ، ٤٥ ، ٤٤	-----

الجدول الثالث :

وبنيته المقطعية تتكون من ثلاثة مقاطع متوسطة ، وهي مقطع (متوسط + مقطع متوسط + مقطع متوسط) على هذا الشكل (٥٥٥) .
وقد جاءت على هذه البنية المقطعية الكلمات الآتية :

الكلمات المتفقة في البنية المقطعية	رقم الآيات	ملاحظات أخرى
تزيّل ، قرأنا ، تدعونا -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	٥ ، ٣ ، ٢	يلحظ التوافق بين كلمتي ((زيّن)) و ((نجس)) في الوزن الصرفي بالإضافة إلى الحرف الأخير فالمناسبة بينهما تامة كذلك يلحظ اتفاق بين كلمتي ((جاءهم)) و ((أيديهم)) في ميم الجمع مما يحدث توافقاً بين الكلمتين .
أنداداً ، أيام ، زيناً -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	١٢ ، ١٠ ، ٩	
نجينا ، جاءهم ، أيديهم -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	١٤ ، ١٢ ، ١٨	
جاءوها ، أرداكم ، أصبحتم ، -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	٢٣ ، ٢٣ ، ٢٠	توافق كلمتي ((أرداكم)) و ((أصبحتم)) في ميم الجمع
أنزلنا ، اهتزت ، أحيائها ، -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	٣٩ ، ٣٩ ، ٣٩	
تزيّل ، آتينا -٥٥٥ ، -٥٥٥	٤٥ ، ٤٢	
من أنتى ، مامناً ، ما كانوا -٥٥٥ ، -٥٥٥ ، -٥٥٥	٥٠ ، ٤٨ ، ٤٧	===
للحسنى -٥٥٥		

(١) حصل التوافق بين الكلمات في حالة الوصل كما يظهر بين ((غفور)) و ((رحيم)) في قوله تعالى :
(نُزِّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) ، لأنه عند الوقف على رحيم ، يوقف عليها بالسكون ، وهي فاصلة الآية ، فالنظرة إلى التنوين فيها في حالة الوصل .

والجداول السابقة إلى هذا الجدول تبين لنا سرّاً من أسرار التلاؤم الصوتي بين كلمات السورة ، والسمة الإيقاعية التي تتضح عبر الاتحاد في البنية المقطعية ، فالبنية المقطعية تمثل السر في روح الإيقاع المترابط بين كلمات السورة الكريمة .

الجدول الرابع :

وبنيته المقطعية تتكون من مقطعين متوسطين ، (مقطع متوسط + مقطع متوسط) هكذا (٥٥). ولقد اتفقت حوله الكلمات والأدوات الآتية .

الكلمات المتفتحة في البنية المقطعية	رقم الآيات	ملاحظات أخرى
وقرّ ، ممّا ، اعمل ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٥ ، ٥ ، ٥	يلحظ اتفاق بين كلمتي ((وقرّ)) و ((أجرّ)) في الوزن الصرفي والحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة .
يوحى ، ويلّ ، أجرّ ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٨ ، ٦ ، ٦	تكرار هذه الكلمات ، يظهر لنا قيمة إيقاعية متتالية ، ومن الطبيعي أن المناسبة بينهما تامة .
فيها ، فيها ، فيها ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	١٠	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((طوعاً)) و ((كرهاً)) . في الوزن الصرفي بالإضافة إلى الاتفاق في التنوين في آخر الكلمتين فالمناسبة بينهما تامة كذلك يلحظ مثل هذا الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
طوعاً ، كرهاً ، ريجاً ، حفظاً ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	١٦ ، ١٢ ، ١١ ، ١١	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((كرهاً)) . في الوزن الصرفي بالإضافة إلى الاتفاق في التنوين في آخر الكلمتين فالمناسبة بينهما تامة كذلك يلحظ مثل هذا الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
قولاً ، ثمن ، ادفع ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، -	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
إلا ، حظّ ، نزع ، شيء ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٣٦ ، ٣٥	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
خير ، يُلقى ، يأتي ، وقّر ، شكّ ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٤٥ ، ٤٤ ، ٤٠ ، ٣٩	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
منأ ، عنهم ، كانوا ، ربّي ، حتّى ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٥	٤٨ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٥	يلحظ الاتفاق بين كلمتي ((حفظاً)) و ((ريجاً)) فقد اتفقتا في الوزن الصرفي بالإضافة إلى التنوين في آخر كل منهما فالمناسبة بينهما تامة .
شيء ، شيء ٥٥ ، ٥٥		

الجدول الخامس

ويحمل عدداً من البنى المقطعية اتحدت حولها كلمات قليلة ولقلتها جمعت

في هذا الجدول .

الكلمات المتفقة في البنية المقطعية	رقم الآيات	ملاحظات أخرى
آذاننا ، أفواقها ، أنذرتكم ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ فاستكبروا ٥-٥٥	١٣ ، ١٠ ، ٥ ، ٣ ١٥	====
يستعقبوا ، لاتسمعوا ، آياتنا ، أقدامنا ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ ، ٥-٥٥	٢٩ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٢٤	يلحظ الاتفاق بين الفعلين في الانتهاء براو الجماعة وبين كلمتي ((آياتنا)) و ((أقدامنا)) في الاتفاق في الوزن الصرفي بالإضافة إلى الاتفاق في الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة
نجعلهما ، ما تشتهي ، استكبروا ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ إن الذي ، آياتنا ، آذاهم ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ ، ٥-٥٥ أكامها ٥-٥٥	٣٩ ، ٣٨ ، ٣١ ، ٢٩ ٤٤٤ ، ٤٠ ، ٣٩ ٤٧	====
تكفرون ، نجعلون -٥-٥ ، -٥-٥ يلحدون ، تعلمون -٥-٥ ، -٥-٥ للذين ، والذين ، يؤمنون -٥-٥ ، -٥-٥ ، -٥-٥	٩ ، ٩	يلحظ اتفاق بين كلمتي ((تكفرون)) و ((نجعلون)) في الوزن الصرفي والحرف الأخير كذلك يلحظ اتفاق بين كلمتي ((يلحدون)) و ((تعلمون)) في الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة . كما يلحظ اتفاق هذه الكلمات في البنية المقطعية بالإضافة إلى الاتفاق في الحرف الأخير والمناسبة بينهما تامة .
خَلَقَ ، جَعَلَ - - - ، - - -	١٠ ، ٩	اتفاق الفعلين في الوزن الصرفي و البنية المقطعية له أثر واضح في تجانس الفعلين .
قلوبنا ، أكثت ٥-٥- ، ٥-٥-	٥ ، ٥	==
إلهمكم ، أنتمكم ٥-٥- ٥-٥- نذيقهم ، جلودهم ، وذلكم ، برئكم ٥-٥- ، ٥-٥- ، ٥-٥- ، ٥-٥- لعلمكم ٥-٥-	٩ ، ٦ ٢٣ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٦ ٢٥	اتفاق هذه الكلمات في الضمائر المتصلة يجعل بينها تلاؤماً صوتياً بديعاً .
كفروا ، كفروا ، كفروا ، أرنا ٥- - - ٥- - - فإذا ، وررت ، أفمن ، كفروا ٥- - - ٥- - - ٥- - - ولئن ، ولئن ، كفروا ، عملوا ٥- - - ٥- - - ٥- - - وإذا ، وننأ ، أولم ٥- - - ٥- - - ٥- - -	٢٩ ، ٢٧ ، ٢٧ ، ٢٦ ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ٥٠ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٥٠ ٥٣ ، ٥١ ، ٥١	الاتفاق بين كلمتي ((كفروا)) و ((عملوا)) في واو الجماعة وفي البنية المقطعية يعطيها توافقاً صوتياً واضحاً .

ملاحظات أخرى	رقم الآيات	الكلمات المتفقة في البنية المقطعية
====	٤٤ ، ٤٤ ، ٤١ ، -	عربياً ، لكتاب ، عربي ، وشفاء ٥٥-- ٥٥-- ٥٥-- ٥٥-- شركائي ، أرأيتم ، سنريهم ٥٥-- ٥٥-- ٥٥--
----	٢٥	الجن ، الإنس ، -٥٥ -٥٥
----	٤٧ ، ٤٧	وما تخرج ، وما تحمل --٥٥- ، --٥٥-

ومن هنا قد اتضح للناظر والمتأمل في الجداول السابقة مدى ما أحدثته التوافق بين الكلمات في المقاطع الصوتية من أثر واضح في التلاؤم الصوتي البديع . بالإضافة إلى وجود علاقاتٍ أخرى قوية بين الكلمات كالاتفاق في الوزن الصرفي والحرف الأخير للكلمة مما يحدث علاقاتٍ أخرى متينة بين الكلمات تزيد من جمال وقعها وتلاؤمها . فبمجرد أن تجتمع الكلمات في الاتفاق في عدد المقاطع وترتيبها لا شك أن ذلك قد أوجد بينها مناسبة لفظية جامعة . وهذا ما كشفته الجداول الماضية .

ولا يخفى أنه لا يمكن أن يقصر دور التلاؤم الصوتي والإيقاع بين كلمات السورة الكريمة في هذا الجانب فهناك تلاؤم بين الكلمات لوجود التناسق بينها أو التكرار أو انسجام الحروف فيما بينها فهناك ظواهر كثيرة تكشف لنا هذه الأسرار . وما هذه الطريقة إلا واحدة من الطرق العديدة التي تساعد على تملي المزيد من أسرار الجمال الصوتي المتلائم بين كلمات السورة الكريمة . والذي جاء مراعيًا لجو السورة في كل مقاماتها ومعانيها المتعددة وأغراضها المتنوعة . والله أعلم .

الفصل الثالث دراسة بلاغية

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: علم المعاني في السورة الكريمة

المبحث الثاني: علم البيان والبديع في السورة الكريمة

المبحث الأول علم المعاني في السورة الكريمة

- ويشتمل على المطالب الآتية:
- المطلب الأول: الأساليب الخبرية.
 - المطلب الثاني: الأساليب الإنشائية.
 - المطلب الثالث: المجاز العقلي.
 - المطلب الرابع: التعريف.
 - المطلب الخامس: التنكير.
 - المطلب السادس: التقديم.
 - المطلب السابع: التقييد بالشرط.
 - المطلب الثامن: الالتفات.
 - المطلب التاسع: الإيجاز.
 - المطلب العاشر: الإطناب.
 - المطلب الحادي عشر: القصر.
 - المطلب الثاني عشر: الفصل والوصل.

المطلب الأول الأساليب الخبرية

يقول الخطيب القزويني في تعريفه للخبر والإنشاء، «الكلام إمّا خبر، أو إنشاء، لأنّه إمّا أن يكون لنسبته خارج، تُطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج.

الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء^(١).

والأخبار في السورة الكريمة متعددة، ما بين أخبار قد أتت على حقيقتها، وأخبار جاءت مؤكدة لأغراض بلاغية، مطابقة لمقتضى الحال والمقام، وأخبار خالية من التوكيد، أو أخبار خرجت عن الفائدة ولازمها إلى معان مجازية أخرى، ولو تتبعنا ذلك كله، لطل بنا المقام والوقوف فلذا ستكون هناك أمثلة ونماذج من السورة تكفي في ورودها عند التعرض لها.

وأول ما يواجهنا في السورة الكريمة من الأخبار، قوله تعالى:

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾^(٢).

فالخبر في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ خبر عن القرآن بأنّه وحي منزل من عند الله الرحمن الرحيم، وقد ورد هذا الخبر مجرداً من التوكيد وأدواته المعروفة به، مع أنّ المقام مقام إنكار وجحود، لهذا التنزيل من قبل كفار قريش ولكنّ النظم الحكيم قد جاء بدون تأكيد منزلاً المنكر منزلة غير المنكر له، لعدم الاعتداد بإنكاره، لأنّه ليس له دليل على هذا الإنكار، حيث إنّّه لو

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، (ط ٢، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤١٢هـ) (١٩٩٢م) ص (١٧).

(٢) سورة فصلت، الآيات: ١-٣.

تدبر وأنصف لعدل عن هذا الغي والإنكار القائم في نفسه .
«فالإنكار القائم في نفس المخاطب لم يلتفت إليه الأسلوب،
ولم يعبأ به، وساق الكلام كما يساق إلى النفس الخالية من الإنكار،
وهذا فن دقيق لا يهتدي إلى مسالكه إلا بصير بسياسة الكلام، ثم إنَّ
له أثره الغالب في النفس حيث تجد الكلام الذي يواجه الرفض
والجحود خاليًا من الاحتفال والتوكيد خافت النبرة هامسًا بالحقيقة
في غير جلجلة وضجيج، وتجد هذا في كتاب الله كثيرًا جدًا»^(١).

فالخبر هنا موجه للمؤمنين والمنكرين وفيه في السورة الكريمة
قوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢).

فنفي الباطل عنه ينكره كثير من المعاندين، ولكن النظم الحكيم لم
يعتبر هذا الإنكار ولم يعبأ به، وساق هذه الحقيقة في هذا الهدوء
الوائق الحكيم.

ومن أساليب الخبر في السورة الكريمة، أن ينزل غير المنكر
منزلة المنكر كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

وهذا الخبر من أخبار وقائع يوم القيامة وأخبار الحوار الدائر
بين الظالمين وجلودهم التي أنطقها الله، ويحتمل أن يكون هذا
الكلام من كلام الجلود ومحاورتها، أو أن يكون من كلام الله
عز وجل^(٤).

(١) خصائص التراكيب، للدكتور محمد أبو موسى، (ط ٤، القاهرة)، مكتبة وهبة

عام: (١٤١٦هـ، ١٩٩٦م)، ص (٨٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (١١/٥).

ويرجح الإمام الألوسي الأول، ويرى أنه الأظهر^(١).
ففي هذا الخبر تأكيد وتقرير بإنزال العصاة منزلة المنكر
لصفات الله الحسنی حيث إنَّ جهلهم ولهوهم ألهاهم في دنياهم عن
التفكير في قدرة الله وآياته في الكون حتى أصبح حالهم حال المنكر
بأن يكون الله هو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم.
ثمَّ إذا نحن استقرينا الأخبار التي جاءت مؤكدة في السورة
الكريمة فإننا سنجد البلاغة المطابقة لمقتضى الحال في كل مقام من
المقامات المختلفة.

فعند النظر في مقدمة السورة الكريمة إلى الموقف المتعنت من
قبل المعرضين تجاه النبي ﷺ وما جاء به، وجدنا استخدام الأسلوب
الخبري المؤكد الذي يردون به على النبي ﷺ في قوله تعالى:
﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٢﴾ ﴾، فلننظر إلى الخبر في قولهم: ﴿ إِنَّا
عَمِلُونَا ﴾.

هذا الخبر المؤكد بأنَّ وإسمية الجملة التي تدل على الثبوت
والدوام، أي ثبوت هؤلاء القوم على موقفهم واستمرارهم في
غيهم، وهذا فيه إقناط للرسول ﷺ في محاولته في هدايتهم
واستقطابهم إلى الخير والفلاح.

فلذا جاء التوكيد بأنَّ وإسمية الجملة لتقطع هذا الأمل والرجاء
في نفسه - عليه السلام -.

يقول الإمام البقاعي هنا: «ولمَّا كان تكرار الوعظ موضعاً
للرجاء في رجوع الموعوظ قطعوا ذلك الرجاء بالتأكيد بأداته وزادوه
بالنون الثالثة والتعبير بالإسمية فقالوا: قطعوا ذلك الرجاء بالتأكيد

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (١١٦/٢٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

بأداته وزادوه بالنون الثالثة والتعبير بالاسمية فقالوا: ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي معاندين به، فلا مواصلة بيننا بوجه ليستحي أحد من الآخر في عمله، أو يرجع إليه»^(١).

فحسن هنا موقع التوكيد الذي أدى غرضه الذي كانت تتطلبه نفوس هؤلاء المعرضين، فلمّا كان ﷺ يؤمل الفائدة من دعوتهم إلى الله، وأنهم سيستجيبون لكلامه قطعوا هذا الأمل واستخدموا في عبارتهم التأكيد المعبر عن مشاعرهم المسكنة في نفوسهم، فمن هنا جاء موقع التأكيد في الخبر.

وقي يأتي التوكيد إلى الأخبار التي تنزل منزلة الأخبار التي لا ينكرها منكر ولا يعارضها معارض، فليست محلاً للشك ولا للإنكار، وذلك عبر التأكيد «بإثما».

يقول فيها الإمام عبدالقاهر: «اعلم أنّ موضوع «إثما» على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة»^(٢).

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

فهذا التركيب القائم بين «إن» مكسورة الهمزة أو مفتوحة الهمزة بزيادة «ما» عليها، تظهر لنا أداة من أدوات التوكيد، وهي إحدى طرق القصر المفيدة للتوكيد، واستعمال هذا الأسلوب في تأكيد هذا الخبر له من الدلالات والدقائق البلاغية، ما يحتاج إلى تأمل وروية في ادراك أسراره فقد استخدمت هذه الأداة في الخبر الواضح والحقيقة الثابتة التي ليست مثاراً للشك والإنكار فتأتي على

(١) نظم الدرر (١٧/١٤٣).

(٢) دلائل الإعجاز (٣٣٠).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

أصلها كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ واستعمالها في هذا الخبر الثابت الذي لا ينكره أحد، ولا يجهله تأكيد للمعنى وتقرير له .

ثم جاءت «إنَّما» في الخبر الثاني في قوله تعالى: ﴿ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ وهذا الخبر ينكره المشركون ولا يقرون به فنزل فيه الخبر منزلة المعلوم الثابت الذي لا ينكر ولا يجهل وتخيل المعنى هكذا يعطي قوة في دلالة، إنَّما في التأكيد للخبر والتفخيم لشأنه، وقد ألمح الإمام عبدالقاهر إلى ذلك في قوة دلالة إنَّما في استعمالها الثاني في تنزيل الخبر المنكر منزلة المعلوم الذي لا يجهل ولا ينكر^(١).

ثم إنَّ الأساليب الخبرية في السورة الكريمة يكثر فيها التوكيد في مواقف مختلفة ومتعددة من ذلك توكيد مصير المؤمنين ومآلهم، وأنَّ لهم الأجر العظيم غير الممنون كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾^(٢).

فما هو السرُّ وراء هذا التوكيد؟ إنَّ الناظر إلى السورة الكريمة وهو يعلم أنَّها نزلت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة يعلم الحاجة الماسة التي يحتاجها كل من دخل في دين الله إلى التثبيت والتسلية، فإذا جاء الخبر المتضمن للبشري والوعد الحسن لهم مؤكِّدًا فإنَّه سيحمل لهم من التثبيت الشيء العظيم ويحمل التعاسة والتعريض لمن خالفهم حيث إنَّهم لن يدخلوا معهم في هذا الفضل، فكأنَّه لذلك جاء التوكيد فهو بمنزلة ويل للمشركين، وطوبى للمؤمنين .

فتوكيد الخبر بأنَّ في الآية، تحقيق لوعده الله تعالى ، وهذا

(١) ينظر: المصدر السابق «فصل في إنَّما ومواقعها» ص (٣٣) وما بعدها .

(٢) سورة فصلت، الآية : ٨ .

التأكيد غير منظور فيه إلى حال المخاطب، لأنَّ حال المخاطب لا يعوّل عليها دائماً في إلقاء الخبر، بل قد يعوّل على غيرها، كما في الآية، فقد أكد الخبر لتحقيق الوعد، وقد يؤكد لتحقيق الوعيد^(١)، والسورة الكريمة فيها من العرض الكثير للأخبار الواردة عن إعراض المشركين ومواقفهم، ومنها كفرهم بالله تعالى وجعلهم الأنداد له، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

يقول الإمام أبو السعود: وقد تابعه في ذلك الألوسي عن التأكيد «بإِنَّ واللام»، «التأكيد هنا إما لتأكيد الإنكار وإما للإشعار بأنَّ كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه، فيحتاج إلى التأكيد»^(٣).

وقد أحسن الطاهر بن عاشور في توجيهه لمعنى التوكيد في هذه الآية، حيث يقول: «وتوكيد الخبر بـ«إِنَّ» ولام الابتداء بعد الإستفهام التوبيخي أو التعجبي استعمال وارد كثيراً في الكلام الفصيح ليكون الإنكار لأمر محقق، وهو هنا مبني على أنَّهم يحسبون أنَّهم مهتدون، وعلى تجاهلهم الملازمة بين الانفراد بالخلق، وبين استحقاق الانفراد بالعبادة، فأعلموا بتوكيد أنَّهم يكفرون، وبتوبيخهم على ذلك فالتوبيخ المفاد من الاستفهام مسلط على تحقق كفرهم بالله، وذلك من البلاغة بالمكانة العليا»^(٤).

وإنَّ أصيلة في التوكيد، كما نصّت على ذلك كتب النحو^(٥)،

(١) ينظر: بلاغة تطبيقية، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود (ط ١) القاهرة: مطبعة الحسين، عام (١٤١٢هـ-١٩٩١م) ص (١١٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٣) تفسير أبي السعود (٤/٨)، روح المعاني (٩٩/٢٤).

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٤٢/١١).

(٥) ينظر: الكتاب لسيبويه (٢٣٣/٤).

ولام الابتداء، تفيد توكيد مضمون الجملة^(١).
فقد اجتمع في الآية التوكيد بإنّ ولام الابتداء، وهكذا نلاحظ استخدام التوكيد في السورة الكريمة على نمط من البلاغة والبيان لا يجاري، ولننظر إلى قوله تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٢)، فالآية هنا تبين أنّهم ينفون أن يكون في الوجود من هو أقوى منهم، فكذبهم الله في دعواهم ووصفهم بأنهم جحدوا بآياته واستولوا عليهم الشيطان فكانوا من الغاوين، فجاء الخبر الذي تضمن الرد عليهم بأسلوب قد احتشد فيه التوكيد.

فقد أكد الرد بـ«إنّ» اسمية الجملة + ضمير الفصل» لإزالة انكارهم أن يكون في الوجود من هو أقوى منهم، ووصف المسند إليه لفظ الجلالة «الله» بالموصول وصلته فيه زيادة تكذيب لهم، وفيه تعريض بحماقتهم، فقد احتشد في هذا الخبر التوكيد من إنّ واسمية الجملة وضمير الفصل ليناسب هذا الموقف من الإنكار فحسن فيه لتوفر الدواعي له.

فالتوكيد يترك إذا لم يكن هنالك داع له، وإذا تطلبه شيء، فالإتيان به أحرى وأفضل والأخبار المؤكدة في السورة كثيرة، ولكن نقتصر منها على ما يبين مدى جمال التوكيد في الأساليب الخبرية في السورة حتى نجد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبي محمد عبدالله جمال الدين بن هشام، (لاهور، دار نشر الكتب الإسلامية) (١/٣٦).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

حشدًا من التوكيد لم يوجد في نظيرتها من سورة الأعراف التي خلت من هذا التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) فما سرُّ هذا الحشد من التوكيد في سورة فصلت؟

نرى الخطيب الإسكافي يكشف لنا عن أسرار هذا التوكيد، حيث يقول: «للسائل أن يسأل عن التوكيد في سورة ﴿حم﴾ ﴿السجدة﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وتعريفه الصفتين بالألف واللام وترك التوكيد بقوله: ﴿هُوَ﴾ وترك التعريف في: قوله: ﴿هُوَ﴾، وترك التعريف في ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ من الأعراف، والجواب: أن يقال: إنَّ الذي في سورة السجدة لَمَّا كان بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملاينة استكفافًا لشره وأذاه حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل فيصير وإن كان عدوًا كأنه صديق قريب، ولَمَّا كان الأمر الذي بعث الله تعالى عليه أوليائه شاقًا عظيمًا حتى قال: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٢)، كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ ومن قبولها أبعده، وكان الترغيب في مدافعته أبلغ وتقدير علم الله تعالى بما يلاقي من ذلك أوكد فجاء قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) أي لا سميعًا عليمًا قديمًا إلا هو فهو لم يزل يعلم ما يكون قبل أن يكون فكيف ما يتكلّف به من المشاق فيما دعاك إليه، فهذا وجه التوكيد والتعريف في هذه الآية: «وأما الآية في سورة الأعراف، فإنَّ قبلها: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤)، ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة: «بل كان ما هناك بعثًا على أحسن الأخلاق، ولم يخص نوعًا من المشاق، كما خص في سورة السجدة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

فلم يبالغ في اللفظ، واقتصر في الخبر على الأصل: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ فجعل اسم إن معرفة وخبرها نكرة، وذلك الأصل قبل تأكيد الألفاظ لتأكد المعاني^(١)، ويذكر الإمام البقاعي، وجهًا آخر للتوكيد في هذه الآية: حيث يقول: «تحدث فيها بأداة الشك المفهومة جواز وقوع ذلك في الجملة مع العلم بأنه ﷺ معصوم إشارة إلى رتبة الإنسان من حيث هو إنسان وإلى أن الشيطان يتوهم مع علمه بالعصمة أنه يقدر على ذلك فيعلق أمله به، وكأنه لذلك أكد، لأن نزغ له في محل الإنكار»^(٢)، ثم نجد الأسلوب التوكيدي في الأخبار التي تأتي لبيان حقيقة الحياة بعد الموت، وحقيقة الحياة الآخرة التي ينكرها المشركون ولا يعتقدون صحتها فتأتي على أسلوب حكيم من المقايسة بين إحياء الأرض بعد موتها وإحياء الموتى فيأتي الخبر مؤكدًا بعدة مؤكدات كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ خبر مؤكد بعدة مؤكدات، وهو موضع للاستدلال بآية الأرض، لأنها سيقت، لإثبات البعث بعد الموت، ولما كان القوم ينكرونه أشد الإنكار ناسب تأكيده بجملة مؤكدات منها: «إِنَّ + اللام + العموم في الموصول + الإسمية في قوله: لمحي + فصل الكلام واستئنافه».

فهذا الحشد من المؤكدات، جاء مراعيًا لحالة الإنكار الشديدة من قبل هؤلاء القوم، فناسب الإتيان بهما في هذا المقام. ثم جاء

(١) درة التنزيل، وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، (ط الأولى، سنة: ١٣٢٧هـ)، ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/١٨٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ليؤكد مضمون الآية ومحتواها، كذلك نجد التأكيد يدخل على الأخبار التي تتضمن الوعد والبشرى للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾^(١)، وفي هذا التأكيد ترغيب وتثبيت للمؤمنين وتعريض بأعدائهم والتأكيد هنا كما يقول الإمام البقاعي: أيضاً من أجل إنكار المعاندين^(٢).

وإذا جئنا إلى آيات التسلية للرسول ﷺ وجدناها أخباراً مشتملة على التوكيد محتفلة به، لتثبيته عليه السلام، وتسليته كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْفِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾^(٣)، أي يقول تعالى ذكره لنبيه: ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ما جئتهم به من عند ربك إلا ما قد قاله من قبلهم من الأمم لرسولهم الذين كانوا من قبلك، يقول له: فاصبر على ما نالك من أذى منهم كما صبر أولو العزم من الرسل.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يقول: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾، وهو ذو عقاب مؤلم لمن أصرَّ على كفره وذنوبه^(٤)، فالآية فيها من التثبيت له - عليه السلام - الشيء العظيم وقد استخدم التوكيد في ذلك في الشطر الأول من الآية بأسلوب القصر بـ«ما وإلا» وهذا الأسلوب لا يستخدم إلا في المواطن المهمة الساخنة والشطر الثاني التوكيد فيه بـ«إن».

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) نظم الدرر (١٧/١٨٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٤) الطبري (٢١/٤٨١).

فالتوكيد في مقام التسلية والتثبيت له ﷺ غير منظور فيه لحالة الإنكار أو عدمه، لأنَّ المخاطب وهو النبي ﷺ غير منكر لذلك ونجد في موقع آخر من مواقع التسلية له ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾^(١) نجد الجملة قد ابتدأت بالتأكيد بالقسم أولاً، الذي دلَّت عليه اللام، وبكلمة «قد» ثانياً، وقد نتساءل عن هذا التأكيد ما سببه، والرسول ﷺ ليس بحاجة إليه، وهذا صحيح، فالتأكيد هنا ليس لإيتاء موسى الكتاب، ولكنه لمضمون الجملة التي سبقت من أجله، فالجملة سبقت للتسلية والتثبيت، تسلية الرسول ﷺ وتثبيت المؤمنين ولهذا جاء التوكيد^(٢).

فما أعظمه من أسلوب قرآني بديع ينتظم فيه الكلام على نهج حكيم يطابق مقتضيات الأحوال، وما تستدعيه الأخبار من توكيد يزيل الشك أو التردد، أو الإنكار، أو يزيد من التثبيت والتسلية على الدين القويم الصحيح، ويأتي التوكيد في الأخبار التي تضمنت الوعد، أو الوعيد، ويظهر ذلك في آخر السورة الكريمة في وعد الله تعالى للمكذابين بأن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم حقيقة ما أنزل على رسوله ﷺ من النور والهداية، يقول تعالى: ﴿سَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٣) وأداة التوكيد في الخبر «السين» التي دخلت على الفعل المضارع فمخضته للاستقبال والسين تدل على الزمن القريب وقد أفادت التوكيد. وتأتي أخبار في السورة الكريمة مؤكدة بأنَّ واسمية الجملة، وذلك لما تحمل هذه الأخبار من معان عظيمة، مثال ذلك قوله

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

(٢) البلاغة فنونها، وأفنانها، للدكتور فضل حسن عباس (ط ٣) (عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع) عام (١٤١٤هـ، ١٩٩٢م) ص: (٥٣٦).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

تعالى: ﴿أَوْلَم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ﴿٥٤﴾ في آخر السورة الكريمة. فقد أكد الخبر في الآية الأولى بـ«إِنَّ + اسمية الجملة» لأنّ مضمون الخبر من الحقائق العظيمة التي من حقها أن تصاغ في عبارات عظيمة مثلها، وهذا هو منهج النظم الحكيم والتوكيد مسلك بلاغي مطابق لمقتضى الحال في مقامات منها الوعد والضمان كما في هذه العبارة^(١).

الأخبار التي خرجت عن الفائدة ولازمها:

الأصل في الخبر أن يلقي لغرضين هما: الفائدة، ولازم الفائدة.

غير أنّه كثيراً ما يخرج على خلاف مقتضى الظاهر، فيخرج إلى معانٍ مجازية تفهم من السياق وقرائن الأحوال، ومن ذلك في السورة الكريمة.

خروجه إلى معنى التهديد كما في قوله تعالى عن قول المعرضين: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ يقول الطاهر بن عاشور: والخبر في قولهم: «إننا عاملون» مستعمل في التهديد^(٢) ومن الأخبار التي جاءت على هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ﴿٣﴾ فهذا الخبر وعيد وتهديد لمن تحقق فيه وصف الإلحاد في آيات الله، سواء كانت قولية، أو كونية، وتعدية الفعل ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بحرف الجر فيه تهويل لوقوعه والخبر في ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ليس على ظاهره فقط، بل يراد

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، للدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني، (ط

١) (القاهرة: مكتبة وهبة) عام ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م (٤/٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٣٦).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

منه تعذيبهم ومجازاتهم وإحاطة علم الله بهم .
ومن الأخبار التي تدخل في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) فهذا الخبر كناية عن مجازاتهم وإحاطة علم الله بهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْدَبٌ عَزِيزٌ ﴾ (٢) خبر إن هنا محذوف دل عليه السياق ، والأحسن أن يكون تقديره بما تدل عليه جملة الحال من جلاله الذكر ونفاسته ، فيكون التقدير : خسروا الدنيا والآخرة ، أو سفهوا أنفسهم ، أو نحو ذلك مما تذهب إليه نفس السامع البليغ (٣) .

وفي حذفه معنى التهديد بمعنى أن لهم العذاب الأليم ، حيث تذهب النفس في تصور الخبر مذاهب شتى ، وهنا جمل حذف الخبر لهذا الغرض ، وهذا الخبر متصل بالأخبار السابقة التي جاءت للتهديد ، ويأتي الخبر بمعنى التقرير مع البشارة والترغيب ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٤) ، ومن مجيء الخبر للتقرير قوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (٥) أي إلى الله لا إلى غيره ، ويأتي الخبر على معنى التأمين والتأنيس والبشرى كما في قول الملائكة للمؤمنين : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٦) .

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤١ .

(٣) التحرير والتنوير (١١/٣٠٧) .

(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة فصلت ، الآية : ٤٧ .

(٦) سورة فصلت ، الآية : ٣١ .

يقول الطاهر بن عاشور هنا: «وقول الملائكة» ﴿مَنْ أَوْلِيَٰكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ تعريف بأنفسهم للمؤمنين تأنيساً لهم^(١).
وقد أتى الخبر في السورة الكريمة، يحمل معنى الابتهاج وحبّ الانتماء إلى الجماعة المسلمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).
ففي قوله: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) خبر يحمل معنى حب الانتماء والابتهاج بأنه من المسلمين^(٢).

ويأتي الخبر بمعنى المدح والتعريض، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣).

ففي هذا الخبر في الآية مدح للملائكة وتعريض بمن استكبر عن عبادة الله، وفيه معنى الاستغناء عن المتكبرين، فالله غني عن جميع خلقه فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.
ويأتي الخبر فيه معنى الوعد والضمان، كما في قوله تعالى: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٤) ولذا جاء الخبر مؤكداً كما مرّ بيان ذلك، وفي الإتيان ذكر السيوطي هذه الآية من أقسام الخبر وأشار إلى معنى الوعد فيها، وقال: وفي كلام ابن قتيبة ما يوهم أنه إنشاء^(٥).

ويأتي الخبر يحمل معنى التسلية والتثبيت ويدخل فيه التوكيد. كما في الأخبار التي جاءت لتسلية الرسول ﷺ وتثبيتته كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ

(١) المصدر السابق (١١/٢٨٥).

(٢) انظر: لتفسير أبي السعود (٨/١٤).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٥) الإتيان (٣/٢٢٩).

أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مَرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾
 فجاءت الأخبار في مقام التسلية حاملة التوكيد لتزيد من التثبيت له ﷺ والتسلية، ويأتي الخبر للتقرير مشوباً بالذم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسُ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾^(١) على تقدير مبتدأ محذوف، أي فهو يؤوس قنوط^(٢) وهكذا نجد الخبر يخرج عن الفائدة ولازمها إلى معان أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال.

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤٨٢/٧).

المَطْلَب الثاني الأساليب الإنشائية في السورة الكريمة

الإنشاء في اللغة: الإيجاد والإحداث. ويعرف عند البلاغيين بأنه كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

ولقد مرَّ تعريفه عند التعرض لتعريف الخبر سابقاً حيث ذكر تعريف الخطيب القزويني لهما هناك. والإنشاء ينقسم إلى قسمين اثنين: طلبي: وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب وهو ما انصبت عليه عناية البلاغيين.

وغير طلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً وله أساليب مختلفة^(١) لم تنل العناية من لدن البلاغيين لقلّة الأغراض المتعلقة بها. وأساليب الإنشاء الطلبية خمسة:

وهي الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء. والدراسة في هذه الأساليب الإنشائية تنصب على معانيها التي خرجت عن الحقيقة إلى معانٍ مجازية أخرى. والذي برز منها في السورة الكريمة، الاستفهام، والأمر، والنهي، وهي كالتالي:

أ- أسلوب الاستفهام:

والاستفهام: طلب حصول الفهم، أو طلب حصول الشيء في الذهن، والحقيقي منه في القرآن قليل، وكل ما وجد من أساليبه بلغ

(١) «كصيغ المدح والذم، والتعجب، والقسم، والرجاء وصيغ العقود».

(١٩) أسلوبًا من مجموع الاستفهام القرآني كله: (١٢٦٠) أي بنسبة (١: ٦٦ تقريبًا) وما ورد على حقيقته من الاستفهام كان من قول البشر، وكل استفهام صدر من المولى كان غير حقيقي يؤيده الاستعمال القرآني نفسه^(١).

أولاً: الاستفهام الإنكاري في السورة:

والاستفهام الإنكاري من أكثر الأنواع شيوعًا في القرآن الكريم، حيث نزل القرآن على قوم جمعوا رذائل الوثنية التي ارتبط بها سلوكهم، مع تعصبهم لما ورثوه كانت حساسيتهم للكلمة جد خطيرة، فهي تهزهم هزًا، وتصل إلى مواطن السر تزلزلها - بما للقرآن من قهر وجلال - وتخلق منهم بشرًا آخرين بذات الملامح، ولكن بقلوب مختلفة، فكان صوت الإنكار في القرآن جهيرًا، إنكار على الشرك ومظاهره ورذائله، وما ارتبط به من تدن خلقي^(٢).

وأول موضع يلقانا في السورة الكريمة من الاستفهام الإنكاري، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) الاستفهام في الآية الكريمة استفهام إنكار وتوبيخ وتهديد، وهو إنكار للكفر الواقع، والاستفهام في الآية الكريمة إنكاري عند جميع من تعرّض له من المفسرين^(٤).

يقول الإمام أبو السعود: وقد تابعه على ذلك الإمام الألويسي بالحرف: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ «إنكار وتشنيع لكفرهم وإنّ واللام

(١) انظر: أساليب الاستفهام في القرآن، تأليف عبدالعليم السيد فوده (نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) ص(١٩٢).

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، للدكتور صباح عبيد دراز، ط ١، القاهرة) مطبعة الأمانة عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ص(١٢٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٨)، روح المعاني (٩٩/٢٤)، البحر المحيط (٧/٤٦٥)، التحرير والتنوير (١١/٢٤٢).

إمّا لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد، وإما للإشعار بأنّ كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد^(١).

ويرى الإمام الطاهر بن عاشور أنّ: «التوبيخ المفاد من الاستفهام مسلط على تحقق كفرهم بالله»^(٢).

ومن هنا يلحظ أنّ أبا السعود، ومعه الإمام الألوسي لم يجعلوا الإنكار مسلطاً على الكفر المؤكد بـ«إنّ» والوجه عندهما ما تحمله العبارة من التأكيد مدعين أنّ كفرهم بالله لبعده عن الحق، ينكر العقلاء وقوعه من أي أحد فأكد للدلالة على أنّ مدّعيه يحتاج إلى توكيده، لإزالة إنكار العقلاء له، ويلحظ الدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني في كتابه التفسير البلاغي للاستفهام أنّ هذا التخريج بعيد كل البعد عن التصور.

ويقول: «والظاهر بأنّ الذي حمل الإمام أبا السعود على هذا الرأي القريب تجويز الكفر غير المؤكد، لأنّ الإنكار مثل النفي كلاهما قيد في الكلام، والنفي إذا دخل على أمر احتمال أن يكون مسلطاً على القيد وحده دون المقيد فيكون لفلان ولد لكنه غير نافع وأن يكون مسلطاً على المقيد والمقيد معاً، ويضرب لذلك مثلاً: حيث يقول: «فقولك فلان ليس له ولد نافع محتمل للمعنيين معاً، أي أن يكون النفي مسلطاً على القيد وحده دون المقيد، فيكون لفلان ولد لكنه غير نافع وأن يكون مسلطاً على المقيد والمقيد معاً، فلا يكون لفلان ولد قط، وإذا انتفى القيد انتفى المقيد ضرورة».

وفي الآية خشي الإمام أبو السعود أن يكون الاستفهام لإنكار الكفر المؤكد لجواز أن يفهم أنّ الكفر غير المؤكد جائز وليس ممتنعاً وهذا ما يسمى عند علماء الأصول بدلالة المفهوم.

(١) تفسير أبي السعود (٤/٨)، روح المعاني (٩٩/٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤٢/١١).

ودلالة المفهوم تكون واردة إذا لم يمنع من إرادتها مانع خارجي لا صلة بدلالة التراكيب اللفظية عليها، فمثال: «فلان ليس له ولد نافع» يكون القيد فيه وهو النفع منفيًا دائمًا، إذا كان الخبر صادقًا، سواء كان له ولد غير نافع، أو لم يكن له ولد قط، فاحتمال الداليتين بالنظر إلى واقع اللفظ، أما الخارج فهو الذي يحدد بكل وضوح المراد من هذه العبارة فإذا لم يكن لفلان هذا ولد، كان المنفي القيد والمقيد معًا، وإذا كان له ولد عاجز عن النفع كان النفي هو القيد وحده، دون المقيد وفي الآية، الإنكار مسلط على القيد، وهو تأكيد الكفر، وعلى المقيد، وهو الكفر نفسه، لأنَّ الشك في وجود الله وصفاته، مثل الكفر الجازم^(١).

وأما الموضع الثاني من مواضع الاستفهام الإنكاري، فيظهر في قوله تعالى حكاية عن قوم عاد: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٢).

ففي الآية الكريمة تصوير يكشف لنا مظهر العناد والاستكبار المتمثل في قوم عاد بغير الحق، حيث نفوا أن يكون في الوجود من هو أقوى منهم، فجاء الرد عليهم مكذبًا لهذه الدعوى، فالآية قد اشتملت على استفهامين اثنين.

أولهما: قول عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وهذا الاستفهام استفهام إنكار بمعنى النفي أي لا أحد أشد منّا قوّة^(٣)، وهذا الاستفهام يظهر لنا مدى العتو في شدة الاعتداد بالنفس حيث لا مصدر له إلا التعامي والجهل.

وأما الاستفهام الثاني: فهو استفهام تقريرى سيأتي بيانه فيما بعد.

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم (٥/٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) انظر: روح المعاني للإمام الألويسي (١١٢/٢٤).

مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ ﴿١﴾ .

والاستفهام تقريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين (٢)
بمعنى نفي المساواة بينهما، فالاستفهام فيه معنى النفي للمساواة بين
من يلقي في النار ومن يأتي آمناً يوم القيامة.

ومن مواضع الاستفهام الإنكاري في السورة الكريمة .
قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٣) والاستفهام في الآية الكريمة استفهام انكار
وتعجب وتهكم على حسب زعمهم ولا خلاف بين أقوال المفسرين
في هذه المعاني (٤) .

أي: أقرآن أعجمي، ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي،
والمعنى: أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً،
لأن القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم (٥) .
فالاستفهام إنكاري مقرر للتحضيض في «لولا» .

ومن مواضع الاستفهام الإنكاري في السورة الكريمة .
قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِن
شَرِيذٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٦) فالاستفهام في قوله تعالى من الآية: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ ﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ، وفيه تهكم بهم وتنديم (٧) ،

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠ .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠٤/١١) .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤ .

(٤) انظر: الكشاف (١٩٧/٤)، البحر المحيط (٤٨٠/٧)، تفسير أبي السعود (١٨/٨)، روح

المعاني (١٢٩/٢٣)، حاشية الشهاب (٣١٩/٨)، التحرير والتنوير (٣١٤١١) .

(٥) الكشاف (١٩٧/٤) .

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٧ .

(٧) الكشاف (١٩٨/٤)، تفسير أبي السعود (١٨/٨)، روح المعاني (٣/٢٤) .

وأما الجديد فيه فهو قولهم: ﴿ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ ﴿٤٧﴾ بمعنى أعلمناك، وهو اعتراف منهم بكفرهم بعد فوات الأوان بأصنامهم، التي لم يجدوا لها أثرًا يذكر يوم القيامة^(١).

ومن مواضع الاستفهام في السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢﴾، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى أخبروني عند المفسرين^(٣).

وهذا الاستفهام لا للتقرير ولا للإنكار، بل هو دائماً توطئة وتمهيد لما يترتب على تصور المستفهم عنه، وإحضار صورته في الذهن ليحكم عليه، وهو حاضر، والجمهور يجعلونه بمعنى الأمر، فينسلخ عنه معنى الاستفهام بعد تحقق الأمرية فيه، والاستفهام كثيراً ما يراد منه الأمر^(٤).

وأما الاستفهام الثاني في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ فهو استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أضل ممن هو في شقاق بعيد، إذا تحقق الشرط^(٥).

وهذا من آخر مواضع الاستفهام الإنكاري في السورة، ولقد غلب هذا النوع من الاستفهام والأسلوب في السورة الكريمة.

ويرى بعض الباحثين أن الاستفهام الإنكاري في القرآن من أكثر الأنواع شيوعاً فيه، وخاصّة في القسم المكي منه^(٦).

هذا إذا علمنا كما سبق مراراً أنّ السورة الكريمة من السور

(١) التفسير البلاغي للاستفهام (٤/٢١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٣) الكشاف (٤/٢٠٠)، البحر المحيط (٧/٤٨٣)، أبو السعود (٨/١٩).

(٤) انظر: التفسير البلاغي للاستفهام (٤/٢٣)، وما بعدها.

(٥) انظر: البحر المحيط (٧/٤٨٣)، التحرير والتنوير (١١/١٧).

(٦) انظر: أساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم فوده (١٩٥)، وما بعدها.

المكية المتقدمة في مراحل الدعوة المبكرة، ولهذا ناسب كثرة ورود هذا الاستفهام الإنكاري لجو السورة ومواضيعها الساخنة.

ثانيًا الاستفهام التقريري في السورة الكريمة:

وللاستفهام التقريري معنيان:

التحقيق والتثبيت، والآخر حمل المخاطب على الإقرار بما يعرف، وإلجاؤه إليه وطلب اعترافه^(١)، والموضع الأول منه في السورة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(٢).

الرؤيا هنا علمية، والاستفهام في الآية تقريرية وهو إن كان للتقرير أصالة فيردف عليه من المعاني الثانية: التكذيب والتوبيخ^(٣)

وقد عدّه الطاهر بن عاشور من الاستفهام الإنكاري، حيث يقول: «الاستفهام إنكاري، والمعنى إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوّة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربهم وعن إنذاره إيّاهم إعراض من لا يكثرث بعظمة الله^(٤)».

فإذا عدّ الاستفهام للتقرير فهو يعني أنّهم يعلمون بأنّ الله أقوى منهم، وإنّما هو الغرور بأنفسهم وبقوتهم التي أنستهم فكانوا من الجاحدين، وعلى الثاني يكون أنّهم لم يعلموا أنّ هنالك من هو أقوى منهم، والأقرب أن يكون استفهامًا تقريريًا، لأنّهم يعلمون أنّ الله تعالى هو أقوى منهم، وهو هنا حمل للمخاطب على الإقرار بما يعرف.

وأما الموضع الثاني للاستفهام التقريري في السورة الكريمة، فيظهر في قوله تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) ينظر: شروح التلخيص (٣٠٧/٢).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام (٩/٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥٧/١١).

شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾^(١) ولقد تعددت التوجيهات في هذا الاستفهام فكل من أبي السعود والألوسي يرى أن المراد من هذا الاستفهام الإنكار.

يقول الإمام أبو السعود: وقد تابعه الألوسي في ذلك: «والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولا تكاد تزداد إلا مع كفى»^(٢).

والإمام الطاهر بن عاشور: أورد الوجهين في هذا الاستفهام سواء كان للتقرير أو للإنكار فيقول فيه على التقرير: «فيه زيادة لتثبيت الرسول وشرح صدره بأن الله تكفل له بظهور دينه ووضوح صدقه في سائر أقطار الأرض وفي أرض قومه، على طريقة الاستفهام التقريري تحقيقاً ليتيقن النبي ﷺ بكفالة ربه، بحيث كانت مما يقرر عليها كناية عن اليقين بها، فالاستفهام تقريرى»^(٣).

ويؤكد الدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني على: أن الاستفهام في الآية للتقرير، لا للإنكار حيث يقول: «ومن صحبنا في هذه الدراسة يعلم أننا نميل إلى جعل هذا الاستفهام ونظائره للتقرير، لا للإنكار، وأن المقام نفسه يكاد يوجب هذا الفهم، لأن مع التقرير يكون المعنى أن الله تعالى: يثبت كفايته للناس سواء كان التقدير: يكفك أو يكفهم»^(٤).

ويرى أن حمله على كلام أبي السعود والألوسي، وإن ساعد عليه المحذوف المقدر والمنفي بـ «لم» الذي لم يدخل عليه ما ينفيه، كان هذا الحمل حملاً على المعنى الذي يفهم من المقام بكل قوة ووضوح ولهذا جزم بأن الاستفهام في الآية استفهام تقرير ووعده

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) تفسير أبي السعود (١٩/٨)، روع المعاني (٦/٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/١٢).

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام (٢٥/٤).

حسن بتجلية الحق، وإقامة الحجة على المعاندين^(١).
ومن خلال الاستعراض للاستفهام في السورة الكريمة يتضح أنَّ
معظمه وغالبية قد جاء على الاستفهام الإنكاري وهو ما يتوافق مع
موضوعات السورة وصور الإعراض المتعددة فيها.

ب - الأمر ودلالاته البلاغية في السورة :

والأمر كما عرّفه البلاغيون، طلب فعل طلبًا جازمًا على جهة
الاستعلاء «فهو صيغة تستدعي الفعل، أو قول نبيء عن استدعاء
الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»^(٢).

ولفعل الأمر دلالات وصيغ متعددة في سورتنا الكريمة
وسيرتكز الحديث عن خروج الأمر إلى معان مجازية أخرى تتضح
من خلال السياق.

وأول موضع يلقانا في السورة من ذلك: قوله تعالى عن
المشركين: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَنِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥٦﴾^(٣) فالأمر في قوله: ﴿ فاعمل ﴾ كما
يقول الطاهر بن عاشور مستعمل في التسوية^(٤)، والأمر هنا خرج عن
مقتضاه إلى معنى آخر، وهو التعريض والاستخفاف، والتحدي،
وأنهم لا يبالون به، وفيه تسجيل عليهم أنهم قد بلغوا الغاية في
تبجحهم واستهتارهم وقد أمر النبي ﷺ بأن يجيبهم عن قولهم هذا
بأنه بشر مثلهم فليس له شيء من أمر عقابهم، وما عليه إلا أن
يبلغهم ما يوحي إليه من دعوتهم إلى وحدانية الله، وإنذارهم بالويل
والهلاك إن هم استمروا على حالهم، وأما الموضع الثاني من مواضع

(١) انظر: المصدر نفسه (٢٦/٤).

(٢) الطراز للعلوي (٥٣٠).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٤) التحرير والتنوير (٢٣٦/١١).

الأمر في السورة ففي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا^ط قَالَتَا أَئِنَّا لَطَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾^(١) فالأمر في قوله: ﴿أُنْتِ يَا﴾ كما نصَّ على ذلك الزمخشري للتكوين^(٢).

وقد مرَّ كلام سابق من البحث حول كون الخطاب في الآية على حقيقته وأصله ولقد نقل بعض الباحثين الآراء التي ذكرها الطبري، للعلماء حول قوله تعالى «كن فيكون» وهي في الكلام حول مخاطبة المعدوم ولكنه قرن مع هذه الآية آية فصلت السابقة التي نحن بصددتها حيث يقول: «وبدءًا فالمخاطب بالقول الإلهي قد يكون موجودًا في الآيات كالقوم الذين قال لهم الله موتوا، والأرض والسماء في قوله: ﴿يَتَأَرَضُ أَبْلَعِي مَاءَ لِي وَيَسْمَأْ﴾ وقد يكون معدومًا كما في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا^ط...﴾.

ويقول وفي مثل هذه الأساليب نقل الإمام الطبري آراء ثلاثة للعلماء^(٤) دارت عليها آراؤهم انحيازًا لرأي وإبطالاً لآخر^(٥).

وهذا الكلام والآراء يدور الحديث فيها على الشيء المعدوم، وفي فصلت الخطاب لموجود وليس للمعدوم، فمخاطبة الله جلَّ وعلا للسماء والأرض حالة كونهما موجودتين.

وهذا ما يتضح في كلام المفسرين يقول ابن جرير الطبري: «يقول جلَّ ثناؤه فقال الله للسماء والأرض: جيئنا بما خلقت فيكما،

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) الكشاف للزمخشري (٤/١٨٤).

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/٥٤٥)، وما بعدها.

(٥) انظر: الأساليب الإنشائية، وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/صباح دراز عبيد

أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم،
وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار،
والنبات، وتشققي عن الأنهار: ﴿قَالَتَا أَئِنَّا لَطَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿جئنا بما
أحدثت فينا من خلقك مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك، وبنحو الذي
قلنا في ذلك قال أهل التأويل﴾^(١).

وهذا ما يؤكد للناظر أنّ الخطاب هنا للموجود وليس للمعدوم
والله أعلم.

والتعبير بقوله: ﴿قَالَتَا أَئِنَّا لَطَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ بالجمع يبدو والله أعلم
أنّه إظهار تام للخضوع والعبودية وكأنّ كل جزء من أجزائهما قال
ذلك القول: فلفظ ﴿طائعين﴾ يصور الإذعان المطلق جرسًا ولفظًا
ودلالة وجمعًا وظلالاً دلالة الإهتمام البالغ بالمبادرة إلى الانقياد^(٢).
ويأتي الأمر بمعنى الدعاء والتمني.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا مَحْتَ أَقْدَامِنَا
لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾^(٣)، فهؤلاء الضالون يوم القيامة يدعون الله
ويتوسلون إليه أن يجيب مطلبهم هذا تشفيًا فيمن أضلّهم، فالأمر فيه
معنى الدعاء والتمني في قولهم ﴿أرنا﴾ ومن المعاني التي خرج إليها
الأمر في السورة «الإرشاد» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ
وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤)، الآية: تبين نفي المساواة بين
جنس الحسنه والسيئة، والأمر في قوله تعالى: ﴿ادفع﴾ حث للنبي
ﷺ إلى ما يليق بشأنه الكريم من حسن الأخلاق وكمال الفضائل،
وأوثر التعبير بصيغة التفضيل ﴿أحسن﴾ لكونه أبلغ من أن يقال:

(١) تفسير الطبري (٤٣٩/٢١).

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن، ص: ٥٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

«ادفع بالحسنة السيئة».

ومن مجيء الأمر على معنى الإرشاد. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(١)، فالأمر في قوله تعالى: ﴿استعذ﴾ للإرشاد.

ومن المعاني البارزة التي خرج إليها الأمر في السورة «التهديد» ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) وهذه الآية من الآيات التي استشهد بها البلاغيون في هذا المقام^(٣) وهي عند المفسرين بمعنى التهديد والوعيد^(٤).

يقول ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة الأمر بإجماع من أهل العلم^(٥).

ويقول النسفي: «هذا نهاية في التهديد ومبالغة في الوعيد ودليل الوعيد ومبنيه قوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾»^(٦).

هذا ويلحظ لأستاذنا الدكتور محمد أبو موسى متابعة لمعنى التهديد من خلال السياق في كلام جميل له، نقتطف منه ما يلي: حيث يقول: «أما سياقه في الآية فيجري هكذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾»^(٧).

يقول: «والمهم أنك ترى التهديد يبدأ تسلسله من تلك الصلة:

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) انظر على سبيل المثال: الإيضاح للخطيب القزويني (١٤٢).

(٤) تفسير أبي السعود (١٥/٨)، روح المعاني (١٢٧/٢٤)، البحر المحيط (٤٧٨/٧).

(٥) المنحصر الوجيز (١٩/٥).

(٦) تفسير النفسي المسمى بمداك التنزيل وحقائق التأويل للإمام الجليل أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمودالنفسي (طبعة دار الفكر) (٩٦/٤).

(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ وهي منبئة عن وجه بناء الخبر كما يقول السكاكي، وأنه لا محالة عذاب واقع بهم، وأنه صادر عن نفثة غضب، وفي إضافات الآيات إليه جلّ جلاله ما يؤكد ذلك، وفي قوله: ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ قرع أعنف، ويزداد فعله بمقدار هيمنة قائله، وقوله: ﴿أَفَنَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تلويح واضح بسوط العذاب الموجه، وهذا الاستفهام فيه إنكار واستجهاً وتقدير وتهكّم واستخفاف، وقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ترى التهديد أفصح وأبين لأنه يتجه إليهم ملتفتاً التفاتة الغاضب الموعد، وهذا الالتفات يعطي هذا المقطع مزيداً من الاهتمام، لأنّ الالتفات إيقاظ بمخالفة النسق المألوف وتجديد وتطرية، ثم ترى هذا الالتفات بكل عطائه يتكرر في قوله: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد قال قبلاً: آياتنا وعلينا، وفيه انصراف سريع عنهم، وطبيعة الأمر في قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ هي التي انبثق منها قدر هائل من التهديد^(١).

فالتهديد منحدر في السياق من مصدر بعيد عن الصيغة حتى يصل إلى غايته في صيغة الأمر ﴿اعملوا﴾ والتي حملت هذا القدر الهائل من التهديد العنيف المتوعد.

ج - النهي:

وهو طلب الكف عن الفعل على وجه الإلزام وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بـ«لا» الناهية الجازمة. وتخرج هذه الصيغة إلى معان مجازية كثيرة جاء منها في السورة الكريمة ما يلي:

أولاً: التحذير ويتضح في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

(١) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى (ط ٢) (القاهرة، مكتبة وهبة عام: ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧) ص (٢٤٩) وما بعدها.

وَأَلْغَوْا فِيهِ^(١) وبيانه أنه بعد أن علمت قريش وأيقنت أن للقرآن شأنًا عظيمًا في التأثير على النفوس سعت بتدبير أمر يمنع الناس من استماع القرآن فأوصى بعضهم بعضًا برفع أصواتهم باللغو واللغظ بالباطل، وبالتصفير والنبي يقرأ القرآن على ما هو موضح في أسباب النزول وما هذا الصنيع الذي افتعلوه إلا دليل على الحقد والكراهية للقرآن وللرسول ﷺ وما ذكر من أن النهي هنا للتحذير هو ما تؤيده الآية.

يقول الطاهر بن عاشور فقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ تحذير واستهزاء بالقرآن فاسم الإشارة مستعمل في التحقير^(٢).
ثانيًا: ومن المعاني التي جاء عليها النهي التطمين والتأنيس كما في قول الملائكة للمؤمنين: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣) فجاء النهي هنا في موقعه يحمل لهم التأمين من جانب الله تعالى وفيه تأنيس لهم.

د - اجتماع الأمر مع النهي أو النهي

وعند اجتماع الأمر مع النهي يحصل من ذلك اهتمام وحرص على تنفيذ ما طلب، وفيه دلالة على التوكيد وأهمية بشأن ما ورد، وقد كان اجتماع الأمر والنهي في السورة لافتًا في مواضع حساسة تحتاج إلى هذا الأسلوب الملائم للمقام، وهو في كثير من الآيات القرآنية يأتي الأمر أو النهي وسط جو مشحون بما يثير الدوافع إلى الاستجابة والامتثال^(٤).

وقد تقدم النهي على الأمر في السورة الكريمة في قوله تعالى:

- (١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.
- (٢) التحرير والتنوير (١١/٢٧٧).
- (٣) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
- (٤) بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني، السيد عبدالرحيم عطية، (القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر) ص(١٠٤).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾^(١) وهذه الآية هي أول هذه المواضع التي اجتمع فيها النهي مع الأمر فقد جاء النهي ﴿ لا تسمعوا ﴾ وفيه تحذير من مجرد السماع وأعقب بالأمر باللغو فيه وفيه تأكيد للنهي عن السماع وفي اللغو درجة أفضح من عدم السماع.

وثانيها: في قول الملائكة للمؤمنين: ﴿ أَلَا تَخَافُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٢) فقد اجتمع في الآية الكريمة النفي والأمر وفيه تطمين من الملائكة للمؤمنين بالأمن من جانب الله تعالى في ذلك الموقف العظيم الحاسم بين الظالمين لأنفسهم والمتقين الذين تتلقاهم الملائكة بالتبشير، فتدخل في نفوسهم الطمأنينة فقد جاء النفي عن الخوف والحزن وأعقب بالأمر في قوله: ﴿ أبشروا ﴾ فهو بمنزلة التأكيد للنفي والنهي عن الخوف والحزن السابق له، فجاء التوكيد متنامياً يبيث في النفوس الأمن والبشري، ولأنه لا بشري بانتفاء الأمن، فجمل تقدم الأمن ونفي الخوف ومجيء صيغة الأمر ﴿ أبشروا ﴾ بعدها.

وثالثها: ما يظهر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٣).

فإنه عندما أمرنا أن ندفع بالحسن أثار فينا تلك الرغبة في أن نجد بجوارنا الناصر والمعين نستكثر منهما حتى لينقلب العدو بتلك المعاملة كأنه صديق حميم^(٤).

فإعقاب النفي عن المساواة بين الحسنه والسيئة بالأمر ادفع فيه

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٤) بلاغة الأمر والنهي في النسخ القرآني، السيد عبدالرحيم عطية ص (١٠٥).

تأكيد على الحرص الشديد على هذا الفعل، وكلام بعض الباحثين يوهم ادراج هذه الآية تحت الآيات التي اجتمع فيها النهي والأمر^(١).
ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٢)، فقد تقدم النهي الذي يحمل معنى الزجر الشديد لمن يعبد هذه المخلوقات المسيرة التي أوجدها الله تعالى بقدرته وحكمته ثم تلا النهي الأمر بعبادة الله تعالى وفي ذلك توكيد للمعنى العظيم الذي فيه إثبات للعبادة لله وحده لا شريك له، فالنهج القرآني حينما يريد أن يوفر العناية والحث والرغبة والاهتمام بالخبر الخطير أثره في العقيدة يتبع النهي الذي اشتدت فيه حدة الزجر بأمر يؤكد مفهومه بعد النهي.

يقول الدكتور صباح دراز: «إن ترتيب الأوامر والنواهي في النسق القرآني يخضع لدقة خارقة، ويحتاج بحثاً متفرغاً فإتيان النهي بعد الأمر هو الأصل، وقد تتوالي الأوامر أو النواهي أو تتعاقب والحاكم في هذا طبيعة الغرض والمقام^(٣).
والملاحظ في سورة فصلت أن الأمر جاء عقب النهي أو النهي وجاء على هذا الترتيب في كل آيات السورة التي وجد فيها هذا الأسلوب على نمط واحد، لا اختلاف في ترتيبه مما يدل على موافقة المقام وجمال النسق.

(١) ينظر: المصدر السابق لهذا تجد فيه هذا الإيهام ص(١٠٤، ١٠٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن ص(٨٢).

المَطْلَب الثالث المَجَاز العقلي

وهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول؛ أي بقرينة صارفة عن إرادة الظاهر، لأنَّ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره إلى غيره^(١)، أي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير صاحبه، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي.

يقول عبدالقاهر الجرجاني عنه: «هذا الضرب من المجاز على حدته، كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طريق البيان، ولا يغرتك من أمره، أنك ترى الرجل.

يقول: «أتى بي الشوق إلى لقاءك» و«سار بي الحنين إلى رؤيتك» و«أقدمني بلدك حق لي على إنسان» وأشباه ذلك، مما تجده لشهرته، يجري مجرى الحقيقة فليس هو كذلك، بل يدق ويلطف حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأتق لها^(٢).

هذا وتراه يعقد فصلاً يفرق فيه بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي^(٣) إلاَّ أنه يُلاحظ أنَّ السكاكي ينكر هذا المجاز ولم يعترف به، وارتأى نظم مسأله تحت مبحث الاستعارة بالكناية^(٤). هذا وقد استنكر الخطيب القزويني ما ذهب إليه السكاكي وأرجع الخطيب هذا الفن إلى علم المعاني^(٥) والناظر في كلام السكاكي، يجد أنه لا

(١) بغية الإيضاح لتخليص المفتاح في علوم البلاغة، تعليق عبد المتعال الصعيدي (القاهرة، مكتبة الأداب) (٥٦/١).

(٢) دلائل الإعجاز ص (٢٩٥).

(٣) انظر: أسرار البلاغة ص (٣٦٦) وما بعدها.

(٤) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي (ط ٢) (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧) ص (٤٠١).

(٥) انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ص (٣٥، ٣٦).

يستقيم وبخاصة عند التطبيق العلمي له، ولقد اشتملت آيات الذكر الحكيم على هذا النوع بعلاقاته المتعددة.

ومما وجد من صورته في آيات السورة الكريمة ما يلي:
علاقة الفاعلية:

وتتضح في قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣) (١).

فالمجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣) لأن ﴿ أَلِيمٍ ﴾ فاعل بمعنى مفعول بفتح العين، اسم مفعول من ألم، والعقاب فاعل للألم وليس مفعولاً، فهو مجاز عقلي أسند فيه اسم المفعول إلى الضمير العائد على الفاعل ﴿ العقاب ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٢) ففي الآية مجاز عقلي علاقته الفاعلية، ومنها المفعولية.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِئِي قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ (٤٧) (٣) والمجاز في قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ ﴾ حيث أسند الخروج إلى ﴿ الثمرات ﴾ وهذا الإسناد مجاز عقلي علاقته المفعولية والفاعل الحقيقي هو الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن أَدْقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٠) (٤) فقد أسند المس إلى الضر، مع أن فاعل المس الحقيقي هو الله، وفي هذا التعبير، دلالة على ضعف هذا الصنف والنوع الموصوف في الآية من البشر، وقلة صبرهم فهم بمجرد الإصابة الخفيفة التي تحملها لنا دلالة كلمة

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

«المس» يحصل الجزع ويكون منهم ذلك الضعف والخور ثم إذا صارت النعمة بعد الضر الذي مسه، كان منه، نكران وبطر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١﴾﴾ فقد أسند اسم الفاعل ﴿مريب﴾ إلى ضمير الشك، والعلاقة هنا للمفعولية.

ومن علاقاته المصدرية:

وتتضح في قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿١﴾﴾ فجعل النزع نازعاً على طريقة جدّ جده من الإسناد للمصدر مجازاً للمبالغة ومن على هذا ابتدائية أي نزغ ناشيء منه (٢).

فإسناد ﴿ينزغنك﴾ إلى «نزغ» مجاز عقلي من باب جدّ جده، و﴿ومن﴾ هنا ابتدائية.

ومنها السببية:

وتتضح في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَِعْقَةً الْعَذَابِ الْهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ (٣) فالمجاز في قوله ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَِعْقَةً الْعَذَابِ﴾ حيث أسند الأخذ إلى الصاعقة إذ هي سببه الأكبر، مع أنّ فاعل الأخذ الحقيقي هو الله تعالى، وفي هذا تجسيد للقدرة الإلهية المرعبة، وسره البلاغي هو المبالغة في تصوير الإبادة الجماعية حيث أبرز الأمر في هذه الصورة المحسوسة، فشبّه إزالته من الحياة بالأخذ فكأنّه أخذ باليد.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (٤) فالفعل أردى مسند إلى ضمير الظن وهو سبب

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) حاشية الشهاب (٨/٣١٥).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

فقط والفاعل الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى .
ومن صور المجاز العقلي في السورة قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥) (١) ، فالمجاز العقلي في قوله: ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ ﴾ وأصل الخلاء: الفراغ والفراغ يكون للمكان ولا يكون لأصحابه فإذا أسند ما حقه أن يسند إلى المكان إلى غير فاعله وهو: أصحاب المكان كان ذلك على طريقة المجاز العقلي في خلو المكان، منهم مما يدل على بعد العهد بهم، فمعنى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ من قبلهم، أي مضت إلى ملاقات ربها فالفعل هنا يستحيل صدوره من فاعله المجازي .
هذا ويلحظ أنّ شواهد هذا الفن قد كثرت فيما كانت علاقته السببية في السورة الكريمة وقد اكتفينا منها بمثالين .
«ومن البين في هذا المقام أنّ المجاز العقلي الذي علاقته السببية يكثر استعماله في كلام العرب أكثر من غيره» (٢) .

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٥ .

(٢) بحوث في المطابقة لمقتضى الحال، للدكتور علي البدري (ط ٢) (القاهرة، المكتبة الحسينية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) (١/١٢٧) .

المطلب الرابع التعريف

المعرفة ما دلَّ على شيء بعينه والنكرة ما دلَّ على شيء لا بعينه^(١)، وأقسام المعرفة خمسة هي:

المضمرو وهو أعرفها، ثم العلم، ثم اسم الإشارة، والموصول، ثم المعرف بالألف واللام، ثم المضاف إلى واحد منها إضافة معنوية.
أ- التعريف بالضمير:

وذلك إذا كان المقام مقام التكلم وقد كان بارزاً في حديث الله تعالى وأول موطن يلقانا من ضمير الجلالة للمتكلم في السورة قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا سَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢) فالضمير في ﴿زَيْنًا﴾ لا يمكن أن يكون إلا الله، فهو المزيّن للسماء، ومجيء الضمير بالجمع للتعظيم، وعلى شاكلة هذه الآية جاءت الآيات التالية:

وهي قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٣).
وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(٦)، وقوله: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

(١) الطراز للعلوي ص (٢٠٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾ ﴿٢﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ﴾ ﴿٣﴾ ، فلم يقل مسسناه بالإسناد إلى ضمير المتكلم كما في ﴿أذقناه﴾ للدلالة على أن مس الضر ليس مقصودًا بالذات إنما وقع بالعرض بخلاف إذاقة النعماء ﴿٤﴾ ، فضمير الجمع يجيء عن ﴿الله﴾ تعالى في المواطن التي تقتضي التفخيم والتعظيم، وتصوير ذلك في صورة يكسوها الجلال والمهابة.

ب - التعريف بالعلمية:

وذلك لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به، ومثاله من السورة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿٥﴾ وقد ذكر البلاغيون أمورًا عدة في التعريف بالعلمية وقد اقتصرنا على ما هو موجود في سورتنا الكريمة.

ج - التعريف بالإشارة:

ذكر البلاغيون أنه يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة لتمييزه أكمل تمييز لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسًا، ومثلوا له بقول الشاعر:

هذا أبو الصقر فردًا في محاسنه من نسل شيان بين الضال والسلم ﴿٦﴾
وأكملية اسم الإشارة في التمييز لا تعارض ما قرره النحاة

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٤) حاشية الشهاب (١٣١/٥).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

(٦) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي (١٨٣)، والإيضاح للخطيب القزويني (٤٣).

والبلاغيون من أنّ الضمير أعرف المعارف^(١)، ويحسن التمييز الأكمل بالإشارة في مقام المدح والثناء كما في البيت السابق. والتمييز الأكمل هو ما كان بالعين والقلب، ولا يحصل ذلك إلاّ باسم الإشارة^(٢)، وللتعريف باسم الإشارة دواع وأهداف بيانية ذكر منها البلاغيون التعظيم أو التحقير أو التعريض بغباوة السامع وإما للتنبيه إذا ذكر قبل المسند إليه مذكور وعقب بأوصاف على أنّ ما يرد بعد اسم الإشارة فالمذكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف^(٣).

ولقد ورد التعريف باسم الإشارة في سورة فصلت في المواضع الآتية بيانها وأول موضع يواجهنا من ذلك في السورة التعريف باسم الإشارة الموضوع للبعيد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

ويتضح من اسم الإشارة التعريض بالكفار وببلادة رأيهم. يقول الطاهر بن عاشور هنا: «في الإشارة نداء على بلادة رأيهم إذ لم يتفطنوا إلى أنّ الذي خلق الأرض هو رب العالمين، لأنّه خالق الأرض وما فيها، ولا إلى أنّ ربوبيته تقتضي انتفاء الند والشريك، وإذا كان هو رب العالمين فهو ربّ ما دون العالمين من الأجناس التي هي أحط من العقلاء كالحجارة والأخشاب التي منها صنع أصنامهم»^(٥).

(١) انظر: كلاماً مفصلاً حول هذا الأمر في حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (٣١٣/١).

(٢) من سمات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، للدكتور حسين زموط، (ط ١) (القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ص (١٤٥).

(٣) انظر: المفتاح (١٨٣) وما بعدها، الإيضاح (٤٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٥) التحرير والتنوير (٢٤٣/١١).

ويقول أبو السعود: «ذلك إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان ببعد منزلته في العظمة، وهو مبتدأ خبره ما بعده أي ذلك العظيم الشأن»^(١).

فهنا قد دلت الإشارة كما فهم من السياق على معنيين، التعريض ببلادة الكفار، مع دلالتها على التعظيم والتفخيم لشأن المشار إليه، وجاءت الإشارة للبعد في قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا سَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢)، وأقرب مشار إليه في الآية هو الحفظ والزينة، ويدخل ما بعد الإشارة الأولى في قوله: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) والذي قبلها كذلك، من خلق الأرض وما اختصت به، وقضية خلق السماوات وما تلاها، وصحت الإشارة إليها جميعًا لكونها معطوفات فيكون كل ما تقدم من آثار تقديره سبحانه وذلك على توسع في مفهوم التقدير^(٣). وفي قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤).

يقول فيه الإمام الألوسي: «فيه إشارة إلى ظنهم المذكور، وما فيه من معنى البعد للإيدان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء»^(٥). والتعبير باسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ في موضع الضمير حيث قد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس، مشار إليه^(٦)، وما زال الحديث يتصل عن التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعد كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) تفسير أبي السعود (٤/٨)، روح المعاني (١٠٠/٢٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٣) ينظر: تفسير سورة فصلت، ص (١١٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

(٥) روح المعاني (١١٧/٢٤).

(٦) علم المعاني، دراسة بلاغية، للدكتور بسيوني عبدالفتاح (١/٢٦٤).

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ﴿١﴾ فالإشارة إلى العذاب والجزاء هنا بالبعيد لتحويله ولذلك حسن التعبير بالجملة الاسمية للدلالة على ثبوت المعنى وأنه واقع بهم لا محالة ، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيءِ آذَانِهِمْ وَقُرْءُوهُو عَلَيْهِمْ عَمَىٰ أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٤٤﴾ (٢).

يقول أبو السعود هنا: «أولئك إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وملاحظة ما أثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد المشار إليه للإيدان بعد منزلته في الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد أي أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها» (٣).

ثانياً: التعريف باسم الإشارة الموضوع للقريب.

وقد ورد منه في السورة موضعان:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ (٤)، حيث جاءت الإشارة بـ«هذا إلى القرآن وفيه تمييز للمشار إليه بالإشارة الحسية وفي هذا تحقير لشأنه في اعتقادهم.

يقول الطاهر بن عاشور: «اسم الإشارة مستعمل في التحقير فيما حكي عنهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُءَالِهَتَكُمْ﴾ ، وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك» (٥).

والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أذَقْنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود (١٧/٨)، ورح المعاني للألوسي (١٣٠/٢٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٥) التحرير والتنوير (٢٧٧/١١).

ضَرَاءَ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿١﴾ ﴿هَذَا﴾ أي الأمر العظيم ﴿لي﴾ أي مختص بي لما لي من الفضل لا مشاركة لأحد معي فيه ﴿٢﴾ .
التعريف بالموصلية:

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو محتاج إلى الصلة دائماً، فالصلة هي التي تزيل إبهامه، والتعريف بالاسم الموصول له مواضع دقيقة وخفايا لطيفة.
يقول الإمام عبدالقاهر: «اعلم أنّ لك في «الذي» علماً كثيراً وأسراراً جمّة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر بما يفضي بك إليه من اليقين ويؤديه إليك من حسن التبيين» ﴿٣﴾ .

ويكون التعريف بالإسم الموصول لأسباب منها:
عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، أو يكون للتفخيم، ويؤتى بالموصل لاستهجان التصريح بالاسم، أو زيادة تقرير الغرض، أو تنبيه المخاطب على غلظه، أو الإيماء والإشارة إلى وجه بناء الخبر، وربّما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر أو لشأن غير الخبر ﴿٤﴾ .

ومما هو ظاهر في صور الكلام أنّ طريق التعريف بالموصلية أكثر هذه الطرق سواء في ذلك كلام الله سبحانه وكلام الناس، وذلك لأنّه مفرد متضمن جملة، ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعارف بخلاف الضمير والعلمية والكنى فإنّها محدودة جامدة في دلالة واحدة وهذا واضح ﴿٥﴾ .

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٢) نظم الدرر (٢١٨/١٧).

(٣) دلائل الإعجاز (١٩٩).

(٤) ينظر: مفتاح العلوم (١٨٠)، وما بعدها، الإيضاح (٤١)، وشروح التلخيص (٣٠٢/١).

(٥) ينظر: خصائص التراكيب (٢٠٠/١).

ولقد جاء التعريف في السورة الكريمة بالوصول «ما، ومن» في تسعة عشر موضعاً وهي في قوله تعالى على التوالي: ﴿ وَمَا نَدَعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ﴿ فَإِنآ إِنَّمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ﴿ جَزَاءُ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَفَنَزَّلْنَا فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾^(١)، وتمثل دلالة الإبهام مع العموم الغرض البلاغي العام ويتفرع من ذلك عدة دلالات ستوضح عند تناول نماذج منها:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾^(٢) فالموصول في قولهم ﴿ وَمِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ يفيد العموم والإبهام وفيه استخفاف بالمدعو إليه وهو التنزيل، وشيبه به قوله تعالى عن المكذابين: ﴿ فَإِنآ إِنَّمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٣) فالعموم في الموصول والإبهام يفهم منه استخفافهم وعدم مبالاتهم بالذي جاء به الرسل عليهم السلام .

يقول الإمام البقاعي: «فإنَّ بما» أي بسبب الذي، ولمَّا كانوا لم ينكروا مطلق رسالتهم، وإنَّما أنكروا كونها من الله بنوا للمجهول

(١) سورة فصلت، الآيات: ٥، ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٣، ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٤.

قولهم مغلبًا تعالى في الترجمة عنهم للخطاب على الغيبة، لأنه أدخل في بيان قلّة أدبهم»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ جاءت دلالة العموم والإبهام في الموصول مناسبة للتهديد الوارد في الآية، وفيه بيان إحاطة علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة وبيان عظيم هيمنته وهذا مما يزيد في التهديد والتوعد لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾^(٢) جاءت دلالة الموصول هنا على العموم والإبهام مناسبة كل المناسبة لما ينتظر المؤمنين من نعيم عظيم حيث إنّ لهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولتذهب النفس كل مذهب في تصور ذلك النعيم، وتجيء دلالة التعميم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) لتشمل عموم من اتصف بهذه الصفات ومن دعا إلى الله وعمل عملاً صالحاً «والظاهر العموم في كل داع إلى الله. وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة»^(٤)، وجاءت دلالة الإبهام في قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٥) للتهوين على النبي ﷺ ما يواجهه من مشركي مكة وفيه تسلية له ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(٦) جاءت دلالة الموصول على العموم هنا لتبين مدى حرص

(١) نظم الدرر (١٧/١٦١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٤) البحر المحيط (٧/٤٧٥).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

هؤلاء القراء على التزيين لهؤلاء الضالين حيث إنهم لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا افتعلوها وحملوها للأغراء والإفساد فناسب الإبهام والعموم في الموصول هنا هذا المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) دلالة الموصول هنا على العموم والإبهام مناسب للمعنى وإفراده فيه دلالة عظيمة على المسؤولية الفردية في الحساب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾^(٢) الفاعل هنا هو الموصول: «ما» بمعنى المعبودات أي الشركاء في قوله: ﴿أَتِنَّ شُرَكَاءِ كُفْرًا﴾ قبلها وعبر بما دون «من» تغليبا لما لا يعقل منها من الأصنام والأوثان وقد كانوا يزعمون أنها تنفع وتضر، والإبهام في الموصول هنا استهجان لذكرها وفيه تهكم بهم، وتأتي دلالة الإبهام في قوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾^(٣) حيث عبر بالموصول المقيد لدلالة الإبهام مع التعميم، ليشمل كل من ضلَّ عن الإيمان بهذا القرآن فهو في شقاق بعيد، ولا يوجد من هو أضل منه، هذا وقد ورد التعريف بالموصول الاسمي في اثنين وعشرين موضعا من السورة الكريمة، وأول موضع يلقانا من ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٤) حيث مكن التعريف بالموصولة هنا من إظهار صفات المشركين والتشهير بهم وتحقيرهم «وذكر المشركين إظهار في مقام الإضمار ويستفاد تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإخبار عن الويل بكونه ثابتا للمشركين الموصوفين بالذين

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٤) سورة فصلت، الآيات: ٦، ٧.

لا يؤتون الزكاة، وبأنهم كافرون بالبعث، لأنّ تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، ولأنّ الموصول يؤذن بالإيماء إلى وجه بناء الخبر^(١).

وفي قوله تعالى من السورة: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٢) التعريف بالموصول هنا فيه استحضار لعظم قدرة الله تعالى في خلق الأرض في مدة وجيزة وفيه تقرير للتوحيد وتذكير بعظيم صفة الخلق فمن هذا فعله وقدرته فهو الجدير بالألوهية وحده، وفي هذا التعريف إيماء إلى حمق هؤلاء الكفرة.

يقول أبو السعود هنا: «وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل «بالذي خلق الأرض في يومين» لتفخيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم به أي بالعظيم الشأن الذي قدر وجودها أي حكم بأنها ستوجد في مقدار يومين»^(٣).

وقريب منه قوله تعالى لقوم عاد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٤)، فوصف المسند إليه، الله بالموصول وصلته ﴿الذي خلقهم﴾ فيه تكذيب لهم في ادّعائهم بأنّه لا أحد أشد منهم قوّة وفيه تشنيع عليهم في جهلهم، لأنّ الخالق أقوى وأعظم من المخلوق.

يقول أبو السعود: «وإنّما أورد في حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة في القوة وفيه ضرب من التهكم بهم»^(٥).

وفي التعريف بالموصول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا

(١) التحرير والتنوير للطاهر عاشور (١١/٢٣٩).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩

(٣) تفسير أبي السعود (٤/٨).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٥٠.

(٥) تفسير أبي السعود (٨/٨).

سَمِعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾^(١) وفيما شابهها من الآيات الكثيرة في السورة التي جاءت معرفة بالموصول في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، جاء التعريف بالموصول في هذه الآية وما ماثلها ليتمكن التعريف من إظهار صفة الكفر والتشهير بهم، وذمهم، وأنهم قد بلغوا الغاية في كمال الكفر.

ويأتي التعريف بالموصولية لبيان سبب العذاب والعقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٣) أي بسبب كفرهم وأعمالهم.

«ومقتضى الظاهر أن يقال: ولننبئهم بما عملوا، فعدل إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من علة استحقاقهم الإذابة بما عملوا»^(٤)، ويأتي التعريف بالموصول للمدح والثناء، كما في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥) ففي الآية ثناء عظيم على الملائكة يفهم من التعريف بالموصول وفيه تعريض بالمعرضين المستكبرين عن العبادة ولقد جاء التعريف بالموصولية في السورة الكريمة مشيراً إلى وجه بناء الخبر في المواضع التالية:

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٦) لقد جاء في الآية المسند إليه اسم موصول ﴿الذين﴾ حيث تؤمىء جملة الصلة ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى وجه بناء الخبر، فمن قرأ جملة الصلة هذه أدرك نوع الخبر ووقف عليه،

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) انظر: الآيات، ٢٧، ٢٩، ٤١، ٥٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٤) التحرير والتنوير (١٣/١١).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٨.

وعلم أنه جزاء حسن، لأنَّ الصلة إيمان وعمل صالح، والجزاء من جنس العمل.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها لَمْ يَخِ الْمَوْتَةَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾^(٣).

«ومثله كثير جدًا في كتاب الله حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيء النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به، وهذا لعمر كفن من الكلام جزل دقيق لا يهتدي إليه إلا فطن محدث»^(٤).
ومن التفصيل السابق للمواضع التي ورد فيها الاسم الموصول نلحظ ما يلي:

١- أكثر الأسماء الموصولة استعمالاً في السورة الذي والذين، حيث وردت في واحد وعشرين موضعاً، وجاء الموصول الاسمي ﴿التي﴾ في موضع واحد من السورة.

٢- يلي ذلك الاسم الموصول «ما، من» في تسعة عشر موضعاً من السورة أغلبها جاء على الاسم الموصول «ما».

ويرى بعض الباحثين. أن هذا راجع إلى ما في «ما» من إيجاز وخفة وما يكتنفها من إبهام يتنوع حسب المقامات المختلفة إلى تفخيم وتعظيم وتحقير وتصغير، وما تتضمنه من عموم وشمول للعقلاء وغيرهم، و«من» وإن كانت فيها بعض الخصائص السابقة إلا أن اختصاصها بالعقلاء يحدد من مساحة استعمالها في الأساليب،

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٤) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى ص (١٩٧).

أما «الذي» و«التي» و«الذين» فأسماء طويلة ومعانيها محددة ومن ثم يقل استعمالها^(١)، ولكن ورد الموصول الاسمي ﴿الذين﴾ و«الذي» في السورة أكثر من غيره من الأسماء الموصولة كما هو واضح من الإحصاء السابق، وذلك موافق لأغراض السورة ودقائق في المعاني اقتضاها جوّ السورة الكريمة. فتأتي في مقام بيان العظمة والقدرة للخالق العظيم، أو تأتي للذم والتحقير أو التمكين من صفات المعرضين فقد أدى هذا الاسم الموصول في هذه الأجواء ما لا يصلح أن يقوم به غيره وجاء ما يقابل صفات الذم للمعرضين، صفات المؤمنين المصدقين وجاءت عن طريق التعريف بالموصول الاسمي «الذين» ولمّا كان أغلب حديث السورة عن مظاهر الإعراض حسن ذكر الموصول الاسمي «الذين» للمعرضين للتشهير بصفاتهم وذمهم، والله أعلم.

التعريف بالإضافة :

من المعاني التي دلّت عليها الإضافة اكتساب التشريف من المضاف، وقد وجد في السورة ما يحمل هذه الدلالة خاصة في إضافة كلمة ﴿رب﴾ إلى الضمائر المختلفة وقد جاءت هذه الكلمة في أحد عشر موضعاً.

منها: الإضافة إلى ضمير المخاطب في الخطاب الموجه إلى الرسول ﷺ وفيه تشريف له ﷺ وتسليّة له وإيناسٌ.

كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُمُ بِالنَّهَارِ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣)

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، للدكتور الشحات محمد أبوستيت (ط ١) (القاهرة، مطبعة الأمانة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م) ص (٥١٩).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١)، فالخطاب في «ربك» للرسول ﷺ وفيه ما تقدم من تعزيز تسليته عند قوله آنفاً: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من العدول إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير المخاطب^(٢) فكان الخطاب في «ربك» للرسول ﷺ للتشريف والتكليف والتسلية، وفيه بيان للصلة العظيمة بين الرسول وربه جلّ وعلا.

ولقد وردت إضافتها في بقية المواضع إلى غير ما سبق. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَبْتَكُمْ فَاصْبِرُوا لِمَنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) وفي هذه الإضافة توبيخ لهم حيث إنَّ ظنهم السيء لم يكن إلاّ بربهم خالقهم ومربيهم وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِن الْاِنْسِ﴾ وفي هذه الإضافة دلالة الإحساس بالقرب من المدعو يدل على ذلك حذف حرف النداء، وفيه دلالة على شدة القرب من الله تعالى. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٤) فيه معنى حب الانتماء إلى هذا الدين وفيه افتخار بقولهم ربنا الله. وفيه صدى بالتوحيد ففي هذا القول تصريح بالاعتقاد وتشرف به، أي لا رب لنا إلاّ الله.

فمن التعريف بالإضافة في قولهم: ﴿ربنا﴾ أفادت تلك المعاني مع اكتسابها لمعنى التشريف، وفي قول الإنسان الضال: ﴿وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾^(٥) في هذه الإضافة دلالة على ظنه الشديد بقربه العظيم من مولاه وهو على غير ذلك، ويأتي

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) التحرير والتنوير (١١/٣١٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

التعريف بالإضافة لبيان عظمة المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾^(١) ففي قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾ اكتسبت الآيات بالإضافة إلى نون العظمة التعظيم ودلت على شناعة من يلحد فيها، ومن شواهد التعريف بالإضافة في السورة، قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾^(٢) ففي هذه الإضافة تهويل لشدة الصاعقة.

يقول الطاهر بن عاشور «وإضافة «صاعقة» إلى «العذاب» للدلالة على أنها صاعقة تعرف بطريق الإضافة إذ لا يعرف بها إلا ما تضاف إليه، أي صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق، فهي صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود فإن أصل معنى الإضافة أنها بتقدير لام الاختصاص فتعريف المضاف لا طريق له إلا بيان اختصاصه بالمضاف إليه»^(٣).

ويكتسب من معنى التعريف بالإضافة الذم وبيان الخسارة الفادحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٤) فإضافة الأعداء إلى لفظ الجلالة فيه ذم لهم. يقول أبو السعود: «والتعبير بأنهم أعداء الله تعالى لدمهم والإيدان بعلة ما يحق بهم من ألوان العذاب»^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٣) التحرير والتنوير (١١/٢٦٣).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٥) تفسير أبي السعود (٨/٩).

المطلب الخامس التنكير

الأصل في دلالة التنكير الإبهام، ولكنه قد يخرج عن الإبهام لأغراض بلاغية متعددة فقد يأتي لإفادة الأفراد، أو التعظيم، أو التحقير، أو التكثير، أو التقليل وغيرها مما يوحي به السياق.

أولاً: دلالة التنكير على التعظيم في السورة الكريمة:

أول ما يلقانا من ذلك قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

يقول الطاهر بن عاشور، افتتح الكلام باسم نكرة لما في التنكير من التعظيم والوجه أن يكون ﴿تنزيل﴾ مبتدأ سوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم فكانت بذلك كالموصوفة، وقوله: ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ خبر عنه^(٢) فتنكير ﴿تَنْزِيلٌ﴾ و﴿كَتَبْتُ﴾ لإفادة التعظيم، ومثله قوله تعالى في موضع آخر من السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣) فتنكير ﴿تَنْزِيلٌ﴾، و﴿كتاب﴾ هنا لإفادة التعظيم وأنه ما كان ينبغي بأن يكون عرضة لأن يكفر به، ومن مجيء التنكير على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ﴾^(٤) وتعظيم الحجاب هنا مستفاد من تنكيره^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٣-١.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢٩/١١).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٥) حاشية زاده (٢٥٠/٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١) فتنكير ﴿أَجْرٌ﴾ هنا لإفادة التعظيم والتفخيم والإشارة إلى رفعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وفيه تنبيه على أنهم يستحقون هذا الفضل العظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿نَزَّلًا مِّنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ﴾ (٢) والنزل ما يعد للنازل من الزاد ليأكله حين نزوله (٣) وتسميته نزلاً من باب التكريم تشبيهاً بما هو متبع في العادة من تكريم الضيف، وهو مشتق من النزول لأنه كرامة النزول والمراد من ذلك الجنة، وتنوينه هنا للتعظيم يؤكد وصفه بقوله تعالى: ﴿عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ﴾ (٢) وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤) التنكير في الآية للتعظيم في ﴿قَوْلًا﴾ و ﴿صَالِحًا﴾، والمعنى لا أحد أحسن قولاً ممن دعى إلى الله فيفيد تعظيم كل من شملهم ذلك.

وتعظيم ما اتصفوا به وفيه تعريض بالمشركين، ويأتي المسند منوناً للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (٥) تنكير المسند ﴿هدى﴾ والمعطوف عليه ﴿شفاء﴾ لغرض التعظيم والتفخيم، وأن المسند بلغ من خطورة الشأن حدًا لا يدرك كنهه ﴿فهو هدى﴾ فتنكير المسند للدلالة على كمال هدايته، وأنها بلغت غاية فوق متناول الإدراك، وقد أكد ذلك التعظيم والتفخيم من شأن الهداية، بجعل ﴿هدى﴾ مصدرًا مخبرًا به عن ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المسند إليه إذ يفيد أن الكتاب هو الهداية نفسها مبالغة في كماله فهو

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٢.

(٣) ينظر: المقاييس لابن فارس (٤١٧/٥).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

البالغ في الكمال حده .

ثانياً: دلالة التنكير على التهويل والتفخيم:

وتبدو ظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(١) فتنكير ﴿ويل﴾ هنا للتهويل والتفخيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٢) ففي تنكير الصاعقة تهويل وتفخيم لأمرها حيث كانت صاعقة مهلكة مبيدة خارقة للعادة .

ومن ذلك تنكير الريح العاتية التي أصابت قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٣) فتنكير ﴿ريحا﴾ و﴿صرصراً﴾ و﴿أيام﴾ كل ذلك يفيد التهويل والتفخيم في شأن ما أصاب قوم ثمود من عذاب فقد أصابتهم الريح العقيم العاتية التي تجتاح كل شيء تواجهه، فهي ريح عظيمة و﴿صرصراً﴾ أي شديدة البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجمد البدن ببردها فلذا يلحظ جلياً ما للتنكير من دور بارز في إبراز هذه المعاني .

ومن ذلك تنكير العذاب في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) فتنكير العذاب هنا فيه تهويل شديد لأمره حيث إنه سيكون عذاباً متناهيًا لا يدرك كنهه .

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥) ففي تنكير العقاب وأليم تعظيم وتهويل لأمره، والعقاب والعقوبة والمعاقبة: المجازاة والعقاب يختص بالعذاب^(٦) وأليم بمعنى مؤلم

(١) سورة فصلت، الآية: ٦ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٣ .

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦ .

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٧ .

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٣ .

(٦) انظر: البصائر (٤/٨٢) .

أي موجه، فهو شديد الإيلام، والتنكير هنا قد أدى هذه المعاني المستفادة منه.

ثالثاً: دلالة التنكير على التحقير:

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فالتنكير في كلمة ﴿ أَنْدَاداً ﴾ يفيد التحقير.

رابعاً: دلالة التنكير على العموم:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) فتنكير ﴿ عداوة ﴾ يدل على العموم أي كافة أنواع العداوة صغيرها وكبيرها، وسواء وقعت العداوة بسببهم أو بسبب غيرهم، فتنكير العداوة واستعمال الموصول يؤكد هذا التعميم (٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا نَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا نَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ (٤)، فالتنكير في كلمة ﴿ ثمرات ﴾ يفيد العموم والنكرة إذا وقعت في سياق النفي دللت على العموم، والعموم هنا يشير إلى أنه ما من ثمرة في أي شعب من شعاب الأرض أو مجهل من مجاهل الأرض، إلا وقد أحاط علم الله تعالى بها، وهذا دال على غاية الحكمة والإتقان وعموم النظام وبسط الملك وتمام السلطان.

خامساً: دلالة التنكير على التكثير:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٥)، فتنكير كلمة ﴿ دعاء ﴾ في الآية الكريمة يدل على الكثرة أي دعاء كثير

(١) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٣) تفسير سورة فصلت، (٢١٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥١.

يؤكد ذلك وصفه بكلمة ﴿عريض﴾ وهو المتسع في المساحة ضد الطول.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فتنكير كلمة ﴿أمم﴾ يدل على الكثرة: أي أمم كثيرة قد خلت.

سادساً: دلالة التنكير على التقليل:

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾^(١) فالتنكير في كلمة ﴿رحمة﴾ للتقليل أي قليلة ضئيلة وهذا التقليل مفاد بالبناء للمرّة وبأصل الكلمة وبالتنكير.

والخطيب يرى أنّ التقليل مستفاد من بناء الفعل للمرّة^(٢) أي قوله: ﴿رحمة﴾ والحقيقة أنّ ذلك لا يمنع بأن يكون التنكير أيضاً مفيداً للتقليل وبذلك يكون هذا التقليل مفاداً بالبناء للمرّة وبأصل الكلمة وبالتنكير^(٣).

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) انظر: الإيضاح للخطيب القزويني (٥٠).

(٣) انظر: خصائص التراكيب (٢١٧).

المطلب السادس

التقديم

وهو من أهم وأدق المباحث البلاغية، لما فيه من أسرار وأساليب تظهر المواهب والقدرات وفيه دلالة على التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام ووضعه الوضع الذي يقتضيه المعنى.

يقول عنه الإمام عبد القاهر: «هو باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان»^(١).

ويقول الزركشي: «هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»^(٢).

والتقديم قسمان:

تقديم له رتبة معلومة في بناء الجملة كتقديم الخبر على المبتدأ والمعمول على العامل. وتقديم ما ليس برتبة كتقديم كلمة على كلمة.

وفي سورة فصلت أمثلة لكل من القسمين معاً نعرض بعضها فيما يأتي.

(١) دلائل الإعجاز (١٠٦).

(٢) البرهان (٣/٢٣٣).

تقديم المسند:

تقديم الخبر على المبتدأ:

وأول موضع يلقانا من ذلك في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(١) حيث قدم الجار والمجرور ﴿لهم﴾ وهو خبر لـ ﴿أجر﴾ وهو مبتدأ وجاء هذا التقديم هنا وقد أفاد التخصيص أي لهم لا لغيرهم وللاهتمام. ويقول الطاهر بن عاشور هنا: «تقديم ﴿لهم﴾ للاهتمام بهم»^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّآ عَمِلُونَ﴾^(٣) فقد قدم فيه الخبر في آذاننا ومن بيننا وبينك على المبتدأ ﴿وقر﴾ و﴿حجاب﴾ والتقديم في الآية للاهتمام وفيه تأكيد للمعنى المراد.

ومن التقديم للمسند في السورة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٤) حيث قدم المسند ﴿لكم﴾ على المسند إليه، وفي ذلك تشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن في نفوسهم تمام التمكن.

ومن التقديم للخبر قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾^(٥) فقد تقدم الخبر ﴿لهم﴾ على المبتدأ ﴿دار الخلد﴾ وهذا التقديم يفهم منه إن كان التوعد في الآية لكل أعداء الله، وهم كل كافر فالتقديم يفيد الاختصاص الذي يفيد أن العصاة من المؤمنين غير مخلدين في النار، ولكن الذي يفهم من السياق غير ذلك وهو

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٤٠).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٨.

أَنَّ المقصود بأعداء الله هم المشركون فلا يكون هنا اختصاص، لأنَّ مشركي قريش غير مختصين بالخلد في النار، دون غيرهم من الكفرة والملاحدة، فيكون التقديم هنا لمجرد التوكيد والتهويل للعذاب المنتظر.

تقديم المسند إليه :

وأول ما يواجهنا من ذلك في السورة قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١) فالتقديم في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٢) بيانه كالتالي:

أولاً: ذكر المسند إليه مقدمًا هنا، وهو ﴿هم﴾.

ثانيًا: مجيء الخبر فعلاً مضارعاً، ليدل على التجدد والحدوث.
ثالثاً: مجيء الخبر جملة فعلية مسبوقه بالنفي والمسند إليه، إن كان معرفة، والمسند فعلاً منفيًا فإنه يدل على تقوية الحكم وتأكيده، وقد يفيد التخصيص والتقديم في الآية يفيد التوكيد وتقوية الحكم، وأن هذه صفتهم دائماً.

ومن أمثلة تقديم المسند إليه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(٢) فتقديم المسند إليه ﴿هم﴾ على المسند المنفي يفيد أنهم خصوصاً لا ينصرون في هذا اليوم وأنهم لا تنالهم الرحمة في الوقت الذي تتجلى فيه وتغمر قومًا آخرين ممن اتقوا هذا اليوم، فعدم النصر في هذا اليوم مقصور عليهم بخلاف العصاة من الذين آمنوا فقد ينصرهم الله برحمته^(٣).

والحقيقة تفيد في مثل هذه الأساليب أن السياق هو الذي يحدّد المعنى البلاغي من التقديم سواء كان للاختصاص أو التوكيد.

(١) سورة فصلت، الآية: ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٣) انظر: دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى (١٧٨، ١٧٩).

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبَهِتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠) ﴿١﴾ نجد أن قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩) قد أفاد الاختصاص إذ النصر في هذا اليوم منفي عن الكفرة مثبت لغيرهم وهم المؤمنون، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون من أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد النفي يفيد الاختصاص، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠) فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم، ولا يفيد الاختصاص، لأنه لا أحد، ينظر حين تأتية الساعة، وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون، ولذا ينبغي أن تنبي الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق (٢).

ومن إفادة التقديم للتوكيد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) ﴿٣﴾.

والوزع كما مرَّ سابقًا حبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا وقد تقدم المسند إليه في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) تقديمه هنا لا يفيد الإلتوكيد لهذا الخبر الغريب، لأنَّ الحشر على هذه الهيئة من الإيزاع والتداخل أمر غريب تحتاج النفوس إلى ما يؤنسها به ويقرره عندها. يقول الإمام عبدالقاهر في مثل هذه الآية: «إنَّه لا يخفى عن من له ذوق أنَّه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقليل فيوزعون بدون ﴿هم﴾ لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها (٤).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٩-٤٠.

(٢) خصائص التراكيب، د/ بسيوني (١٧٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز (١٣٧).

ونبو اللفظ عن المعنى لا يكون إلا عند خلو التركيب من التوكيد الذي اقتضاه المقام والذي جاء ملائمًا لحال النفس المتلقية لمثله، والتي تحتاج إلى ما يؤنسها بالشيء الغريب.

ومن صور التقديم في السورة تقديم المفعول على الفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) (١) والمعنى إن كنتم تخلصونه بالعبادة وفي التقديم هنا مراعاة لمشكلة الفواصل في السورة (٢).

والتقديم هنا يفيد الاختصاص، ومن صور التقديم تقديم الجار والمجرور على الفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١) (٣) فتقديم الجار والمجرور ﴿إليه﴾ دلّ على أنّ المرجع إلى الله وحده على حين لو وردت الآية من غير تقديم وقيل: ﴿ترجعون إليه﴾ لاحتمل إيقاع المرجع إلى غير الله، وهذا محال، فالتقديم هنا يفيد الاختصاص أي إلى الله لا إلى غيره ترجعون.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (٤) فالتقديم هنا للجار والمجرور ﴿إليه﴾ على متعلقه يدل على أنّ علم الساعة مرجعه إلى الله وحده على حين لو وردت الآية من غير تقديم وقيل: يرد علم الساعة إليه لا احتمال إيقاع مرجع علم الساعة إلى غير الله، وهذا محال فالتقديم هنا قد أفاد التخصيص، فعلم الساعة يختص بالله وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٧) (٥) فالتقديم هنا. يقول فيه الإمام الألويسي: «وبالآخرة» متعلق بكافرون،

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٢) ينظر: البرهان (٣/٢٣٤).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٧.

والتقديم للاهتمام ورعاية الفاصلة»^(١).

ومن أمثلة التقديم في السورة قوله تعالى عن الإنسان: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾^(٢) فتقديم ﴿لي﴾ و ﴿عنده﴾ على اسم «إن» هو لتقوى ترتب الجواب على الشرط^(٣).
ثانياً: تقديم ما ليس رتبة:

وهذا القسم من التقديم اهتم به المفسرون ومن كتب في علوم القرآن وعلى طريقهم نبين النماذج الآتية من السورة الكريمة.
وأول ما يواجهنا من ذلك تقديم البشارة على النذارة في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥) حيث قدم ﴿بشيراً﴾ على ﴿نذيراً﴾ وفي ذلك مناسبة عظيمة لقوله تعالى في الآية الثانية من مقدمة السورة: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٦) فهو رحمة لهم لأنه من عند الرحمن الرحيم بعباده والعالم بما يصلح لهم فناسب تقديم البشارة على النذارة هنا، والله أعلم.

وجاء التقديم في السورة للأسبق ويتضح من خلال الآيات التالية:

أولها: قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلْنَا فُجُورًا لَّيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ فِي مَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ﴾^(٧) فقد قدم ﴿عاداً﴾ لأنهم أسبق من قوم ثمود.
ومن ذلك تقديم الجن على الإنس، في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا

(١) روح المعاني (٩٨/٢٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٢/١٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢.

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٣.

﴿٢٥﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٢) فتقديم الجن على الإنس في السورة، لأن خلقهم أقدم، فيكون من قبيل التقديم بالزمان، ولهذا لما أحر في آية الحجر صرح بالقبلية بذكر الإنسان ثم قال: ﴿وَلَبَّانَ خَلَقْنَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣) ومن الأقوال التي قيلت في ذلك أنه من باب تقديم الأعجب، لأن خلقها أغرب، أو لأنهم أقوى أجساماً، وأعظم أقداماً ولهذا قدموا^(٤) في: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾^(٦) فقدم في الآية الكريمة الليل على النهار لكونه سابقاً في الزمن، وذلك لأنه قبل خلق الأجرام ولذلك اختارت العرب التأريخ بالليالي دون الأيام، وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا في التاريخ^(٧).

وفي الآية تقديم آخر، وهو تقديم الشمس على القمر لكونها قبله وأعظم منه في الوجود والحكماء يقولون: «أن نور القمر مستمد من نور الشمس»^(٨).

ومن وجوه التقديم في السورة الكريمة تقديم السمع على البصر. كما في قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٤) ينظر: البرهان للزركشي (٢٥٨/٣).

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٧) البرهان للزركشي (٢٤١/٣).

(٨) المصدر السابق (٢٥٩/٣).

وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).
ولقد أشار إلى مثل هذا التقديم الزركشي والسيوطي وجعلاه من باب التشریف.

يقول الزركشي: «ومنها شرف الإدراك، كتقديم السمع على البصير، والسميع على البصير، لأن السمع أشرف على أرجح القولين عند جماعة»^(٤).

ومن صور التقديم في السورة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٥) ﴿٣١﴾ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾^(٥) تقديم المغفرة على الرحمة.

يذكر الزركشي سر ذلك فيقول: «إِنَّ المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾^(٦) لأنها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم، وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾^(٧) فالرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً والعموم قبل الخصوص بالرتبة»^(٧).

ومن ذلك تقديم الرحمة على العذاب فقد قيل إنه حيث ذكر

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٤) البرهان للزركشي (٣/٢٥٤)، الإتيان للسيوطي (٣/٣٥، ٣٦).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣١-٣٢.

(٦) سورة سبأ، الآية: ٢.

(٧) البرهان للزركشي (٣/٢٤٩).

الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾^(١) وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾^(٣) وقد خرج عن هذه القاعة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً^(٤).

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣ .

(٣) سورة غافر، الآية: ٣ .

(٤) انظر: التفسير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي ص(٦٠).

المطلب السابع التقييد بالشرط

عَنِ البلاغيون بتقييد المسند بـ«إِنَّ وَإِذَا» لما للتقييد بهما من لطائف ومزايا بلاغية، أو لكثرة المباحث المهمة لهما في علم النحو.

و«إِنْ» للشرط في الاستقبال أي تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في الاستقبال ومثلها «إِذَا» والفرق بينهما هو أَنَّ «إِنْ» تستعمل في الشرط غير المقطوع بحصوله، و«إِذَا» تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه.

وهذا الفرق الكائن في أصل الدلالة، هو الذي تتفرع عنه الدلالات البلاغية في الأداتين^(١).

وهذا ما سيتضح من خلال تحليل الشواهد في السورة الكريمة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٢) فالشرط في الآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ قد أخرج بـ«إِنْ» مخرج المشكوك فيه وإن كان اعراضهم واقعاً منهم وفي هذا الأسلوب إشارة بأنه ينبغي أن لا يكون هذا الإعراض، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(٣)، استخدمت هنا «إِنْ» على أصلها، حيث «إِنْ» صبرهم على النار غير متوقع وإن طلبوا العتبي وهو عمل ما يرضي الله تعالى فقد زال وقتها.

(١) انظر: خصائص التراكيب ص (١٢٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

وأما قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوذُ قَنُوطًا﴾ (٤٩) (١).

استخدام «إِنْ» هنا أفاد أنّ إصابة الشر له أمر غير مقطوع به فذكر «إِنْ» مع مس الشر مناسب، لأنّ مس الشر نادر بالنسبة لإصابة الخير له وعرف الشر تعريف الجنس ليشمل كل ما هو من جنس الشر.

يقول الطاهر بن عاشور: «اقتران الشر بـ«إِنْ» التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه فإنّ إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم» (٢).

وفي قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿وَلَيْنَ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ تُرْجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ (٣) نجد استخدام «إِنْ» هنا ليس المقصود منه إلا بيان ما يترتب على حالة الإنسان حينما يذوق الرحمة دون النظر إلى الوقوع أو عدمه أو الرجحان أو عدمه، وأمّا قوله: ﴿وَلَيْنَ تُرْجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ فإنه استخدم «إِنْ» الشرطية هنا على معناه الذي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك ووقوعه، لأنّه جعل رجوعه إلى الله أمرًا مفروضًا مشكوكًا فيه، «وأما دخول اللام الموطئة للقسم عليه فمورد التحقيق بالقسم هو حصول الجواب لو حصل الشرط» (٤).

وأما «إذا» فنجد من أمثلتها في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١١/١٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٤) التحرير والتنوير (١١/١٣).

عَرِيضٍ ﴿٥١﴾^(١) جاء في الآية بلفظ «إذا» في جانب الإنعام، لأنه لما كان مجيء النعمة أمرًا مقطوعًا به جيء بلفظ «إذا» ووقوع الإنعام على الإنسان أكثر من وقوع الضراء لذلك استخدم مع الضر «إن» لقلة وقوع الضر.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءِ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ فإنه جاء بلفظ «إذا» مع مس الشر، والمراد مس الإنسان الذي أصابته النعمة فأعرض عن شكر الله وتكبر والذي تقتضيه البلاغة أن يكون الضمير للمعرض المتكبر لا لمطلق الإنسان، ومثل هذا المتكبر يحق أن يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعًا به^(٢).

وأما قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِءَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾^(٣).

استخدمت في الآية الكريمة «إن» الشرطية التي من شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه، وكون القرآن من عند الله أمرًا مؤكدًا لا مجال للشك فيه، أو الطعن، ولكن استخدام «إن» في هذا الموضع والإتيان بها فيه إرخاء للعنان مع المخاطبين لا استنزال طائر إنكارهم حتى يقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن.

ويشبه أن يكون المقصود من هذا الخطاب والشكك أولاً دهماء المشركين الذين لم ينظروا في دلالة القرآن أو لم يطلبوا النظر ولم يبلغوا به حد الاستدلال، وأما أهل العقول منهم فيعلمون أنه من عند الله، ولكن غلب عليهم حب الرئاسة، والقرآن قد ألقى بينهم هذا التشكك تغليبًا ومراعاة لاختلاف درجات المعاندين ومجاراة لهم ادعائهم أنهم لم يهتدوا نظرًا لقولهم ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٢) ينظر: الإيضاح للخطيب ص (٨٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

إِلَيْهِ»^(١) وفي هذا الأسلوب استدراج للخصم لينظر ويتأمل عله أن ينثني ويعقل وهكذا نجد استخدام كل من «إن» و«إذا» في السورة الكريمة وما حملت من دلالات بلاغية وبيانية ويبقى من الأدوات «لو» وهو حرف امتناع لامتناع، ومن شأنها أن تدخل على الماضي وتفيد عدم تحقق جملتها: فإذا قيل: لو اجتهدت، نجحت، فإنها تفيد عدم النجاح، لعدم الاجتهاد، وهذا هو الأصل في «لو» وقد تدخل على المضارع ودخولها عليه لغرض بياني ولكنها جاءت في السورة الكريمة على الأصل، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ^(٢)﴾ «فلو» هنا حرف شرط غير جازم وقد دخلت على الماضي فجاءت على الأصل وهذا خلاصة ما في السورة الكريمة.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

المطلب الثامن

الالتفات

وهو مأخوذ من «التفت» تقول: التفت الإنسان إذا تحول بعنقه من اليمين إلى الشمال أو العكس، وهو في المشهور من اصطلاح البلاغيين «التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة التكلم أو الخطاب أو الغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر من هذه الطرق»^(١).

يقول الخطيب القزويني: «واعلم أنّ الالتفات من محاسن الكلام ووجه حسنه على ما ذكره الزمخشري هو أنّ الكلام إذا نقل من أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر أيقاظاً للإصغاء من إجرائه على أسلوب واحد»^(٢).

فالالتفات بجميع أنواعه وبكل صورة يكسو الكلام طلاوة وظرفاً ويحدث في النفس عند سماعه متعة ولذة، لأنّ في نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب تجديدًا، وللتجديد لذة تطرب لها النفس، وينشط لها السمع.

ومن صور الالتفات في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) فقد التفت من الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٤) فقد خاطبهم أولاً بقوله: ﴿أئنكم﴾ بيد أنّهم لم يأنهوا لخطابه ولم يستوعبوا نصحه فالتفت من الخطاب إلى الغيبة، لأنّهم

(١) الإيضاح بتعليق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي، المسمى بغية الإيضاح (١/١٥٢).

(٢) المصدر السابق (١/١٥٦، ١٥٧).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣.

فعلوا الإعراض فليس له إلا أن يعرض عن خطابهم ليصح التلاوم، ويناسب اللفظ المعنى، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها^(١).
ولقد وقع التفتات آخر من الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى:
﴿وَزَيْنًا لِّلسَّمَآءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢)، حيث كان الكلام قبلها على طريق الغيبة في قصة خلق السموات والأرض وفي هذا الالتفات تجديد لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة في الحديث عن خلق السموات والأرض، ابتداءً من قوله:
﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، والالتفات في قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا لِّلسَّمَآءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ له مغزى مهم وعظيم حيث يظهر فيه أن السماء الدنيا وما فيها من كواكب من أظهر وأوضح الآيات التي تشير إلى القدرة الخالقة والتي يحث القرآن على النظر إليها كثيرًا فالالتفات إذن كأنه لفت إلى الموضوع الذي تؤخذ منه العبرة، وتدنو به الحقيقة الدالة من القلوب المعبرة^(٤).

ويعود الالتفات في السورة مرّة أخرى من التكلم إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ فَاصْبِحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥) فقد التفت من التكلم في هذه الآية إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(٦).

يقول أبو السعود هنا: «الالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء

(١) إعراب القرآن الكريم للدرويش (٥٤٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٤) التحرير والتنوير (٢٥١/١١)، خصائص التراكيب ص(٢٥٦).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

حالهم أن يعرض عنهم، ويحكي سوء حالهم لغيرهم أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غاية دركات النار»^(١).
فما أعظمه من أسلوب يشعر بالفتات الخطاب عنهم ليدل على أنهم في عداد المعدومين المحرومين فلم يصلح لهم إلا أسلوب الغيبة الذي يدل على أنهم سيئسون في نار جهنم خالدين فيها لا يلتفت إليهم أبداً إلا ما شاء ربك، وهكذا يؤدي النظم البياني الأعلى هذا النمط الرفيع من الدلالة على المعنى.

ومن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢)، وهو الفتات من الغيبة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وفي هذا الالتفات تشديد في التهديد المستعمل فيه فعل الأمر: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ فهو متجه إليهم ملتفتاً الفتاة الغاضب الموعد، وهذا الالتفات يعطي هذا المقطع مزيداً من الإهتمام، لأن الالتفات إيقاظ بمخالفة النسق المؤلف وتجديد وتطرية وتنشيط ثم ترى هذا الالتفات بكل عطائه يتكرر في قوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد قال قبلاً: ﴿آيَاتِنَا﴾ وعلينا وفيه انصراف سريع عنهم بعد كفحهم بهذا التهديد^(٣).

ويلحظ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٤).

(١) تفسير أبو السعود (١١/٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) انظر: دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ص(٢٤٩)، التفسير البلاغي للاستفهام د/ عبدالعظيم المطعني (١٦/٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

فقد كان الحديث بأسلوب الغيبة قبل الالتفات إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ليحدث إيقاظًا ولفتًا وتنبيهًا إلى ضرورة الدفع بالحسنة ومكانتها.

وآخر صور الالتفات في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُجُومٌ كَقَرْنِمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾^(١) ففي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ والأصل: من أضلّ منكم، وسرّ العدول إلى الغيبة بيان تعليل الأضلية^(٢).

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام (٤/٢٤).

المطلب التاسع الإيجاز

والإيجاز عند البلاغيين نوعان:

أ- إيجاز قَصْر، وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وقيل: هو تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف:

ب - إيجاز حذف، وهو القسم الثاني للإيجاز وقد أشاد البلاغيون كثيرًا بفن الحذف فوضعوا له القواعد والشروط وبيّنوا مزاياه.

يقول عنه الإمام عبدالقاهر: «هو بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبَيّن»^(١).

ويمكن تصنيف الحذف في السورة على ثلاثة أنواع منها:

- ١- حذف الحرف.
- ٢- حذف بعض الجملة.
- ٣- حذف جملة فأكثر، وكل ذلك داخل في الإيجاز بالحذف.

أولاً: حذف الحرف:

وحذف الحرف على نوعين:

أولهما: حذف الحرف الذي هو جزء من الكلمة، وغالبًا ما يكون آخر الكلمة، وهذا الحذف نال عناية النحاة^(٢).

ومثاله من السورة قوله تعالى: ﴿أَوْلَم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣) فقد حذف حرف العلة الياء من آخر كلمة

(١) دلائل الإعجاز ص (١٤٦).

(٢) سورة هود، دراسة لخصائص نظمها وأساره البلاغية، إعداد دخيل الله محمد الصحفي، ص (١٢٨).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

﴿يكف﴾.

ثانيهما: حذف حرف من «حروف المعاني» مثل «يا» في النداء، ولا النافية واو القسم، وهذا ما أولاه البلاغيون عنايتهم.

ومن الحذف في السورة الكريمة للحرف ما يتمثل في حذف حرف النداء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجَعَلَهُمَا تَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾^(١) فقد جاء حذف أداة النداء الياء مع «ربنا» في هذه الآية الكريمة ليصور لنا قرب المنادى «ربنا» حيث إنَّ معناه المربي والسيد والمالك وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط.

يقول الزركشي: «وكثر ذلك في نداء الرب سبحانه، وحكمة ذلك دلالة على التعظيم والتنزيه، لأنَّ النداء يتشرب معنى الأمر، لأنَّك إذا قلت: يا زيد، فمعناه أدعوك يا زيد، فحذفت «يا» من نداء الرب، ليزول معنى الأمر ويتمخض التعظيم والإجلال»^(٢).

وقد اهتدى الدكتور أحمد أحمد بدوي إلى تعليل مقبول لسرِّ حذف أداة النداء «الياء» مع «رب» إذ يرى أنَّ سرَّ الحذف فيه للمبالغة في تصوير قرب المنادى «رب» حيث إنَّ معناه: المربي والسيد، وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط^(٣)، ويضيف الدكتور عبدالعظيم المطعني منهم إلى هذا القول: قوله: «إنَّ هذه الكلمة «رب» أكثر استعمالاً من غيرها في الدعاء فروعياً فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع في الألسنة

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٢) البرهان للزركشي (٢١٣/٣).

(٣) ينظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي ص (١٦٨).

وأسهل في مجاري الحديث»^(١).

وقد جاء في السورة الكريمة حذف حروف العطف في بعض المواطن وهذا الحذف لهدف وغرض بياني واضح.

ومثال حذف الحرف ما يلحظ في قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۙ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ فُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۙ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۙ﴾^(٢) فتأمل هذه الآيات المتوالية من صدر السورة يلحظ فيها روعة التعبير القرآني، والدقة البالغة، والأسباب اللطيفة في إسقاط حروف العطف. والإستغناء عنها في هذه الأساليب.

فقد سقط حرف العطف، ففصلت جملة: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ﴾ عن ﴿حَمَّ ۙ﴾ وجملة ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ عن ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ﴾ لأن هذه الجمل متلازمة يؤكد بعضها بعضاً ويقرره لذلك ترك العاطف، لأن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد والشيء لا يعطف على نفسه.

وهذا ما سيتضح تفصيله بتوفيق الله تعالى في «باب الفصل والوصل» وقد يأتي حذف الحرف الأخير من آخر الأفعال التي ترد فاصلة ومن أمثله قوله تعالى: ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ فُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۙ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۙ﴾^(٣) فقد حذف المفعول به في ﴿يعلمون﴾ و﴿يسمعون﴾ ومقتضى الحذف البلاغي هو الإيجاز الذي يستثمر أقل ما يمكن من الألفاظ في الدلالة على أكثر ما يمكن من المعاني، ولا يقتصر هذا الحذف على مجرد رعاية الفاصلة بل يتضمن الإهتمام بالدلالة على أبلغ المعاني المقصودة من

(١) خصائص التفسير القرآني وسماعة البلاغية عبدالعظيم إبراهيم المطعني (٨/٢).

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٤-١.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ٤-٣.

النظم الحكيم.

حذف بعض الجملة:

وقد جاء حذف جزء الجملة في المسند إليه وفي غيره.

أولاً: حذف المسند إليه.

ومنه: أ- حذف الفاعل:

ويحذف الفاعل عند بناء الفعل للمجهول إذ النائب ليس هو المسند إليه في الحقيقة وقد ورد ذلك في الآيات الكريمة التالية.
في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(١) نجد في هذه الآية الكريمة حذف الفاعل، وهذه الآية تنقل لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فنحن نرى أنّ المسند إليه قد حذف، وهم ﴿الملائكة﴾، لأنّ الذي يريد القرآن هو توجيه الناس إلى هذه الأحداث الجسام العظام، دون أن يشغلوا بمن فعل هذه الأفعال، فأيّما كان فالحاشر والوازع لهم يوم القيامة هم الملائكة المأمورون بذلك من الله عزّ وجل، وهذا لم نجده قد ذكر في الآية، إذ ليس هناك كبير هدف يتحقق من ذكره.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٢) فقد حذف الفاعل هنا للإيجاز ولتوجيه المخاطب لنفس الحدث.

ويحذف الفاعل للعلم به كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٍ ﴾^(٣) فقد حذف الفاعل هنا للعلم به، وهم اليهود.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

ب - حذف المبتدأ:

يحذف المبتدأ اختصاراً، ولأنَّ المقصود هو التنبيه الذي يحمله الخبر^(١)، وأول ما يلقانا في السورة الكريمة منه .

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾^(٢) فقد حذف المبتدأ هنا والتقدير «هذا تنزيل» وقد أفاد الحذف ظهور أمر القرآن واشتهاره حتى صار ذكره وحذفه سواء^(٣) .

ونقول هنا إنَّ ما وصف به الكتاب في هذه الآيات الكريمة من أوصاف عظيمة يغني عن ذكر المسند إليه .

وأما الموضع الثاني في السورة الكريمة من مواضع الحذف ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۝٤﴾^(٤) والتقدير أقرآن أعجمي ورسول عربي فحذف المبتدأ لظهور أمرهما واشتهارهما حتى لم يكن ثمة ما يدعو لذكرهما^(٥) .

ومن الحذف للمبتدأ في السورة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۝٦﴾^(٦) فقد وقع المسند إليه «المبتدأ» بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط أي «فعمله لنفسه وإساءته عليها» وسر الحذف هنا هو الاحتراز من العبث وذكر المبتدأ في الجملة ليس عبثاً في الحقيقة، لأنَّه ركن للإسناد، ولكن المراد هنا «بالاحتراز من العبث» أنَّ ما قامت عليه القرينة وظهر عندالمخاطب يُعد ذكره عبثاً حيث إنَّه يقلل من قيمة العبارة بلاغياً، ومن مواضع الحذف للمبتدأ في السورة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾

(١) خصائص التعبير القرآني (٢/٤٧) .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢ .

(٣) الحذف البلاغي في القرآن الكريم ص (٤٧) .

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٤ .

(٥) المرجع السابق ص (٤٧) .

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٦ .

في السورة قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾^(١) أي فهو يئوس، ونجد لبعض المحدثين كلامًا جيدًا في تملئ أسرار الحذف للمبتدأ يذكر الدكتور أحمد بدوي: «أنَّ سرَّ الحذف فيه خشية أن يبعث في النفس السامة والملك لشدة وضوحه، ولقرب الحديث عنه»^(٢).
ونجد الدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعنى يذكر في ذلك موضعين.

أولهما: أنه يشير بالاتصال المباشر.

ثانيهما: ذكر المبتدأ يؤدي في بعض المواضع إلى الثقل اللفظي.
ويقول وأرى في الوقت نفسه أن هذين الاعتبارين أولى مما ذهب إليه الدكتور أحمد بدوي^(٣).
ثانيًا: حذف المسند.

أ- حذف الخبر، يحذف الخبر عند ظهوره وسهولة تعيينه، ومثاله من السورة قوله تعالى: ﴿أَفَن يُلَقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٤) وتقدير الحذف أم من يأتي آمنًا «خير» وحذف لدلالة «خير» الأولى عليه وفي الآية ما يلي:

أولاً: التكرير في المساواة بين من يلقي في النار ومن يأتي آمنًا.

ثانيًا: التصدير بحرف الإستفهام الإنكاري.

ثالثًا: المحذوف ظاهر تعيينه لدلالة الكلام عليه، والحذف مما

يمكن المحذوف من النفس بعد البحث عنه والتوصل إليه.

ومن مواضع الحذف للخبر في السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْبٌ عَزِيزٌ﴾^(٥) الخبر في الآية محذوف دل عليه السياق، «والأحسن أن يكون تقديره بما تدل عليه جملة

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

(٢) من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد بدوي ص(١٢٠).

(٣) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماتة البلاغية (٣٦/٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤١.

الحال من جلاله الذكر ونفاسته فيكون التقدير: خسروا الدنيا والآخرة، أو سفهو أنفسهم أو نحو ذلك مما تذهب إليه نفس السامع البليغ، ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدة جمل^(١).

فالخبر يحذف للاختصار للدلالة ما قبله عليه ولتوفير العناية بالمبتدأ.

ب - حذف الفعل:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(٢) فيوم مفعول به لفعل محذوف تقديره واذكر يوم. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَئِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾^(٣) والتقدير: واذكر يوم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ بتقدير واذكر و«إذ» اسم مبني على السكون بمعنى «حين» في محل نصب مفعول به بفعل محذوف تقديره: اذكروا.

وجميع «إذ» في القرآن الكريم أكثره على هذا يحذف العامل لدلالة المعمول عليه ولتوفير العناية على المعمول^(٤).

ثالثاً: حذف المفعول:

لقد اهتم البلاغيون بحذف المفعول وأولوه عناية فائقة لما فيه من لطائف كثيرة.

يقول الإمام عبدالقاهر - رحمه الله - وهو يتحدث عن حذف المفعول: «وليس لنتائج هذا الحذف، أعني حذف المفعول، نهاية،

(١) التحرير والتنوير (١١/٣٠٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٤) انظر: الحذف البلاغي في القرآن (١٢٩).

فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة، وإلى لطائف لا تحصى^(١).
ومن ذلك حذف المفعول في فواصل السورة الكريمة مبالغة في
إثبات الصفات وإطلاقاً لها من كل قيد.

وقد وردت أفعال في السورة لها هذه الدلالة في قوله تعالى:
﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمًّا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٤﴾
﴿وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿تعملون﴾^(٢) وما
شابه ذلك في السورة.

ففي قوله تعالى: ﴿فَهَمًّا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٤﴾ حذف المفعول من
الفاصلة ﴿يسمعون﴾ والتقدير يسمعون (القرآن)، أو «الذكر» فليس
له دلالة المقصود لو ذكر المحذوف، لأنَّ المقصود إطلاق نفي هذه
الصفة عنهم فكأنهم ليسوا ممن يسمع أصلاً فكأنَّ الفعل نُزِلَ منزلة
اللازم، فيكون الهدف التعميم أي لا يسمعون شيئاً البتة.

فيكون بهذا المعنى أبلغ وأعظم حيث إنهم لما لم يسمعوا
للقرآن فكأنَّ السمع قد انتفى عنهم فهم كالصم الذين لا يسمعون فمن
سمع القرآن ووعاه فقد ثبتت له صفة السمع فكان سميعاً، ومن لم
يسمعه فكأنه لا يسمع له أصلاً.

وهكذا نجد حذف المفعول يتمُّ بكثرة في فواصل السورة
الكريمة، وفي هذا الحذف بلاغة في المعنى واللفظ ففي اللفظ
محافظة على دور الفواصل القرآنية في السورة الكريمة المتمثل في
وحدة الحرف الأخير من الفواصل والذي ينزل في النثر المسجوع
منزلة حرف الروي في الكلام المنظوم.

ويأتي حذف المفعول دالاً على التعميم، كما في قوله تعالى:

(١) دلائل الإعجاز (١٦٣).

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٣، ٤، ١٨، ١٥.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾^(١) حيث جاء حذف مفعولا «اعمل» و«عاملون» ليعم كل ما يمكن عمله كل مع الآخر ما يناسبه^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣)، حذف المفعول مع «شاء» والتقدير: ما شئتم عمله.

والحذف هنا يدل على العموم، أي: أي عمل تريدون أن تعملوه فافعلوا وهو حذف للمفعول في مقام التحذير والتهديد لإدخال الرعب في قلوبهم.

حذف مفعول المشيئة:

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٤) مفعول شاء محذوف قدره الزمخشري هذا التقدير أي «لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة»^(٥).

وتقديره هذا يبعده عن حذف مفعول المشيئة الشائع في الكلام ولكن الإمام أباحيان يجعله من هذا الباب.

حيث يقول: «وتتعبت ما جاء في القرآن وكلام العرب من هذا التركيب فوجدته لا يكون محذوفاً إلا من جنس الجواب نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٦) أي لو شاء جمعهم على الهدى لجمعهم عليه.

ويقول بعد استعراض أمثلة من الآيات والشعر. «فعلى هذا الذي تقرر لا يكون تقدير المحذوف ما قاله الزمخشري، وإنما التقدير لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٣٦).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٥) الكشاف للزمخشري (٤/١٨٦، ١٨٧).

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر، إذ علقوا ذلك بأقوال الملائكة، وهو لم يشأ ذلك فكيف يشاء ذلك في البشر»^(١).

وقد نقل هذا الوجه الإمام الألويسي: وقال: وهو وجه حسن^(٢) ولكن الإمام الطاهر بن عاشور يرجح تقدير الزمخشري.

ويقول: «وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام، لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولاً عليه بجواب «لو» كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، ونكتة الإبهام ثم البيان، وأما الحذف في الآية، فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة»^(٤)، وهذا ما يتضح في الرؤية لحذف المفعول في الآية، والله أعلم.

حذف الجار والمجرور:

يحذف الجار والمجرور للاختصار ولدلالة الكلام عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٥) والتقدير آمنوا بالله وحذفه هنا للتعظيم وللعلم به.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٦) وأصله «وأنذرتكم بصاعقة» وفي حذفه للعلم به، وفيه تلاؤم وخفة في الكلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾^(٦)، والتقدير «فهديناهم إلى الطريق» فحذف الجار والمجرور وأوصل الفعل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا

(١) البحر المحيط (٤٦٩/٧).

(٢) روح المعاني (١١١/٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥٥/١١).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٧.

سَمِعُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿٢﴾ وحذفهما من كفروا شائع في القرآن الكريم والتقدير كفروا بالله، وكفروا بربهم والحذف فيها للتعظيم وليتناول الكفر كل متناول فالكافر بالله كافر بالآيات الدالة عليه كافر بآلائه كافر بما في نفسه من دلائل القدرة الباهرة ﴿٣﴾.

ومن حذف الجار والمجرور قوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٤﴾ تقديره «توعدون بها».

حذف جملة الشرط:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿٥﴾ «فادفع» جواب شرط محذوف، مقدر بمعنى «فإذا اعترضتك حسنتان فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها فادفع بها السيئة التي ترد عليك من أعدائك» فحذف جملة الشرط للدلالة الجواب عليها، ولتوفر العناية بالجواب أكثر.

حذف جواب الشرط:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦﴾ والتقدير: إن كنتم إياه تعبدون فاسجدوا وفي الحذف تكثير للمعنى وتأکید له، وأما الموضع الثاني لحذف جواب الشرط فيظهر في قوله تعالى عن الإنسان الضال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ ﴿٧﴾ جواب

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) الحذف البلاغي في القرآن ص (٩٥، ٩٦).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم أو أنّ جواب القسم قد سدّ مسد الجوابين، ومن مواضعه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) (١) وتقدير الجواب إن كان من عند الله ثم كفرتم به «فهل أنتم محقون في عملكم» وفي هذا الحذف تكثير للمعنى الذي يذهب في النفس إلى معنى متعددة من معاني التوبيخ المستفادة من الحذف في جواب الشرط.

يقول الزركشي: «وقالوا» وحذف الجواب يقع في مواقع التفخيم والتعظيم، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به، وإيّاها يحذف لقصد المبالغة، لأنّ السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب ولو صرّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به، فلا يكون له ذلك الوقع» (٢).

ويحذف، لأنّ دليل الحذف ما بقي من الأجزاء وأما السبب البلاغي فلتقديره النفس بأي صورة مناسبة وفيه تكثير للمعنى (٣).
حذف القسم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَدَقَّنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (٤)، والتقدير في مثل هذا ونحوه، «والله لئن أدقناه»، ومثله «ولئن رجعت» في حذف القسم وحذفه هنا للعلم به.

حذف الموصوف:

جاء حذف الموصوف في الكلام الفصيح كثيرًا وهو أكثر من حذف الصفة، لأنّه أقوى منها، وجاء في السورة الكريمة منه ما يلي:

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٢) البرهان للزركشي (٣/١٨٣).

(٣) ينظر: خصائص التعبير القرآني (٢/٦٩).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

فأول موضع يلقانا منه في السورة قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(١) أي: «من الله الرحمن الرحيم»، ففي هذا الحذف توفير للعناية بالصفة ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ لأنها المطلوبة في هذا المقام.

وأما الموضع الثاني من الحذف فيظهر في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾^(٢) فقد حذف هنا الموصوف وهي كلمة «الحياة» وقد أفاد حذف هذا الموصوف توفير العناية بالصفة، إذ هي غرض الكلام ومقصوده مع ما فيه من إيجاز في حذف المعلوم.

ومن المواضع التي فيها حذف للموصوف في السورة قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾^(٣) أي الأعمال الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤسَى ﴾^(٤) أي جبلاً رواسي، وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾^(٥) أي وفي الحياة الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٦) أي بالخصلة التي هي أحسن وقوله: ﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾^(٧) أي المثوبة الحسنَى، والحذف في هذه المواضع من السورة للعناية بالصفة، لأنها المطلوبة، «وهكذا تجد في كل موضع حذف فيه الموصوف وأقيمت الصفة مقامه لم يكن الحذف اعتباراً كما يقال أو قسراً وإنما هو لسر يبدو فيه توفير العناية بالصفة لأمر يقتضي ذلك»^(٨).

(١) سورة فصلت، الآية: ٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣١.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٨) خصائص التعبير القرآني (٤١/٢).

حذف الحال :

ويتضح في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(١) وتقديره «قائمين» فحذفت الحال وهي فضلة والأصل فيها عدم الحذف، لأنَّ الفضلة ضعيفة لا تكاد تتصور إذا حذفت وجاء هذا الحذف في الآية، لأنَّ الدليل عليها في هذا الموضع قد جاء قويا بحيث أجاز ذلك الحذف، فإنَّنا نجد في هذا المثال أنَّ المحذوف حال من الفاعل في «يسبحون»، وهي أي الحال هنا اسم فاعل ومتعلقه الجار والمجرور «بالليل والنهار» وساغ هذا الحذف هنا لقوة القرينة.

حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه :

يقول الزركشي «وهو كثير، قال ابن جني: وفي القرآن منه زهاء ألف موضع»^(٢) ولقد ذكر العرب عبدالسلام في كتابه مواضع كثيرة للحذف في سورة فصلت^(٣) منها حذف المضاف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾^(٤) والتقدير في تتمة أربعة أيام، وظاهر النص في الآية يفيد أنَّ الأيام الأربعة ظرف لتقدير الأقوات وجعل الرواسي المباركة ولا يدخل فيها يوما خلق الأرض فيجتمع للأرض وحدها ستة أيام وجمهور المفسرين يدخلون اليومين في الأيام الأربعة على تقدير محذوف أي في تتمة أربعة أيام^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٢) البرهان (٣/١٤٦).

(٣) انظر: الإشارة إلى الإيجار في بعض أنواع المجاز، للإمام عز الدين بن عبدالسلام السلمي، عناية رمزي سعدالدين (ط ١)، (بيروت، دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ ١٩٨٧) ص (١٩١).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٥) تفسير الطبري (٤٣٩/٢١)، الكشاف (٤/١٨٣)، تفسير أبي السعود (٥/٨).

ودليل الحذف هو عدم صحة تعلق الحكم المستفاد من السياق بالمذكور في اللفظ وإنما عدل إلى الحذف لما في نسج النظم الحكيم من إيجاز واعتماد على ما يأتي بعده في قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿١﴾ فلو كان اليومان اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية، وهذا محال ينافي الإشارة إلى بعدة أيام الخلق الستة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿١﴾ والتقدير، «ومن أحسن من قول من دعا إلى الله»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿٢﴾ بتقدير: إلا مثل ما قد قيل للرسول من قبلك، فحذف المضاف نائب الفاعل «مثل» وحلت محله «ما» المضاف إليها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿٣﴾ أي إذ جاءتهم دعوة الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ ﴿٤﴾ أي شهد عليهم محل سمعهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ﴿٥﴾ أي علم وقت الساعة، وقوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ ﴿٦﴾ أي وفي فتح الآفاق، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِيَّاهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٧﴾ أي من لقاء جزء ربهم.

وأما السر البلاغي من وراء الحذف للمضاف في الآيات

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٤.

الكريمات فهو إظهار المعنى في صورة أتم وأبين وعلى وجه أقوى وأشمل، وهذا السر البلاغي يعم كل موضع حذف فيه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه^(١).

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٤٥/٢).

المطلب العاشر الإطناب في السورة

والإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحًا كان أو ذمًا وأطنب في الكلام بالغ فيه، والإطناب: المبالغة في مدح أو ذم والإكثار فيه، وفرس في ظهره طنّب أي طول^(١).

والإطناب عند البلاغيين يعني زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. يقول عنه السكاكي: «الإطناب أداة المقصود بأكثر من عبارة المتعارف»^(٢) ومن مواضع الإطناب في السورة الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾^(٣) قد جعل الإمام الطيبي هذه الآية من الإطناب حيث يقول: «وليس من المشركين من يزكي، لكن حث للمؤمنين على الأداء، وتخويف من المنع حيث جعله من أوصاف المشركين»^(٤).

ومن مواضع الإطناب في السورة الكريمة، الإطناب في ذكر عذاب المشركين يوم القيامة فقد فصلت السورة في ذلك وهو المناسب للمقام الذي يتطلب مثل ذلك لهؤلاء القوم المعرضين.

يقول الطاهر بن عاشور هنا: «وأما عذاب عاد وشمود في الآخرة فهو موعود به في المستقبل وهم لا يؤمنون به فلا يناسب أن يجعل موعظة لقريش، بل الأجدد أن يقع إنذار قريش رأسًا بعذاب يعذبونه في الآخرة، ولذلك أُطيل وصفه لتهويله ما لم يُطل بمثله

(١) ينظر اللسان (٥٦٢/١) مادة (طنّب).

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص (٢٧٧).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٤) التبيان في البيان للإمام الطيبي (٢٢٤).

حين التعرض لعذاب عاد في الآخرة، بقوله: «ولعذاب الآخرة أخزى»^(١).

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(١٩) الآيات^(٢) وقد جاء على صور الإطناب الشواهد الآتية:

أولاً: التفصيل بعد الإجمال: وقد أشار إليه ابن أبي الإصبع وبين أنه ينقسم إلى قسمين: متصل ومنفصل.

فالمتصل منه كل كلام وقع فيه أمّا وأمّا؟ وقيل ذلك إجمال، وما بعد أمّا تفصيل، وأمّا المنفصل من التفصيل: فهو ما يأتي مجمله في سورة ومفصله في أخرى، أو في مكانين مفترقين من سورة واحدة^(٣).

ومثال ذلك من السورة الإنذار بالعذاب المهلك الذي أصاب كلاً من عاد وثمود وقد ذكر ذلك مجملاً في قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلَّ أَنْذَرْتَكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾^(٤) فقد ذكرت قضية الإهلال مجملة هنا ثم أعقب هذه الآية التفصيل في عذاب كل من عادٍ وثمود بعد ذكر ردهم على الرسل، حيث جاء التفصيل «بأما» وهي أداة شرط وتفصيل في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾^(٥) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابِ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾^(٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴾^(٨) ومما يعد من

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١١/٢٦٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٩ وما يليها.

(٣) بدیع القرآن، ص(١٥٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٥-١٨.

التفصيل بعد الإجمال ما في قوله تعالى في أول السورة: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١) فقد ذكر الإعراض هنا مجملاً وجاء تفصيله في قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَادَانِنَا وَقُرْءَانٍ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا لِنَنَاعِلْمُونَ﴾^(٢).

وهذا تفصيل للإعراض عما وصف به القرآن من الصفات العظيمة التي من شأنها أن تقربهم منه لا أن تبعدهم عنه فيعرضوا وقد جاء بالتفصيل بأقوالهم التي حرمتهم من الإنتفاع بالقرآن واحداً واحداً^(٣).

ثانياً: ذكر الخاص بعد العام:

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ﴾^(٤) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِيْهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٥) بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ فأعقب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرض إلى إلحادهم في آيات القرآن وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنه ليس بعرضة، لأن يكفر به^(٥).

ثالثاً: التذييل

وهو تعقيب الكلام بجملة تشتمل على معناه للتوكيد، فقد تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى أو لمفهومها. وهو ضربان: الأول: ما لم يخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله.

(١) سورة فصلت، الآية: ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١١/٢٣٣).

(٤) سورة فصلت، الآيات: ٤١، ٤٢.

(٥) التحرير والتنوير (١١/٣٠٥).

والثاني: ما خرج مخرج المثل لاستقلاله بنفسه^(١).
 ومن أمثله في السورة قوله تعالى عن عذاب قوم عاد:
 ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾^(٢) فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا
 يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ تذييل: أي لا ينصرهم من يدفع العذاب عنهم ولا من
 يشفع لهم، ولا من يخرجهم منه بعد مهلة، وهذا التذييل في الآية
 مكن لمعنى العذاب وأكده فلا مهرب منه و لانجاة، ومنه قوله
 تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
 يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾﴾^(٣).

فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾﴾ تذييل مقرر لما قبله
 ومؤكد له، فنفي السامة عنهم تأكيد للإستمرار في العبادة بالليل
 والنهار والدوام عليها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى
 الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾^(٤) ففي قوله تعالى في ختام الآية ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤكد له فالقادر على كل
 شيء يقدر على الإحياء بعد الإماتة، لأن من قدر على كل شيء قدر
 على الإحياء وغيره وكل ما شاء جلَّ وعلا وأراد فعله فهو كائن
 وحاصل.

وقد عدَّ الطاهر بن عاشور هذه الجملة من قوله تعالى:
 ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾^(٥) تذييلًا لجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني (١٩٠)، شرح التلخيص (٢٢٥/٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا»^(١) كما دلَّ عليه قوله عقبه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾^(٢)، أي لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيء أعمالهم^(٣).
ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٤).

فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٤) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه تعالى^(٥) والتذيل هنا واضح حيث إنَّ الجملة السابقة تبين عدل الله تعالى في العقاب حيث يوصل كل عبد بما عمل وجنى، وهذا يقتضي إثبات العدل في الجزاء فجاء التذيل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٤) ليؤكد هذا المعنى ويزيده تقريرًا فنفي الظلم عنه تعالى تأكيد لمعنى العدل في الجزاء للمحسن والمسيء.

رابعًا: الاعتراض:

وهو كثير في الأساليب العربية كما يقرر ذلك ابن جني حيث يقول: «اعلم أنَّ هذا القبيل من هذا العلم كثير، قد جاء في القرآن، وفصيح الشعر ومنتثور الكلام، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم»^(٦).

ويقول الخطيب في تعريفه: «هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٣٠٥/١١).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٥) روح المعاني للإمام الألووسي (١٣١/٢٣).

(٦) الخصائص لابن جني (٣٣٥/١).

لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل»^(١).
 ومن صورته في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٢) وكان نظم الكلام قبل الجملة الاعتراضية: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٣) فيكون قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ واعتراضاً واقعاً بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان السبب الداعي إلى الاستكبار والرد عليهم فيما زعموه^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٤) نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٥) فجملة ﴿نحن أولياؤكم﴾ جملة معترضة بين صفات الجنة.

يقول الطاهر بن عاشور في سرّها البلاغي «ليتحقق المؤمنون أنّ بشارتهم بالجنة بشارة محب يفرح لحبيبه بالخير ويسعى ليزيده»^(٥).
 ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٦) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(٦).

(١) الإيضاح (١٩٤)، وينظر شروح التلخيص (٢٣٧/٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) حاشية زاده (٢٥٧/٤).

(٤) سورة فصلت، الآيات: (٣٠، ٣٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٦/١١).

(٦) سورة فصلت، الآيات: ٣٨-٣٧.

فجمله ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ معترضة بين جملة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وبين جملة: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾^(١) وفي هذا الاعتراض مزيد تأكيد على نفي الشريك لله، ففي النهي عن السجود للشمس والقمر فائدة الحصر فهو بمنزلة النفي والاستثناء فكأنه قيل: «لا تسجدوا إلا لله».

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾^(٢) فجمله ﴿إِنْ رَجِعْتُ﴾ اعتراضية بين القسم المحذوف وجوابه، وفي هذا الاعتراض بيان لتبجحه وشكك في لقاء ربه، ويتضح من «إِنْ» وبناء الفعل للمجهول.

خامساً: الاحتراس:

والاحتراس في اللغة: «بمعنى التحرز، وتحرست من فلان واحترست منه بمعنى أي تحفظت منه»^(٣).

وهو عند البلاغيين «أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه»^(٤) ومن صورته في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(٥).

يبين ﷺ ما تميز به عنهم في هذه الآية على وجه الاحتراس من أن يتلقفوا قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تلقف من حصل على اعتراف خصمه بنهوض حجته بما يثبت الفارق بينه وبينهم في البشرية.

والاحتراس هو مضمون جملة «يوحى إليّ» وذلك للتسجيل عليهم إبطال زعمهم المشهور المكرر أنّ كونه بشراً مانع من إرساله

(١) المصدر السابق (١١/٣٠٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٣) لسان العرب، مادة (حرس).

(٤) الإيضاح (١٩٢).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٦.

من الله تعالى^(١).

ومن الاحتراس قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٢)، قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه احتراس لدفع توهم غير المراد، وهو أن استكبارهم كان مجرد دعوى جوفاء عارية عن المبرر لها، والباء في «بغير» للحالية، أي متلبسين بغير الحق^(٣).

ومما يلحظ فيه الاحتراس.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٤) في الآية احتراس لئلا يحسب السامعون أن مصيرهم من العقاب ما حاق بهم منه إهلاك بالريح وكفى بل عطف عليه الإخبار بأن عذاب الآخرة أخزى فهو لهم ولكل من عذب عذاباً في الدنيا لغضب الله عليه^(٥) وقوله في الآية نفسها ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ احتراس من بعد احتراس حيث لا يتوهم بأنهم يخرجون من العذاب بعد مهلة أو ينصرون بدفع العذاب عنهم، أو الشفاعة لهم.

ومما يلحظ فيه الاحتراس أيضاً قوله تعالى: ﴿وَبَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ﴾^(٦).

فبعد أن ذكر إهلاك كل من قوم عاد وشمود، جاء الاستثناء للطائفة المؤمنة من الإهلاك في هذه الآية حتى لا يتوهم أن حال هذه الطائفة الصالحة مع أولئك المهلكين.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣٧١١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام (٩/٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦١/١١).

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٨.

سادسًا: وضع الظاهر موضع المضمَر:

وهو مما يندرج تحت باب الإطناب وقد كثر في كتاب الله عزَّوجل، وله فوائد كثيرة تدرك بالذوق، وتدل عليها القرائن، هذا ويلحظ نوع من الضيق في دراسة هذا المجال لدى البلاغيين إذا ما قورن بدراسة الذين عنوا بعلوم القرآن حيث يلحظ أنَّ نظرهم أوسع ومسائلهم أكثر تشعبًا واستيعابًا^(١).

ويظهر ذلك عند الزركشي الذي عني بهذا الموضوع الذي يقول فيه «والعجيب أنَّ البيانين لم يذكره في أقسام الإطناب»^(٢)، ومن صورهِ الظاهرة في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٣) وفي ذكر المشركين إظهار في مقام الإضمار ويستفاد منه تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإخبار عن الويل بكونه ثابتًا للمشركين والموصوفين بالذين لا يؤتون الزكاة وبأنهم كافرون بالبعث، لأنَّ تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعليَّة ما منه الاشتقاق، ولأنَّ الموصول يؤذن بالإيماء إلى وجه بناء الخبر^(٤).

فالشرك وإنكار البعث موجبين للويل وهذا سبب الإظهار فيما يبدو ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾^(٥) فالذين كفروا: إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علة إذاعة العذاب، أي بكفرهم المحكي فيما تقدم^(٦).

(١) ينظر: أساليب بلاغية، للدكتور أحمد مطلوب ص(٢٥٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٤٨٤).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٧.

(٤) التحرير والتنوير (١١/٢٣٩).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٦) ينظر: روح المعاني (٢٤/١١٩)، حاشية الشهاب (٨/٣١١)، التحرير والتنوير (١١/٢٧٩).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ (٤) (١) وضع الذكر موضع الضمير الراجع إلى الآيات زيادة تحسير لهم (٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥) (٣) وهنا إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: ولننبئهم فعدل عن ذلك إلى الاسم الموصول وصلته التي تؤذن بعله استحقاقهم العذاب.

(١) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٢) روح المعاني (١٢٨/٢٤).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

المطلب الحادي عشر القصر في السورة الكريمة

القصر في اللغة: الحبس، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾^(١) أي محبوسات فيها.

وأما معناه في الاصطلاح: فهو تخصيص شيء بشيء، بطريق مخصوص^(٢).

وأول ما يلقانا في السورة الكريمة من أساليب القصر، أسلوب القصر بـ«إنّما» مكسورة ومفتوحة، والتي يغلب استعمالها في جانب الوداعة واللين، لأنّها فيما الأصل فيه أن يكون معلوماً أو ينزل منزلة المعلوم، إنّها تسوق الحقائق والأفكار إلى النفس المتلقية سوقاً هادئاً دون ثورة أو جلبلة.

وهذا منظور فيه لقول الإمام عبدالقاهر السابق ذكره في أسلوب الخبر المؤكد «اعلم أنّ موضوع إنّما على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة»^(٣).

ولقد جاء هذا القصر بـ«إنّما» في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(٤) فالقصر في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قصر موصوف على صفة وهو قصر إضافي للقلب^(٥).

أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالغيب وليس بملك ولا جني، وإنّما أنا بشر من جنسكم وفي هذا مجازاة للخصم

(١) سورة الرحمن، الآية: ٧٢.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح (٤/٢) أساليب بلاغية، د/أحمد مطلوب ص(١٧٦).

(٣) دلائل الإعجاز ص(٣٣).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١١/٢٣٧).

وفيه رد على اعتقادهم في كون الرسالة لا تكون للبشر، وإنما تكون لملك من الملائكة، أو ما اعتقدوه في ذلك. فأصبحت بشرية الرسول في اعتقادهم حجاباً ما نعا يمنعه من تصديقه في دعوى الرسالة بناءً على أن البشرية في زعمهم منافية للرسالة، وإنما هي من مناصب الملائكة، فجاء هذا القصر ردًا لهذا الاعتقاد فهو قصر قلب، فكان أمر الله لرسوله بأن يجيبهم بما ذكروه من جعلهم البشرية في اعتقادهم منافية للرسالة بأن البشرية هي المصلحة للرسالة، لأن إرسال الملك أو الجني إلى البشر لا يوافق الحكمة من حيث إن البشر لا يمكنه أن يتلقى منهما ما يلقي إليه.

وأما في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ فقد جاء القصر بـ«أَنَّمَا» مفتوحة الهمزة، وهي أخت «إِنَّمَا» المكسورة الهمزة في إفادة القصر، وهي مركبة من «أَنَّ» مفتوحة الهمزة و«ما» الكافة، كما ركبت «إِنَّمَا» من «إِنَّ» مكسورة الهمزة، و«ما» الكافة والأداتان تفيدان التأكيد فكذلك كانت عند اتصالهما بـ«ما» الكافة أختًا لها في إفادة القصر^(١).

والقصر هنا قصر موصوف على صفة وهو قصر إضافي للقلب، ففيه رد على اعتقادهم الباطل في الشرك بالله تعالى وعدم اعتقادهم للوحدانية في العبادة فهذا لمعتقداتهم الفاسد، وقد سبق بأسلوب «أَنَّمَا» الهاديء التي نزل فيها المنكر الجاحد منزلة غير الجاحد المنكر. فجاء هذا الخبر عن طريق القصر بـ«إِنَّمَا» في منزلة الخبر المعلوم المقرر الذي لا ينكره منكر فصيح صياغة هادئة دون جلبه أو ثورة وطبع في النفس بتؤده وتريث.

القصر بالنفي والاستثناء:

والقصر بالنفي والاستثناء لا يكون إلا في المقامات الحاسمة

(١) ينظر: المصدر السابق (٨/١٧٠).

فيأتي مع المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد.
«ولاتلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية والنغمة الحاسمة
والتعبير الشديد»^(١) وقد ورد منه في السورة الكريمة قوله تعالى:
﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾^(٢)
فالمقصور عليه هنا ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ والمقصور الفعل يلقاها، فجاء
القصر بالنفي والاستثناء ليبين لنا مدى ما يحتاجه الدفع بالحسنة في
مقابلة السيئة من قوة عزم وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس
في حب الانتقام وفي ذلك تنويه بفضلها وبأنها تلازمها خصلة
الصبر.

وهي في ذاتها خصلة حميدة وثوابها عظيم، وجاءت الصلة
وهي ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ المقصور عليه بالماضي للدلالة على أن الصبر
خلق سابق فيهم هو العون على معاملة المسيء بالحسنى ولهذه
النكته عدل عن أن يقال إلا الصابرون^(٣).

ومنه قوله تعالى لنبيه: ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ
رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٤) وجد القصر بالنفي والاستثناء في
هذه الآية التي هي من آيات التسلية الواردة في السورة للرسول ﷺ.
وهذا النوع من القصر في موقف التسلية فيه فضل تقرير
وتوكيد للمعنى في النفس حيث يؤكد المعنى في النفس لتزداد تسلية
وثباتاً على الأمر فما يقول لك يا محمد كفار قريش إلا مثل ما قد
قيل للرسول من قبلك فلست بأوحد في تلقي ما تسمع من كلام
وإعراض.

(١) دلالات التراكيب ص(١٠٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق (١١/٢٩٥).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

وفي هذا الطريق من القصر موافقة للموقف حيث أتى هذا الأسلوب في الموطن الملائم له، وهذا هو نظم القرآن الذي يتخير لكل مقام ما يناسبه من أساليب البيان.
القصر بضمير الفصل:

أفاد ضمير الفصل القصر في مواضع من السورة منها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(١) حيث دلّ هنا ضمير الفصل «هم» على أنّهم خصوصاً كافرون بالآخرة من بين أهل الملل.

يقول الزمخشري: «هم» الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به^(٢)، ويظهر كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٣) التركيب هنا يفيد أنّهم خصوصاً لا ينصرون في هذا اليوم وأنّ غيرهم تنالهم الرحمة في ذلك اليوم فعدم النصرة في هذا اليوم مقصور عليهم بخلاف العصاة من الذين آمنوا فقد ينصرهم الله برحمته.

القصر عن طريق التعريف:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٤) وقوله: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند، أي لا ربّ لنا إلاّ الله، وذلك جامع لأصل الاعتقاد الحق وهو الإقرار بالتوحيد^(٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٦) وهذا التركيب قد أفاد القصر، وضمير الفصل أكد المعنى وزاده توكيداً فالمعرّف بلام الجنس هو المقصور، وعلى هذا فهو قصر

(١) سورة فصلت، الآية: ٧.

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/٣٧١).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٥) التحرير والتنوير (١١/٢٨٢).

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

صفة على موصوف .

القصر بالتقديم :

وقد ورد القصر بالتقديم في الآيات التالية :

في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) جاء القصر في الآية من قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا وذلك بتقديم ما حقه التأخير، حيث قدم الجار والمجرور على عامله ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ أي ترجعون إليه وحده لا إلى غيره، وفي هذا القصر تأكيد على اختصاص الصفة بالموصوف ونفيها عن غيره .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ ﴾ (٢) أي إليه وحده لا إلى غيره، وقد جاء القصر في هذا المثال أيضًا عن طريق التقديم .

يقول الطاهر بن عاشور: «وتقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر، أي إلى الله يفوض علم الساعة لا إليّ، فهو قصر قلب، وردّ عليهم بطريق الأسلوب الحكيم» (٣) .

ومن صور القصر: قوله تعالى: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤) فالإتيان بالمسند فعلاً وهو: ﴿ أرداكم ﴾ أفاد ذلك القصر، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي لم تردكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها، بل أرداكم ظنكم أنّ الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه (٥) .

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٧ .

(٣) التحرير والتنوير (٥/١٢) .

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٣ .

(٥) المصدر السابق (١١/٢٦٢) .

المطلب الثاني عشر باب الفصل والوصل في سورة فصلت

وهو من أدق أبواب البلاغة وأهمها:

يقول عنه الإمام عبدالقاهر الجرجاني: «اعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة بعد أخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص، والأقوام طبعوا على البلاغة، وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنّهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنّه سئل عنها فقال: معرفة الفصل والوصل، ذلك لغموضه، ودقّة مسلكه، وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة»^(١).

ومن هنا نعلم مدى ما في هذا الباب من الغموض والأسرار نسأل الله تعالى العون فيه والتوفيق، وهذا وأول ما يتناول بتوفيق الله تعالى في هذا الباب الوصل بين الجمل.

حيث يجب الوصل بين الجملتين لما بينهما من صلة في الصورة والمعنى، أو لدفع اللبس، وذلك إذا كان للجملّة الأولى محل من الإعراب بأن كانت واقعة موقع المفرد من حال أو وصف أو خبر أو مفعول أو غيرها، وقصد تشريك الثانية لها فيه وليس هناك ما يمنع منه، لكن مع شرط وجود المناسبة بين الجملتين.

ومن أمثلة ذلك من السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) دلائل الإعجاز ص (٢٢٢).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.

فالجمله الأولى ﴿تَكْفُرُونَ﴾ لها محل من الإعراب فهي في محل رفع خبر «إِنَّ» وعطف الجمله الثانية ﴿تَجْعَلُونَ﴾ عليها فشاركها في الحكم الإعرابي إذاً فهناك جامع لفظي، وهو الاشتراك في الإعراب، كما اتحدت الجملتان في بعض الجزئيات، فهما جملتان فعليتان وأفعالهما مضارعة، والمسند إليه واحد، وهم المشركون المخاطبون، وهذا جامع معنوي مع عدم وجود المانع من العطف فعطف الجمله الثانية على الأولى لقصد التشريك في الحكم الإعرابي، وكذلك يلحظ التناسب في المعنى، وبلاغة الوصل هنا تبين مدى ما هم فيه من ضلال وكفر، وعدم اعتراف بالوحدانية الحقة لذي الجلال والسلطان.

ومن الأمثلة على ذلك من السورة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(١) فجمله ﴿لا تسمعوا﴾ في محل نصب مقول القول، وجمله ﴿الغوا﴾ في محل نصب معطوفة على جملة ﴿لا تسمعوا﴾ ومن هنا يتضح أن العطف للتشريك في الحكم الإعرابي، ولا يوجد مانع من الموانع تمنع ذلك العطف والمناسبة بين الجملتين واضحة كما يوجد توافق في كون كل واحدة منهما جملة إنشائية لفظاً ومعنى.

ثانياً: ومن مواضع الوصل:

أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، وكانت بينهما مناسبة تامة، ولم يكن هنالك مانع من العطف، ويسمى هذا «بالتوسط بين الكمالين مع عدم المانع».

ومن أمثلة الاتفاق في الخبرية لفظاً ومعنى، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) وجعل فيها رُوسى من فوقها وبرك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيامٍ سواءً

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

لِّلسَّالِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ (١).

لقد توالى الجمل الخبرية في هذه الايات الكريمة وقد أخذت بعضها بحجز بعض وانتظمت انتظاماً فريداً عظيماً بين لنا مدى القدرة والإبداع في خلق السموات والأرض.

وأول ما نبدأ به قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَيَبْرُكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ فانظر إلى هذه الجمل الفعلية المتوالية ﴿جعل﴾ و﴿بارك﴾ و﴿قدر﴾ كيف وصل بينها بواو العطف تفصيلاً لمظاهر القدرة، وإتقان الصنع، ومجيء أفعالها أفعالاً ماضية، يدل على تحققها واستقرارها، ويشعر بظهورها ووضوحها لمن أراد أن يتأمل ويتدبر، وألقى السمع وهو شهيد.

وقد اتحدت هذه الجمل في كونها خبرية لفظاً ومعنى، كما أنها اتحدت في المسند إليه وهو ﴿الله﴾ جل وعلا وليس هناك مانع من العطف، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين، ثم إذا نحن تتبعنا بقية الايات السابقة وجدنا الجمل الخبرية تتوالى.

ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ وقد وقع العطف بـ«ثم» التي تعطي معنى التراخي والمهلة، كما أنها تعطي معنى التشريك في الحكم والترتيب (٢).

ولمَّا كَانَ خَلْقُ الْأَرْضِ أَوَّلًا ثُمَّ كَانَ خَلْقُ السَّمَاءِ، ثُمَّ دَحُو الْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ. فَإِنَّ هُنَا لِلتَّرَاخِيِّ الرَّتْبِيَّ. ويرى بعض المفسرين أن العطف بها هنا لما بين الخلقين من

(١) سورة فصلت، الآيات من: ٩-١٢.

(٢) الإتيان للسيوطي (٢/١٨٩).

التفاوت، وليس المقصود منه التراخي في الوقت^(١).
والوصل هنا قد وقع «بثم» التي عطفت هذه الجملة على التي قبلها وهي قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ التي لا محل لها من الإعراب.
ويلحظ أنّ هذه الجمل قد اتّحدت في كونها خبرية لفظاً ومعنى، كما أنّها اتّحدت في المسند إليه، وهو ﴿الله﴾ جلّ جلاله كما يلحظ أنّ بينها شبه تضاد «السموات والأرض» وليس هناك مانع من العطف، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.
وكذلك لو تتبعنا ما في السورة الكريمة، من العطف لوجدنا الكثير منها قد اتّحدت في الخبرية أو الإنشائية، وقد ساغ العطف للمناسبة الموجدة للعطف.

فلو تتبعنا بقية الآيات السابقة لوجدنا قوله تعالى ﴿فَقَالَ﴾ جملة لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة ﴿استوى﴾ التي لا محلّ لها من الإعراب، وهي جملة خبرية، فقد اشتركت الجملتان في كونهما خبريتين لفظاً ومعنى واتّحدت في كون أفعالهما ماضية واتّحدت كذلك في المسند إليه «الله» ولا مانع من العطف للتوسط بين الكمالين.

ويلحقهما جملة ﴿فقضاهن﴾ المعطوفة على جملة ﴿فَقَالَ﴾ السابقة، وجملة ﴿وأوحى﴾ الخبرية المعطوفة على جملة ﴿قضاهن﴾ و﴿زيتنا﴾ المعطوفة على جملة ﴿وأوحى﴾.

فنقول في هذه الجمل «فقضاهن، وأوحى، وزيتنا» كلها جمل خبرية اتّحدت في المسند إليه، وهو ﴿الله﴾ جلّ وعلا، وكانت أفعالاً ماضية مما يجعلها تتماثل في المسند وليس هناك مانع من العطف، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

(١) الكشاف (١/١٢٨)، البحر المحيط (١٠/١٣٤)، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١١/٢٤٥).

وأما الوصل للاتفاق في الإنشائية لفظاً ومعنى فمن أمثله من السورة قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾^(١) وقع الوصل بين جملة ﴿ استقيموا ﴾ وجملة ﴿ استغفروه ﴾ فهما جملتان إنشائيتان لفظاً ومعنى، كما اتحدتا في بعض الجزئيات فقد اشتركتا في المسند إليه وهم المأمورون بذلك من «كفار قريش» كما أن الجمل فعلية، وليس هناك مانع من العطف فهو توسط بين الكمالين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) فقد وقع الوصل بين جملتين انشائيتين لفظاً ومعنى بين جملة ﴿ لا تسمعوا ﴾ وجملة ﴿ الغوا ﴾ واتحدت في المسند إليه، وفي كونها جملاً فعلية وليس هناك مانع من العطف.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^(٣) فالعطف بين جملة ﴿ لا تسجدوا ﴾ و﴿ واسجدوا ﴾ فقد عطفت جملة ﴿ واسجدوا ﴾ على الجملة الإنشائية السابقة، وقد اتحدت الجملتان في الإنشائية، ولا يوجد مانع من العطف، فالعطف هنا للتوسط بين الكمالين.

وعلى ضوء ما سبق في الحديث عن الوصل نجد ما يلي من الآيات. وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يَحْحَدُون ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٥.

الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ (٢)
 وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدِ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦﴾ وغيرها من المواضع.

ثانياً: الفصل في السورة

أولاً: كمال الاتصال:

وهو أن يكون بين الجملتين اتحاد تام وامتزاج معنوي كأنهما أُفرغتا في قالب واحد، فتنزل الثانية من الأولى منزلة التوكيد أو البيان أو البدل، ومدار هذا أن العطف بالواو يقتضي التغاير، وهذا ما لا يتحقق في التوكيد أو البيان أو البدل إذ لا مغايرة بينهما (٧).

ومن الأمثلة على ذلك ما يتضح في أول السورة الكريمة من مواضع للفصل، في قوله تعالى: ﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾

(١) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٧) سورة هود، دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، إعداد دخيل الله محمد الصحفي،

كَنْتَبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤٣﴾^(١) ولقد فصل بين هذه الجمل لكمال الاتصال فهي جمل يؤكد بعضها بعضا، لبيان مكانة القران وبلوغه الغاية في الهداية والكمال.

ف«حم» جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها نبهت إلى أنه الكلام المتحدى به، ثم جاء قوله عز وجل: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مبيناً لجهة التحدي ففصل بينهما لكمال الاتصال.

وكان الفصل بين قوله تعالى: ﴿ كَنْتَبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ وما قبلها، لأنها بدل من جملة تنزيل فجاءت هذه الجملة لتوفية المعنى المراد إذ المقام يقتضي الاعتناء به لكونه عظيماً بالغاً من الكمال، غايته مما يدعو للعجب والإثارة. فالفصل هنا لكمال الاتصال.

ويدخل في ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) فقد فصل بين جملة ﴿ تنزيل ﴾ عمماً قبلها والفصل هنا لكمال الاتصال فجملة «تنزيل من حكيم حميد» مؤكدة للجملة السابقة التي تنفي الباطل عن القران، ومقررة لها فلا يأتي من الحكيم الحميد، إلا النور والخير والعدل للبشرية جمعاء، وهذا يقتضي تأكيد الجملة السابقة.

ومنه أيضاً: قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣) ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣٩) مؤكدة لقضية الإحياء، لأن القادر على كل شيء، يقدر على الإحياء وعلى غيره فجاءت هذه الجملة مفصولة، عمماً قبلها، لأنها مؤكدة ومقررة لها، والفصل هنا لكمال الاتصال.

(١) سورة فصلت، الآيات: ٤١-٤٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

ومن الفصل لكون الجملة الثانية بدلاً عن الأولى، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾^(١) فهي بدل عن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾^(٢).
يقول الزمخشري: «فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾».

قلت: هو بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ والذكر: القرآن^(٣).

ويرى الطاهر بن عاشور أنّ الأظهر أن تكون جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ واقعة موقع التهديد بالوعيد في قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ والمعنى: لأنهم جديرون بالعقوبة إذ كفروا بالآيات^(٤).

ومن الفصل لكون الثانية «عطف بيان» قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾^(٥) فالفصل هنا لكمال الاتصال، فالنار عطف بيان لما قبلها حيث جاءت بياناً له فأفادت الإيضاح، وكلمة ﴿النار﴾ مبينة «للجزاء» حيث كان في الأولى نوع خفاء اقتضى المقام ازالته والفصل هنا لكمال الاتصال.

الفصل لشبهه كمال الاتصال:

وهو أن تأتي الجملة الثانية جواباً عن سؤال فهم من الجملة الأولى، وقد يكون السؤال مذكوراً صراحةً في الجملة الأولى، والفصل لشبهه كمال الاتصال أو الاستئناف البياني، كثير في السورة الكريمة، وهو أكثر مواضع الفصل في السورة.

فالفصل للاستئناف البياني، من أقوى الطرق في تحقيق

(١) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) الكشاف للزمخشري (٤/١٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (١١/٣٠٧).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٨.

المعاني، وتوكيدها نظرًا لشدة الاتصال بين الجملة المستأنفة والجملة قبلها، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباطًا وثيقًا فهي في موقع الجواب عن شيء، أثارته الجملة الأولى، فتكون الثانية قد تولدت منها، ويلحظ الاستثناف البياني في السورة مرتبطًا بكل محاورة مبدوءة بـ«قال» التي تذكر مفصولة جوابًا لسؤال مقدر يثيره الكلام المتقدم، ولذا يقول الإمام عبدالقاهر: «واعلم أنّ الذي تراه من التنزيل من لفظ «قال» مفصولاً غير معطوف.

فإنّه جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال فلمّا كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: «دخل قوم على فلان فقالوا كذا» أن يقولوا: «فما قال هو؟» ويقول المجيب: «قال كذا» أخرج الكلام ذلك المخرج، «لأنّ الناس خوطبوا بما يتعارفونه وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه»^(١).

وعلى هذا جاءت الآيات التالية:

في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾^(٢) والتقدير، فماذا قالوا: بعد دعوتهم إلى عبادة الله تعالى من قبل الرسل؟ فجاء الجواب: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

فنجد أنّ جملة: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قد فصلت عمّا قبلها، إما لأنها جواب السؤال المذكور، وإمّا لأنها جواب عن سؤال

(١) دلائل الإعجاز (٢٤٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

مقدّر نشأ عن الأولى حاصله؛ ما ذا قالت لهم جلودهم؟
والأرجح الأول، لأنّ ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج
إلى تقدير وهذه قاعدة مطردة^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا
مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾^(٢) وتقدير السؤال المثار «فلما قال الله تعالى لهم
أين شركائي؟ فماذا قالوا: فكان الجواب: ﴿قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ
شَهِيدٍ﴾^(٣).

ومن صور الاستئناف البياني في السورة غير هذا الأسلوب ما
يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ﴾^(٤) حيث جاءت هذه الجملة الخبرية مفصولة عما قبلها
حيث جاءت بعد الحديث عن المشركين وصفاتهم ومآلهم.

يقول الطاهر بن عاشور هنا في الآية: استئناف بياني عن
الوعيد الذين توعدّ به المشركون بعد أن أمروا بالاستقامة إلى الله
واستغفاره عما فرط منهم، وكأنّ سائلاً يقول: فإن اتّعظوا وارتدعوا
فماذا سيكون جزاؤهم، فأفيد ذلك وهو أنّهم حينئذ يكونون من زمرة
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٥) ومن الفصل
للاستئناف البياني ما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
وَأَبْصَرُهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦).

«حتى» هنا ابتدائية مفيدة لمعنى الغاية فهي حرف انتهاء في المعنى
وحرف ابتداء في اللفظ، أي أنّ ما بعدها جملة مستأنفة فإذا كان

(١) التفسير البلاغي للاستفهام (٤/١١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٤) التحرير والتنوير (١١/٢٤٠).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

جواب إذا محذوفاً للتهويل فإنَّ جملة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ إلى آخرها مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأ عن مفاد «حتى» من الغاية، لأنَّ السائل يتطلب ماذا حصل لهم بين حشرهم إلى النار، وبين حضورهم عند النار فأجيب بأنه ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ الآيات (١).
ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (٢) حيث نجد الفصل بين جملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ والتي قبلها حيث كان الفصل هنا للاستئناف البياني الناشيء من قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ﴾ وقد أجاز الطاهر بن عاشور كون الفصل أيضاً لغير الاستئناف، بحيث تكون بياناً للقول مثل نظيرتها في سورة الصافات (٣) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ (٤).

والحقيقة أنَّ النكات البلاغية لا تتزاحم مادام يصح هذا الوجه، وذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٥) جاء الفصل في هذه الآية الكريمة بين قوله تعالى: ﴿ادفع﴾ وما قبلها، وكان الظاهر فادفع سيئتهم بالحسنة بالفاء التفرعية فتركت للاستئناف الذي هو أقوى الوصلين اتكالا على فهم السامع «أي كيف أصنع إلخ»، ومقتضى الظاهر ادفع بالحسنة فعدل عنه إلى الأبلغ، لأنَّ من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه، وهذا الكلام أبلغ في الحمل، والحث على ما ذكر، لأنَّه يوميء إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه (٦).

(١) ينظر: المصدر السابق (٢٦٦/١١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٣) التحرير والتنوير (٢٧٦/١١).

(٤) سورة الصافات، الآية: ٣١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٦) ينظر: حاشية الشهاب (٣١٥/٨) «بتصرف يسير».

وصور الفصل للاستئناف البياني كثيرة في السورة، نذكر منها أيضاً: قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣) (١) حيث فصل بين جملة: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وما قبلها، وهذه الجملة هي جواب لسؤال يثيره قوله تعالى قبلها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ وما تخلل ذلك من الأوصاف، فكان سائلاً يقول: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ أي في القرآن؟ فأجيب بأن هذه سنة الأنبياء (٢).

من قبل وفيه تسلية للرسول ﷺ كما أن هناك فصلاً آخر في نفس الآية، هذه بين جملة ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣) حيث كان الفصل هنا للاستئناف البياني أيضاً فكأنه قيل: ثم ماذا؟ قيل: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لأوليائه، وذو عقاب أليم لأعدائهم، وقد نصر لذلك من قبلك من الرسل - عليهم السلام - وانتقم من أعدائهم وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً (٣).

ثانياً: الاستئناف البياني بالجملة التعليلية:

حيث يأتي الاستئناف البياني في مقام الأمر والنهي، لما تحتاجه النفس في هذا المقام من معرفة علة أمرها أو نهيها، فهنا يحسن الاستئناف التعليلي، ويدق موضعه ويكثر بدء هذه الجمل التعليلية بأن التوكيدية مراعاة لمقام التساؤل والطلب في الجملة الأولى، ومن أمثلة هذا المقام قوله تعالى عن المشركين ردّاً منهم

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١١/٣٠٩، ٣١٠).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٩/١٤).

على الرسول ﷺ: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ (١) ﴿فَإِنَّ جَمَلَةً﴾ ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ ﴿قَدْ وَقَعْتَ تَعْلِيلًا لِفِعْلِ الْأَمْرِ﴾ ﴿اعْمَلْ﴾ ﴿وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾﴾ (٢) ﴿فَإِنَّ جَمَلَةً: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾﴾ ﴿قَدْ وَقَعْتَ أَيْضًا تَعْلِيلًا لِلْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ ﴿اعْمَلُوا﴾ وَالِاسْتِثْنَاءَ هُنَا قَدْ أَدَّى دَوْرًا عَظِيمًا فِي زِيَادَةِ التَّهْدِيدِ وَإِبْرَازِهِ حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ.

ويظهر أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿حَيْثُ جَاءَتْ جَمَلَةٌ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ مَفْصُولَةٌ عَمَّا قَبْلَهَا، حَيْثُ إِنَّهَا جَمَلَةٌ تَعْلِيلِيَّةٌ مَقْرَّرَةٌ لَمَّا سَبَقَ فَكَانَ مَجِيئُهَا عَقِبَ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ، تَعْلِيلًا فَحَسَنَ مَوْقِعَهَا هُنَا.

ومما جاء مفصلاً عما قبلها للاستئناف البياني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَقَدْ فَصَلَتْ عَمَّا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ، لِأَنَّهَا مِثَارٌ سَوَّالٌ يِثَارٌ بَعْدَ اسْتِعْرَاضِ حَالِ الْمَعْرُضِينَ وَمَصِيرِهِمْ بِأَنْ يُقَالَ: «فَإِنْ كَانَ هَذَا حَالِ الْمَعْرُضِينَ وَمَصِيرِهِمْ فَمَا حَالٌ مِنْ آمَنٍ وَصَدَقَ فَقِيلَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ الْآيَاتِ وَأَكَّدَتْ نَظْرًا لِانْكَارِ الْمُنْكَرِينَ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ.

ومن أمثلة الفصل للاستئناف قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾ ﴿وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ﴾ وَمَا قَبْلَهَا فَكَأَنَّهُ قِيلَ: «كَيْفَ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٠، ٣١.

اهتزت وربت» ف قيل: «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا» ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾^(١) فقد فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البياني فكأنهم قالوا فمتى سيكون هذا اليوم ف قيل: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

ثالثاً: الفصل لكمال الانقطاع:

ويتحقق ذلك في أمرين:

أولهما: أن تختلف الجملتان خبراً وانشاء لفظاً ومعنى، أو معنى فقط.

ثانيهما: أن لا يكون بين الجملتين جامع أو مناسبة، بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها وإن لم تعدم المناسبة المعنوية المصححة لجمع الجمل في حيز واحد.

وأمثلة القسم الأول من السورة قوله تعالى: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾^(٢) حيث نجد الجملة الأولى إنشائية لفظاً ومعنى والثانية: ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ خبرية لفظاً ومعنى وفصل بينهما لكمال الانقطاع وكذلك الفصل بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ وما يليها من الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ومن الاختلاف بين الجملتين في الإنشائية والخبرية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) فالجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى والثانية إنشائية لفظاً ومعنى، وهي ﴿ادفع﴾ والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود ولذا وجب الفصل بينهما لكمال الانقطاع، وقد وردت هذه الآية في قسم الفصل

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

للاستئناف البياني وكما مرَّ بيانه من أنَّ النكات البلاغية لا تتزاحم، ومن الفصل لكمال الانقطاع لانعدام الجامع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(١) حيث فصلت هذه الجملة عن سابقتها عقب ذكر حال المشركين المانعين للزكاة وأنَّ مصيرهم الويل والعذاب.

وذلك للاختلاف ما بين الحالتين فتلك في أصحاب الويل وهذه في ذكر حال المؤمنين ومصيرهم ، فكان الفصل لعدم الجامع بين الحالتين.

وقد يكون منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(١)، حيث جاءت مفصولة عما قبلها من ذكر قصة المحشورين من أهل الضلال ومصيرهم ومآلهم وبيان حالهم وما هم فيه، فجاء الفصل بين القصتين لعدم الجامع فتلك في أصحاب الجحيم، وهذه فيمن كان من أصحاب اليمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾^(٢) الآية فالجملة الثانية عن شك القوم في اليوم الآخر والسابقة عن خطاب الرسول ﷺ ووعده وتثبيته وتسليته.

ولما كان هذا الفصل في آخر السورة وختامها فقد آذن هذا الفصل بتذييل شامل لمعاني السورة كلها والتي كانت مستعرضة في كل أجزاء الحديث عن الإعراض وصوره وأقوال المعرضين، فجاء الختام ليبين سبب هذا الإعراض، وأنه ما كان إلاَّ لأنَّهم قد ارتابوا من لقاء ربهم وأنَّهم لم يؤمنوا بهذا اليوم الآخر، فحسن هذا الفصل

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

هنا لتكون الخاتمة جامعة لكل معاني السورة والفصل يؤذن بنهاية الكلام.

ولعمري إنه لفن من البلاغة عظيم يحتاج إلى دراسة عميقة لأسراره وعلى ضوء ما سبق في هذا الباب نجد الفصل بارزاً في هذه الآيات الكريمة.

بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ (١).

وبين قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَلِقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيءَامَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ (٢) وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ﴾ (٤٠) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾ (٣) وبين قوله تعالى: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقوله: ﴿لَا

يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٤) وبين قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٥) وكذلك الفصل بين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٦).

محسنات الوصل:

للوصل محسنات، تكسبه حسناً وجمالاً، وتكسوه رونقاً وبهاءً وهو أن تتفق الجملتان في الاسمية، أو الفعلية، وتتناسب الجملتان الفعليتان في المضي والمضارعة، وفي الإطلاق والتقييد، ولا يعدل عن ذلك إلا لغرض، أو مانع أو أن يراد الإطلاق في إحداهما

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

والتقييد في الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ ﴿١﴾ فَالجملة الأولى مطلقة ، والثانية مقيدة ، لأنَّ الشرط مقيد للجواب ﴿٢﴾ وقد لوحظ في السورة هذا اللون بكثرة ، وقد مرَّ تفصيله عند الحديث عن الوصل ، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ﴿٣﴾ .

فالفعل ﴿ تكفرون ﴾ و﴿ تجعلون ﴾ أفعال مضارعة وقد اتحدت في المسند إليه ، وقد حسن إفادة هذين الفعلين المضارعين للتجدد والحدوث .

ويظهر محسن الوصل جلياً إذا نحن تتبعنا الآيات التالية لهذه الآية في قوله تعالى: ﴿ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤) .

حيث نجد هذه الجمل قد اتفقت في الخبرية ، وفي المسند إليه وفي نوع الأفعال حيث كانت أفعالاً ماضية «جعل ، وبارك ، وقدر ، واستوى ، وأوحى ، وزينا» .

ومما زاد من جمالها ما أحدثته من إيقاع وتلاؤم صوتي فريد فهذه الجمل أفعال ماضية جاءت لتفصيل مظاهر القدرة والإبداع ومجيئها ماضية يدل على تحققها واستقرارها ، ويشعر بظهورها لمن أراد أن يتأمل ، والسورة الكريمة مليئة بهذا اللون ، ومن محسنات الوصل استواء الجملتين المعطوفتين في التقييد كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٥)

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨ .

(٢) انظر: مفتاح العلوم (١٣١) .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩ .

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٢ .

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٤ .

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(١) ومن ذلك التناسب في الأمر والنهي كما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣) وإنما يعد التناسب الحاصل فيما ذكر من محسنات الوصل حسناً ما لم يدع داع إلى المخالفة فلو دعا داع إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي واقتضاها المقام، انظر إلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٤) فقد أثر التعبير بالمضارع ﴿يخادعون﴾ ليفيد أنّ خداع المنافقين حادث متجدد، وبالاسم ﴿خادعهم﴾ ليفيد أنّ فعل الله ثابت ودائم في جميع الأحوال، وفي هذا زيادة في التنكيل والتعذيب^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٥) علم المعاني، دراسة بلاغية، د/ بسيوني (٢/٢١٣).

المبحث الثاني البيان والبديع في سورة فصلت

ويشتمل على المطالب الآتية :

المطلب الأول: البيان في السورة الكريمة

ويشتمل على الآتي :

أ - التشبيه

ب - الاستعارة

ج - المجاز المرسل

د - الكناية

هـ - التعريض

المطلب الثاني: البديع في السورة

ويشمل الآتي :

أ- وجوه البديع المعنوي

ب - وجوه البديع اللفظي

المطلب الأول علم البيان في السورة

أ - التشبيه:

من الملاحظ أنّ الصور التشبيهية تقل في السورة إذا قيست بنظائرها من سور القرآن، فلم يرد التشبيه إلا في المواضع الآتية:
 أولها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ﴾^(١) وأداة التشبيه هنا «مثل» وكما يقول صاحب البصائر بأنها عامة في قوله: «الند يقال فيما يشاركه في الجوهرية فقط، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة، والشبه يقال: فيما يشاركه في الكيفية فقط والمساوي يقال فيما يشاركه في الكمية فقط: والمثل عام في جميع ذلك»^(٢).

فأتت هنا للدلالة على المساواة والمطابقة في الجنس والمساواة في صفاته، وقد ورد استعمال هذه الأداة في آية ثانية من آيات السورة الكريمة. في قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلَّ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾^(٣) ففي هذه الآية الكريمة إنذار وتحذير لكفار قريش من أن تصيبهم الصاعقة التي أهلكت عادًا وثمود، وهو تشبيه مفرد محسوس بمفرد محسوس فالعقاب مماثل له في الجنس والمقدار، أما وجه الشبه: فهو الإهلاك والإبادة والغرض من التشبيه: الانذار والتخويف.

التشبيه البليغ:

وهو ما ذكر فيه الطرفان فقط وحذف منه الوجه والأداة،

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٤/٤٨١).

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٣.

وسبب تسميته بذلك، لأنَّ حذف الوجه والأداة يوهم اتّحاد الطرفين، وعدم تفاضلهما فيعلو المشبه إلى مرتبة المشبه به، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه، أما ذكر الأداة فيفيد ضعف المشبه وعدم الحاقة بالمشبه به، كما أنَّ ذكر الوجه يفيد تقييد التشبيه وحصره في جهة واحدة^(١).

ومن أمثلة التشبيه البليغ في السورة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) أي وهي كالدخان فهنا تشبيه بليغ صوري، لأنَّ صورتها صورة الدخان في رأي العين.

ومنه قوله تعالى عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾^(٣) وهذا تشبيه بليغ، حيث شبه القرآن بالضياء الحسي وشبهه أيضًا بالدواء المزيل للأمراض، فقد جعل القرآن هو الهدى نفسه، والشفاء نفسه، يهديهم إلى سبيل الرشاد ويشفيهم من أوصاب الجنون، وكل ذلك يدل على كماله في الهداية والشفاء، حيث صار المشبه عين المشبه به، بلا تفاوت، وهذا ادعى للبلاغة والتوكيد.

ومن التشبيه البليغ قوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾^(٤) أي: إلا مثل ما قد قيل للرسول من قبلك. التشبيه بالأداة «كَانَ»

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٥) والآية

(١) انظر: علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي (٢١٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

فيها تشبيه مرسل مجمل، وهو ما ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشبه.

فالمشبه: من يقابل على السيئة بالحسنة.
والأداة: كأن.

المشبه به: العداوة المنقلبة إلى الصداقة. «الولي الحميم». وفي حذف وجه الشبه هنا فتح لنوافذ التخيل والتصوير على مداها خصوصاً في مثل هذا التشبيه الذي يحمل الغرابة والعجب. وحذف وجه الشبه، يدعو المرء إلى التفكير في الصفة أو الصفات المشتركة التي جعلت المشبه مماثلاً للمشبه به، مما يضيف على الصورة لوناً من الغموض والإيحاء يبعدها عن مدى الظاهر، ويفسح في المجال للتخيل والتصوير^(١).

وكلام العلماء يدل على أن الأحوال في مثل ذلك لا تتحقق فيها الولاية الكاملة وإن قاربت.

قال أبوحيان: «قال ابن عطية: دخلت كأن للتشبيه، لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم^(٢)».

والتشبيه، بـ«كأن» فيه من المبالغة والتأكيد ما لا يكون مع «الكاف» لذا فهي تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يعتقد أن المشبه هو المشبه به، لا غيره ولذا قالت بلقيس عندما رأت العرش: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾^(٣) (٤).

(١) علم أساليب البيان، للدكتور غازي يموت ص(١٥٠).

(٢) البحر المحيط (٤٧٦/٧).

(٣) سورة النمل، الآية: ٤٢.

(٤) وانظر: كلاماً مطولاً هنا حول هذا الموضوع في عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (٣/٣٩٤).

ب - أسلوب الاستعارة:

أولاً: الاستعارة التصريحية الأصلية:

وتعرف بأنها كل استعارة حذف منها المشبه، وذكر فيها المشبه به، ولذا سميت تصريحية، وكما هو معروف عند البلاغيين أنّ اللفظ المستعار إذا كان اسماً جامداً بنوعية أطلقوا على التعبير به مفهوم الاستعارة الأصلية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا سَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٦) حيث شبهت الكواكب بالمصباح متألثة، لأنها ترى متألثة كالمصباح فالمصباح هنا مستعارة للكواكب بجامع التلاؤ في كل، وهذه الاستعارة تصريحية أصلية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ (١) فقد شبه الكفر بالعمى، لأنّ الكافر ضال عن القصد متعسف الطريف كالأعمى وشبه الإيمان بالهدى، لأنّ المؤمن مهتد إلى محجة القصد، وسواء السبيل ثم حذف المشبه في كليهما وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومن الاستعارة الأصلية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) حيث شبه الدعاء المتكرر الملح فيه بالمكان العريض المتسع في المساحة، ﴿فعريض﴾ هنا مستعار، وحقيقته كثير، والاستعارة أبلغ، لأنّ المعنى أظهر بوقوع الحاسة عليه.

ثانياً: الاستعارة التبعية:

قرّر البلاغيون أنّ لفظ المستعار إذا كان فعلاً أو مشتقاً أو حرفاً كان تحت مصطلح الاستعارة التبعية^(٢).

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص(٣٨٠).

ومن أمثلتها في السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) فقد شبه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب الإنبات بإحياء الميت، فأطلق على ذلك ﴿أحياءها﴾ على طريق الاستعارة التبعية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾^(٢).

ففي ﴿خاشعة﴾ استعارة تبعية واسم الفاعل مستعار من الخشوع، وأصل معنى الخشوع التذلل فاستعير استعارة تبعية لحال الأرض في السكون، وكونها مجدبة لانبات فيها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾^(٣).

فالاستعارة هنا في جملة ﴿يلحدون﴾ والإلحاد: الميل وهو لغة الحفر في الأرض مع الميل والانحراف إلى شق فيها، فلا يكون الحفر مستقيماً بل يكون معوجاً فاستعير هذا المحسوس هنا للمعنوي على طريقة الاستعارة التبعية، وقد أظهرت لنا هذه الاستعارة الأمر المعنوي، في هيئة المحسوس توضيحاً له، وتقريراً، وأنه أمر عظيم خطير، فإيقاع الإلحاد على آيات الله فيه تشنيع وتبشيع لسوء صنيعهم، وأنهم قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الضلال البعيد. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾^(٤) ففي الآية استعارتان.

الأولى: شبه فيها الإحساس بالنعمة بالذوق بما يذاق من الطعام بجامع التأثير في كل، ثم اشتق من الذوق الفعل أذقناه على سبيل الاستعارة التبعية.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

وفي الثانية: شبه الإصابة بالمس بجامع الإيلام في كل، ثم اشتق من المس الفعل مسته بمعنى أصابته على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا﴾^(١).

حيث شبه الغفلة عن شكر المنعم أو التعمد في ترك الشكر بالإعراض وهو الانصراف عن الشيء واشتق من الإعراض الفعل أعرض بمعنى انصرف عن الشيء، على طريقة الاستعارة التبعية.

ومثلها الاستعارة في الفعل «نأى» حيث شبه عدم التفكير في المنعم وعدم الاشتغال بذلك «بالنأي» وهو البعد على طريقة الاستعارة التبعية التصريحية.

الاستعارة في الحرف:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٢).

فحرف الظرفية في قولهم قلوبنا في أكنة مستعار لتمكن هذا الكنان أو الغطاء من قلوبهم حتى كأن قلوبهم مظلوفة فيه ففيه تشبيه للأكنة بالظرف والقلوب بالمظلوف.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: هلاً قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل - وفي آذاننا وقر - ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على نمط واحد، لأنه لا فرق بين قولك: قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ولو قيل: «إنا جعلنا قلوبهم في أكنة، لم يختلف المعنى، وترى المطابع

(١) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

منهم لا يُراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني^(١).
والحقيقة التي يشهد لها النظم القرآني أنّ لكل حرف خصوصيته، فحرف «في» للوعاء، و«على» للاستعلاء، فإذا جاء أحد هذين الحرفين مستعملاً في غير معناه الذي وضع له في أي نص من النصوص القرآنية كان ذلك لمعان بلاغية، ولطائف دقيقة وأسرار بديعة.

وأما ماورد من آيات مشابهة لآية سورتنا الكريمة كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾^(٣) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴾^(٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ^(٥) فهو إخبار من الله تعالى بعدم نفاذ الحق إلى أسماع الكافرين وإشراق نور الهداية على قلوبهم يكفي فيه جعل الأكنة مستعلية على القلوب دالة على أنّها أغطية تحول دون وصول الهداية إليها، أما آية سورة فصلت التي نحن بصددنا فقد جاءت على السنة المشركين مكتسبة ثوباً من المبالغة في رفض الاستماع، معلنين أنّ حرفاً واحداً لن ينفذ إلى أسماعهم، حيث إنّ قلوبهم محاطة بأغطية كثيفة وقد شملتها اشتمال الظرف للمظروف، بحيث لن تجد دعوة الرسول ثغرة إلى تلك القلوب.

وإمعاناً في تكثيف الموانع والحواجز، أعلنوا أنّهم أقاموا حجاباً عظيماً يمنع من وصول صوته إليهم، لهذا كانت «في» الدالة

(١) الكشاف للزمخشري (٤/١٨٠، ١٨١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٥، ٤٧.

على احتواء الأكنة للقلوب وإحاطتها بها هي الأنسب لهذا المقام^(١).
ومن الاستعارة في الحرف قوله تعالى في آخر السورة: ﴿أَلَا
إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

والمرية: بكسر الميم وهو الأشهر فيها، بمعنى: الشك: وحرف
الظرفية مستعار لتمكن الشك بهم حتى كأنهم مظروفون فيه^(٣).

الاستعارة في زمن الفعل:

ويكون ذلك عندما يعبر بالماضي عن المستقبل إفادة لتحقيق
الوقوع، أو التعبير بالمضارع عن الماضي استحضاراً لهيئة حال
ماضيه ومن أمثله من السورة قوله تعالى: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٤)، فقد عدل عن المضارع المستقبل
إلى الماضي: في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ فصيغة الماضي
للدلالة على تحقق الإنذار النبوي عن تحقق المنذر به إن استمروا
على إعراضهم فالعدول عن المضارع المستقبل إلى الماضي للدلالة
على أن ما يندرهم به أمر متحقق لا مندوحة عنه إن تحقق الشرط.
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِن آلِ
وَإِلَٰهِسَ بَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾^(٥).

فقد عدل عن صيغة الاستقبال في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول^(٦).

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضري، (ط ١)، (القاهرة،
مكتبة وهبة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩) ص (٥٩، ٦٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٢٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٦) التحرير والتنوير (١١/٢٨٠).

الاستعارة المكنية:

وهي كل استعارة حذف منها المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، ومن أمثلتها في السورة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) حيث شبه الصاعقة بعدو اجتاح ديارهم وحذف المشبه به، وأثبت لا زم من لوازمه وهو الأخذ على سبيل الاستعارة المكنية، وسرّها البلاغي هو البلاغة في تصوير أثر الصاعقة.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) حيث شبه الإحساس بالعذاب بما يذاق كالطعام وحذف المشبه به وهو الطعام ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الذوق حيث قدم لهم ما لا يذاق في الطبع والجملة في صورة شيء يذاق كالطعام على وجه التهكم بهم، والإذاعة من ملائمت الطعام.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣) حيث شبه القرآن بشخص حمي من جميع جهاته فلا يمكن أعداؤه من الوصول إليه، لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين^(٤) وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَّ دُعَاءِ عَرِيضٍ﴾^(٥) والاستعارة في قوله ﴿عريضة﴾ وهو هنا بمعنى كثير مستمر وهو مستعار مما له عرض متسع للإشعار بالكثرة

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٤) حاشية الشهاب (٣١٨/٨).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥١.

في الدعاء والاستمرار فيه وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما بالك بطوله، فالاستعارة هنا ممكنة حيث شبه الدعاء بأمر ممتد وأثبت له لا زمه وهو العرض بمعنى الاتساع.

الاستعارة التمثيلية:

وقد عرّفها البلاغيون بأنها «اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي»^(١).

وأول ما يلقانا في السورة الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾^(٢)، حيث وجد في هذه الآية الكريمة ثلاث استعارات تمثيلية، لنبوّ قلوبهم وبعدهم عن إدراك الحق وقبوله، ومج أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم، وموافقتهم للرسول ﷺ وقد مرّ تفصيل ذلك وما فيه من روعة التصوير بالاستعارة في مبحث الصورة الفنية، فلذلك اكتفى بهذا التنبيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْآرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾^(٣)، حيث شبه حال جدوبة الأرض وخلوها من النبات، ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر، وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب، وإنبات كل زوج بهيج، بحال شخص كئيب كاسف البال، رث الهيئة، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهواً، فيهتز بالاعطاف، فحذف المشبه، واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه، هذا

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن د/ عبدالفتاح لاشين (١٩٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

ويقول الشهاب «وفي الكشف يشعر بأنه ليس من التمثيل»^(١).
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢) فهنا استعارة تمثيلية شبه فيها حال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من ينادى من مكان بعيد، لا يبلغ إليه في مثله صوت المنادي وإذا كان النداء من مكان بعيد، فإنَّ المنادي لن يفهم من النداء شيئاً^(٣).

ج - المجاز المرسل:

وهو اللفظ المستعمل في غير معناه الأصلي، لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي^(٤).
والمجاز المرسل ضرب من التوسع في أساليب اللغة، حيث ينقل اللفظ من مدلوله الأصلي، إلى مدلول جديد، فيبعث على التأمل ويثير الخيال والتفكير، ويشرع للمعاني آفاقاً عريضة، تُسرُّ بها النفس، ويستسيغها الذوق، ومما جاء منه في السورة الكريمة المواضيع الآتية.

ما كانت علاقته السببية ويظهر في قوله تعالى عن قول المشركين ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٥)، فاستعمال الوقر بمعنى الصمم مجاز مرسل علاقته السببية وفيه تصوير للمعنى، وتأکید له فقد أطلق لفظ السبب وهو الوقر وأريد المُسبب، وهو عدم السماع البتة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٦) حيث أطلق السبب - الجد الأكبر - وأريد

(١) ينظر: حاشية الشهاب (٣١٦/٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٣) انظر: الإيضاح (٢٥٤).

(٤) انظر: الإيضاح (٢٥٤).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٣.

المسبب، وهو القبيلة المسماة «عاد» نسبة إلى جدهم الأكبر^(١).
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾
ففي قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ كناية عن سوء مجازاتهم وفيه
تهديد لهم بالمجازاة والعذاب المنتظر فقد أطلق السبب وأراد
المسبب وهي المجازاة والعذاب.

ومما ورد من علاقات المجاز المرسل في السورة.
المحلية: وذلك بأن يطلق لفظ المحل ويراد الحال ومنه قوله تعالى:
﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾^(٢) أي أوجد في الأرض
ما يحتاج إليه أهلها وساكنوها من القوت، فالمراد أقوات أهلها على
سبيل المجاز المرسل فقد أطلق المحل وأراد الحال، وهذا لتأكيد
أنه قدر من الأقوات ما يسع من في الأرض وما فيها فهو للأرض
كلها، وهذا القوت قدره الله تعالى للسائلين أي الطالبين المحتاجين
له. ففي الأرض من الكنوز ما يلائم كل عصر ومتطلباته، ففي عصر
النهضة، أصبح النفط عنصر الحياة البشرية إلى ما شاء الله أن يكون.
ومن علاقات المجاز المرسل في السورة المستقبلية: ويظهر
ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيَّتَكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) ففي قوله تعالى في يومين،
مجاز مرسل، يظهر في تسمية المدة باليوم، ولم يكن هناك وجود
ليوم قبل خلق الله عز وجل للأرض والسماء والشمس، وعلاقة هذا
المجاز اعتبار ما سيكون، وسرّه بيان مقدار المدة التي خلق الله فيها
الأرض^(٤)، وفي ذلك دلالة على القدرة العظيمة الخارقة وكل ذلك

(١) التفسير البلاغي للاستفهام (٨/٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام (٦/٤).

كان في مجال تذكير المعرضين بعظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته فهو المستحق بأن يعبد وحده لا شريك له .
ومن علاقاته في السورة .

الإطلاق والتقييد:

ويظهر ذلك في أدوات الاستفهام والأمر والنهي، والتمني والنداء إذا خرجت عن معانيها التي وضعت لها، وغرضها الذي سيقى من أجله، فهي مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، فإذا قصد من الاستفهام النفي أو التقرير أو التعجب، . أو أي غرض آخر فهو مجاز مرسل مركب، وقل هذا في أقسام الإنشاء جميعها^(١).

وسنأخذ لذلك أمثلة من السورة للتمثيل وليس للحصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾^(٢) حيث أطلق الاستفهام وأريد به النفي بمعنى لا أحد أحسن منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَنَنْتَلِقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ فقد أطلق الاستفهام من قيده، ثم قيده بإرادة إنكار المساواة وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾^(٣).

فقد أطلق الاستفهام وأريد به التصور والاستحضار للصورة في الذهن لتجري عليها الأحكام وهي حاضرة ففيه مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد.

ومثال المجاز المرسل في الأمر قوله تعالى: ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٤) فهنا مجاز مرسل مركب، لأن صيغة الأمر هنا

(١) ينظر: البلاغة فنونها وأفانها، د/ فضل حسن عباس (١٩٨/٢).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

قد خرجت عن مدلولها الذي وضعت له إلى معنى آخر وهو التهديد والعلاقة هنا اللزومية، فهذه المعاني الفرعية لازمة للمعاني الأصلية الرئيسة التي وضعت لها هذه الصيغ^(١) وهكذا نجد المجاز المرسل في الأساليب الإنشائية التي خرجت عن مدلولها إلى مدلول مجازي آخر.

د - الكناية:

والكناية عند البلاغيين هي: «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»^(٢).

ويرى الإمام عبد القاهر: «أنَّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح» ويوضح ذلك فيقول: «إِنَّكَ لما كُنيتَ عن المعنى، زدت في ذاته، بل المعنى أَنَّكَ زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشد، فليس المزية في قولهم: جَمُّ الرماد أَنَّهُ دَلٌّ على قرى أكثر، بل إِنَّكَ أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادعيتة دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق»^(٣).

ويقول: «إِنَّ إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها، هكذا ساذجاً غفلاً وذلك أَنَّكَ لا تدعى شاهد الصفة ودليلها، إلاَّ والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط»^(٤).

ومن أمثلتها في السورة قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥) كنى في هذه الآية عن معنى عدم الطاعة والقبول

(١) المصدر السابق ص (١٩٩).

(٢) الإيضاح (٣٠١).

(٣) دلائل الإعجاز (٧٠).

(٤) المصدر نفسه (٧٢).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

والاستجابة بنفي السمع عنهم ، فنفي السماع عنهم نفيًا للازمه، وهو الانتفاع والاستجابة، والكناية كما هو معلوم تعرض المعنى مصحوبًا بدليله وهذا أبلغ وأكد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِيتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنْبَأْنَا طَآئِعِينَ﴾^(١) ففي قوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كناية عن استحالة امتناعهما على قدرته وأنهما لا تملكان إلا الانقياد والخضوع، فالكناية هنا كناية عن صفة الخضوع والانقياد، وهذا تأكيد للمعنى بمعنى أنها لا تملك المخالفة قط.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ كناية عن كثرة الرسل الذين أرسلوا إليهم أو هو كناية عن الحرص الشديد، والكناية هنا أبلغ في تصويرها للمعنى وتأكيديه وفي هذه الكناية مبرر لاستحقاقهم العذاب، ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(٢) فقد عبر هنا عن اسم الجلالة ﴿الله﴾ بالموصول «الذي» والصلة «خلق الأرض» لتشديد الإنكار والتلويح بغائبهم عن الطريق البرهاني «الكناية» حيث اقتران الدعوى بدليل صدقها وصحتها، فهم كفروا بالخالق العظيم الذي له في كل شيء آية تدل على أنه الواحد^(٣).

والكناية هنا كناية عن غائبهم وحمقتهم وهي كناية عن صفة. وفي قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ﴾^(٤) أي ما كانوا يدعونه ويتشبثون به من الأصنام التي أشركوا بها فهي قد ضلَّت عنهم ولن تنفعهم أو تدفع عنهم شيئًا فقد

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام (٩/٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٨.

كنى بالضلال عن الحيرة والقلق يوم القيامة الذي يصيبهم، وفي هذا تصوير لهم عن خيبتهم وانقطاع أملهم.

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١) ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كناية عن الحياة الدنيا، لأن من العصاة من كان ينكر الخلق الثاني بعد الموت، وكان الرسل عليهم السلام يستدلون لهم بالخلق الأول، على إمكان الخلق الثاني «البعث» وعدل عن تذكيرهم بالخلق الثاني، لأنه حقيقة واقعة وأوثر بتقرير ما أنكروه من قبل.

وقد نقل كثير من المفسرين القول بالكناية عن الموصوف في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ (٢) فقد كنى بالفروج عن الجلود (٣).

وقد نقل الطبري هذا القول وقال: «وهذا القول الذي ذكرناه عمن ذكرنا عنه في معنى الجلود، وإن كان معنى يحتمله التأويل، فليس بالأغلب على معنى الجلود ولا بالأشهر، وغير جائز نقل معنى ذلك المعروف على الشيء الأقرب إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم بها» (٤).

وإلى هذا مال الطاهر بن عاشور، حيث يقول في عده كناية عن الفروج «وهو تعنت في محمل الآية لا داعي إليه بحال، وعلى هذا التفسير بنى أحمد الجرجاني في كتاب كنايات الأدباء، فعدّ الجلود من الكنايات عن الفروج وعزاه لأهل التفسير فجازف في

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٣) انظر: الكشاف (٤/١٩٠)، المحرر الوجيز (٥/١١)، تفسير أبي السعود (٨/١٠)، روح المعاني (٢٤/١١٥)، البحر المحيط (٧/٤٧١).

(٤) تفسير الطبري (٢١/٤٥١).

التعبير»^(١) فالأولى عدُّ ذلك نطقًا للجلود على ظاهر الآية لا كناية عن الفروج ومن أمثلة الكناية عن الموصوف قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٢)، فعلم الساعة كناية عن موعد قيامها المقدر في علم الله.

والكنايات في السورة شواهد متعددة وهي كالتالي:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا﴾^(٣) فالآية الكريمة فيها كناية عن تفويض الأمر في العمل، بجزاء المعرضين المشركين إلى الله تعالى، وأنَّ محمدًا عليه الصلاة والسلام، ليست مهمته إلا تلقي الوحي وتبليغه كما أمر.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، في الآية الكريمة كناية عن قصر مدة الخلق للأرض في قوله تعالى: ﴿في يومين﴾ حيث يدل هذا الوقت على أنها خلقت في مدة وجيزة، فكيف يعقل الكفر بالله تعالى وهذا أمره وخلقُه وصنعه.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٥) في الآية هنا كناية عن التكذيب أي أن هؤلاء القوم في كلامهم هذا يقصدون التكذيب للرسالة والرسول.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٦) ففي قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كناية عن الكثرة فهي تبين أن كثرة المحشورين أدت إلى وزع الملائكة بعضهم عن بعض، لأنهم قد اختلطوا ببعضهم من الكثرة وضيق المكان بهم.

(١) التحرير والتنوير (١١/٢٦٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٩.

ومن قول الملائكة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١) النهي في الآية كناية عن التأمين من جانب الله تعالى حيث إنهم إذا تحققوا من الأمن زال الخوف من نفوسهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢) في دلالة «إذا» التي للمفاجأة كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾^(٣) في قولهم ﴿أرنا﴾ كناية عن إرادة انتقامهم ممن أضلَّهم، وهكذا قد رأينا كيف قامت الكناية القرآنية في السورة الكريمة في أداء المعاني وتصويرها وتوكيدها عبر اقتران الدعوى بدليلها، وهي مع ذلك قد أدت المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وكثيراً ما تعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية في المواضع التي وردت فيها.

التعريض:

وهو من المباحث التي تتوقف على الملاحظة وتحسس ظلال التراكيب، واستشعارها، والذي يظهر من خلال السياق، وهذا الذي يميزه عن الكناية^(٤).

ومن أمثله في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٥)، وإثبات الماضي هنا ﴿استكبروا﴾

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٤) التعريض: هو «أن تذكر جملة من القول تريد بها شيئاً آخر، ولكن هذا الشيء لا يفهم بطريق اللزوم كما هو الحال في الكناية، وإنما يفهم من السياق».

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٥.

فيه دلالة على تحقق استكبارهم ووقوعه منهم: ﴿وفي الأرض﴾ ظرف مكان للاستكبار، وفي ذلك تعريض بهم حيث إنهم في الأرض ويتكبرون، وفي ذلك تعريض عظيم بوضاعتهم وانحطاطهم، وافتعال هذا التكبر منهم، وهم في أرض الله تحت رحمته ولطفه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) هذه الآية الكريمة جاءت بعد أن استوفى الكلام عن الأمم الماضية المشركين المكذبين من ذكر لعذابهم في الدنيا وما أعد لهم من عذاب في الآخرة مما فيه عبرة للمشركين الذين كذبوا محمداً ﷺ بطريق التعريض (٢)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣).

وهذه الآية ذكرت بعد الكلام عن الذين يلحدون في آيات الله، وفيها تعريض بهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤)، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر من قبله من الرسل بطريق التعريض (٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٦) وهذا وعد من الله عز وجل لرسوله ﷺ على سبيل البشارة والتسلية بأن الله سيظهر آياته للمشركين حتى يدركوا بأن

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٢/١٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٥) التحرير والتنوير (٣١٠/١١).

(٦) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

القرآن حق منزل من عند الله فلا يسعهم إلا الإيمان به، أي أنّ القرآن حق بين غير محتاج إلى اعترافهم بحقيقته، وستظهر دلائل حقيقته في الآفاق البعيدة عنهم، وفي قبيلتهم وفي أنفسهم.

وفي هذا الوعد للرسول ﷺ تعريض بهؤلاء المشركين إذ يسمعون على طريقة: فاسمعي يا جاره^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ حيث أطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث، لأنّ جزمهم خلّي عن الدليل الذي يقتضيه، فكان إطلاق الشك عليه تعريضاً بهم، بأنّ الأولى بهم أن يكونوا في شك على الأقل^(٢).

(١) ينظر: المصدر السابق (١٢/١٨).

(٢) المصدر نفسه (١٢/٢٢).

المطلب الثاني البديع في السورة

- (أ) وجوه البديع المعنوي .
- (ب) وجوه البديع اللفظي .

(أ) وجوه البديع المعنوي

أولاً: الطباق والمقابلة:

وهو في اصطلاح البلاغيين: «الجمع بين المتضادين في كلام واحد، أو ما هو كالكلام الواحد في الاتصال»^(١).

طباق الإيجاب:

وهو ما كان طرفاه مثبتين معاً أو منفيين معاً.

وأول ما يواجهنا منه في السورة قوله تعالى: ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣) فالطباق في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهو بشير لمن آمن وأطاع ونذير لمن أعرض وعصا، وقد جاء الطباق ليرسخ هذا المعنى، ويبرزه، ويجعلنا أكثر التفاتاً له ووقوفاً عنده وتأملاً له.

يقول الطاهر بن عاشور: «والجمع بين ﴿بَشِيرًا﴾ و﴿نَذِيرًا﴾ من قبيل محسن الطباق»^(٣)، والطباق من أبرز الأساليب التي تبين قدرة الله تعالى في الكون في نظم بليغ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٤).

فالطباق هنا بين اسمين السموات والأرض، وبين كلمتي ﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾ وفيه دلالة على الخضوع والانقياد وأنها لا تملكان غير ذلك فلم يكن منهما إلا الامتثال والأذعان لقدرة العظيم الجبار.

(١) دراسات منهجية في علم البديع، للدكتور الشحات محمد أبوستيت، (ط ١)، (القاهرة، دار خفاجي للطباعة والنشر ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ص (٣٣).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣، ٤.

(٣) التحرير والتنوير (١١/٢٣٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

ومن طباق الإيجاب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾^(١) فالطباق هنا بين كلمتي ﴿العمى﴾، و﴿الهدى﴾. وفيه إبراز للمعنى، وأنهم تركوا البصيرة وحرموا أنفسهم منها، وهي الهدى وأحبوا الضلالة والزيغ وهي العمى، وهذا الطباق كما هو واضح، طباق مجازي أظهر لنا المعنى في عبارة وجيزة، لها دلالات كثيرة وبيان واسع لطيف.

ومن طباق الإيجاب في الأسماء ما في الآيات التالية. في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(٢)، فالطباق هنا بين ﴿الجن﴾ و﴿الإنس﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) الطباق في الآية بين ﴿الحسنة﴾ و﴿السيئة﴾ وهو من طباق الإيجاب المنفي وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٤) فالطباق هنا بين اسمين هما ﴿الليل﴾ و﴿النهار﴾.

ومن الطباق في السورة بين الأسماء ما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾^(٥). والطباق في الآية بين ﴿أعجمي﴾ و﴿عربي﴾، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُنُوهُ﴾^(٦). فالطباق بين اسمين هناهما ﴿الخير﴾ و﴿الشر﴾ والطباق في هذه الآيات طباق إيجاب والألفاظ مستعملة فيه على حقائقها اللغوية، فالطباق في الآيات لا مجاز فيه.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾^(١) الطباق هنا يظهر أنّ الإنسان مهما أوتي من الخير والنعمة لا يذكرها حين يمس بشيء، يسير من الضراء وإن مسته النعمة بعد الضراء نسي ما كان فيه، وجحد المنعم في فضله يدل على ذلك قوله: ﴿لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وهذا ما أبرزه الطباق بين كلمتي ﴿رحمة﴾ و﴿ضراء﴾

ظهور التضاد وخفاؤه:

والتضاد بين المعنيين قد يكون ظاهرًا، كما في الأمثلة السابقة، وقد يكون خفيًا كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَاهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(٢) فالطاق بين يصبروا، ويستعتبوا بمعنى لم يصبروا وطلبوا العذر فلن ينفعهم العذر ولن يقبل منهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣)

فالطاق بين ﴿استكبروا﴾ وفيه نفي للعبادة والطاعة ونفوز منها، وبين ﴿يسبحون﴾ وفي التسبيح عبادة وطاعة وإقبال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤) فالطاق بين ﴿يلقي﴾ وفيه معنى الإهانة و﴿يأتي﴾ وفيه معنى التكريم، لأنّه يأتي مكرماً غير مهان، وفي قوله ﴿في النار﴾ يقابل قوله: ﴿آمِنًا﴾ لأنّ النار لا أمن فيها فهي عذاب وويل وشقاء.

طاق السلب:

وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا أو جمع فيه بين فعلين

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

أحدهما أمر والآخر نهى^(١)، ومن الأمثلة على هذا النوع من السورة. قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٢) فالطباق بين ﴿لا تسجدوا﴾ و﴿اسجدوا﴾ وقد أدى هذا الطباق معنى التوكيد في النهي عن العبادة لغير الله، ونفي الشرك به، وإثبات العبادة له وحده، ففي النفي واتباعه بالإثبات المتمثل في الأمر تأكيد لهذه المعاني التي برزت عبر الطباق في أقوى صورة من التأكيد.

ومن طباق السلب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيَّمْ عَمًى﴾^(٣).

فطباق السلب بين قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد أدى هذا الطباق إلى عقد مقارنة بين حالتين مختلفتين وأثر القرآن على كل منهما ويظهر في الآية من الطباق الشيء، الكثير فهناك مقابلة بين الهدى والشفاء يقابلهما الوقر والعمى، فالوقر داء يقابل الشفاء والهدى ضياء وبصيرة يقابله العمى، فالطباق هنا قد بين قمة التفاوت بين من آمن بالقرآن ومن كفر به وقد عدّه الطاهر بن عاشور من محسن الطباق^(٤).

المقابلة:

وفي تعريفها يقول الخطيب: «هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب»^(٥).

ومن أمثلتها في السورة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ

(١) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع (٤٢).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٤) التحرير والتنوير (٣١٦/١١).

(٥) التلخيص في علوم البلاغة (٣٥٢).

أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴿١﴾ فقد قوبل هنا بين معنيين، وهما العمل الصالح الذي يكون مدخرًا تكتسبه النفس فيكون لها برحمة الله نجاةً من عذابه وبين العمل السيء الذي يكون وبالاً على النفس، وطباق المقابلة هنا يعقد للنفس ما بين الأمرين لتختار ما يصلح لها فيكون لها لا عليها.

ومن المقابلة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودًا كَأَن عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ (٢).

فالمقابلة بين ﴿أنعمنا، وأعرض وثنًا﴾ وبين ﴿مسه الشر، ودعاء عريض﴾ فالنعمة يقابلها مس الشر والإعراض، أو النأي يقابله الإقبال والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء الكثير والتوسل إليه، ومناجاته عند مس الشر.

وطباق المقابلة هنا يبرز لنا حالتين للإنسان تبين مدى ما هو فيه من حب للنفس وبعد عن الرب، فأظهرت حاله وقت الرخاء والنعمة، وأنه في إعراض عن المنعم وبعد، وحاله عندما يمس بشيء يسير من الضر، فإذا هو مقبل على الله تعالى يدعو ويستغيثه مما ألمَّ به.

هذا وبعد هذا العرض للأمثلة وشرحها نستعرض ما تبقى من الأمثلة على الطباق في السورة وهي كما يلي:

في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ (٣) فالطباق في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ (٤) فالطباق بين

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٦.

قوله: ﴿الحياة الدنيا﴾ و﴿الآخرة﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١) فالطباق بين ﴿عداوة﴾ و﴿ولي حميم﴾، وقوله تعالى لنبيه: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) فالطباق بين مغفرة وعقاب.

وهكذا نجد السورة الكريمة مليئة بالطباق وقد مرّت معنا أقسامه من قبل، والطباق في السورة في لفظه سلس طبع غير متكلف خلع على الكلام جزالة وفخامة، وجعل له وقعا جميلا مؤثرا، وهذا من ناحية اللفظ، أمّا من ناحية المعنى فقد أبرز المعنى وأظهره، وأكدّه وقوّاه عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصوّر أحد الضدين فيه تصوّر للآخر، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهيا للآخر مستعدّا له فإذا ورد عليه ثبت وتأكدّ والأثر المعنوي للطباق في السورة هو القائد إليه، والدافع له، وهذا ما أكدّه، ونبه إليه عبدالقاهر الجرجاني حيث يقول: «وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أنّ الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلّا من جهة المعاني خاصّة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب، والتطبيق أمره أبين، وكونه معنويّا أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال، وليس لأحكام المقابلة ثم مجال»^(٣).

ثانياً: الجمع مع التفريق والتقسيم:

وتعريف الجمع عند البلاغيين: «هو أن يجمع بين شيئين أو

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٣) أسرار البلاغة: (٢٠).

أشياء في حكم واحد»^(١).

والتفريق: «هو التفريق بين شيئين في صفة يشتركان فيها»^(٢).

وأما التقسيم: «فهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين»^(٣).
وقد اجتمعت في ذكر قصة عاد وثمود.

فأما الجمع وبعده التفريق فيظهران في أن جاء الجمع بين عاد وثمود في صفة الكفر، ثم جاء تفريق بينهما بأن ذكرت صفات خاصة بعاد وهي الفسق والاستكبار في الأرض بغير الحق، وفي ثمود بأن ذكر عنهم أنهم استحبوا العمى على الهدى، فكان في الآيات تفريق بعد جمع.

ويظهر التقسيم في أن ذكر المتعدد أولاً في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٤) فالمتعدد هنا: ﴿عاد﴾ و﴿ثمود﴾.

ثم جاءت الآيات التالية تضيف إلى كل منهما ماله على سبيل التعيين، فذكر لعاد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يُجْحَدُونَ﴾^(٥) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ، فذكر العذاب الذي اختصت به عاد على سبيل التعيين فقد أهلكوا بالريح الصرصر، ثم جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٦)، فذكر صفتهم الخاصة وما أهلكوا به وهي الصاعقة التي اختصت

(١) الإيضاح (٣٣٤).

(٢) دراسات منهجية في علم البديع (٢٣٥).

(٣) الإيضاح: (٣٣٤).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٥، ١٦.

(٦) سورة فصلت، الآية: ١٧.

بهم، وفي هذا الأسلوب تفصيل بعد اجمال، وإيضاح بعد إبهام حيث يذكر المتعدد، ثم تفصل أحواله، أو يذكر الشيء وتستوفى أقسامه، فيزداد المعنى بعد ذلك فخامة وتأكيداً حيث ذكر مرتين على طريقتين وهيئتين مختلفتين، وذكر الشيء دون تفصيله على الفور يشوق النفس لمعرفة التفصيل، ويلهب الفكر في التصور، فإذا ما جاءت الأقسام مفصلة والأحوال مبينة ثبت في الفكر وتمكن من النفس، فالكلمات فيه كل واحدة آخذة بحجز الأخرى، فالكلام فيه أخذ بعضه بحجر بعض.

ثالثاً: اللف والنشر:

وقد عرّفه البلاغيون بقولهم: «هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ما لكل واحد من غير تعيين ثقة، بأنّ السامع يرده إليه»^(١).

وله موضع واحد فقط من السورة الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) فقوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ﴾ يجمع قائلاً ومقولاً له فكان الإيماء بوصف ﴿ذو مغفرة﴾ إلى المقول له، ووصف ﴿ذو عقابٍ أليمٍ﴾ إلى القائلين وهو جار على طريقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام تردُّ كلاً إلى مناسبه^(٣).

رابعاً: الاحتباك.

وهو لون بارز في السورة وظاهر في عدد من الآيات الكريمة. وهذا اللون قد عدّه المتأخرون لوناً من ألوان البديع وأطلقوا

(١) التلخيص في علوم البلاغة، وهو تلخيص كتاب «مفتاح العلوم للسكاتي» للخطيب القزويني، تحقيق عبد الحميد هنداوي ص(٩١).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٣) التحرير والتنوير (١١/٣١١).

عليه اسم «الاحتباك» وسماه الزركشي في كتابه البرهان: الحذف المقابلي حيث يقول: «وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه».

ومثل له بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ (٣٥) (١).

والأصل، فإن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون، فنسبة قوله تعالى: ﴿إجرامي﴾ وهو الأول إلى قوله ﴿وعليكم إجرامكم﴾ وهو الثالث، كنسبة قوله: «وأنتم برآء منه» وهو الثاني إلى قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ (٣٥)، وهو الرابع، واكتفى من كل متناسين بأحدهما (٢).

وقد ذكره السيوطي في كتابه الإتيقان، وسماه باسم «الاحتباك» وذكر أنه من أطف الأنواع وأبدعها، وقال: إنه قل من تنبه له أو نبه عليه من أهل البلاغة.

وأشار إلى أنه قد أفرد بالتصنيف من أهل عصره العلامة برهان الدين البقاعي (٣).

ومنه في: السورة الكريمة ما يلي:

فقد عدّ الإمام البقاعي قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمْ﴾ (٤) من الاحتباك، فقال: «ذكر الهداية أولاً دليلاً على حذف الضلالة ثانياً، والعمى ثانياً دليلاً على حذف الإبصار أولاً وسرّه أنه نسب إليه أشرف فعليه، وأسند إليهم ما لا يرضاه ذو روح» (٥) والشواهد التي ذكرها البقاعي على هذا الفن كثيرة، ولأنه كما أشار

(١) سورة هود، الآية: ٣٥.

(٢) البرهان للزركشي (١٢٩/٣).

(٣) انظر: الإتيقان للسيوطي (١٨٢/٣).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٥) نظم الدرر للبقاعي (١٦٧/١٧).

السيوطي قد أفرد هذا الفن بالتصنيف فقد أكثر من تبينه في الآيات .
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١) ، حيث يقول: «والآية
من الاحتباك، ذكر الاستكبار أولاً دليلاً على حذفه ثانياً والتسبيح ثانياً
دليلاً على حذفه أولاً وسرّه أنّه ذكر أقبح ما لأعدائه وأحسن ما
لأوليائه» (٢) .

وذكر الإمام البقاعي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ مِّن يَأْتِي
ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٣) من الاحتباك وتابعه في ذلك الطاهر بن عاشور
وعده من محسن الاحتباك إذ حذف مقابل: ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ ، وهو
من يدخل الجنة، وحذف مقابل ﴿ مَن يَأْتِي ءَامِنًا ﴾ وهو من يأتي خائفاً
وهم أهل النار (٤) .

وضعف ذلك الإمام الألوسي (٥) .

ويرى الشهاب أنّه بعيد، لأنّه لا قرينة تدل عليه ولا يكفي في
مثله سلامة الأمير (٦) .

ومما ذكره الإمام البقاعي من الآيات التي تعد من الاحتباك،
قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي
ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٧) .

ذكر الهدى والشفاء أولاً دليلاً على الضلال والداء ثانياً، والوقر
والعمى ثانياً، دليلاً على السمع والبصائر أولاً، وسرّ ذلك أنّه ذكر

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٨ .

(٢) المصدر السابق (١٧/١٩٦) .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠ .

(٤) انظر: المصدر السابق (١٧/١٩٩) ، وانظر: التحرير والتنوير (١١/٣٠٥) .

(٥) انظر: روح المعاني (٢٤/١٦) .

(٦) حاشية الشهاب (٨/٣١٧) .

(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٤ .

أمدح صفات المؤمنين وأذم صفات الكافرين، لأنه لا أحقر من أصم أعمى^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٢) «أي هذا النوع قليله وكثيره لانتقامنا منه فالآية من الاحتباك، ذكر الإنعام أولاً دليلاً على الانتقام ثانياً، وذكر الشر ثانياً دليل الخير أولاً وسرّه تعليم الأدب بنسبة الإنعام دون الشر إليه، وإن كان الكل منه»^(٣).

ومن آيات الاحتباك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤) والتقدير لا تستوي الحسنة «والسيئة» ولا السيئة «والحسنة» أي أنّ الأعمال الحسنة لا تنحط فتستوي مع السيئة في انحطاطها ولا الأعمال السيئة تسمو فتستوي مع الحسنة في سموها، فخذ في معاملتك للناس بالحسنة وادفع بها السيئة التي قد ترد عليك من عدول يكن لك هذا العدو كأنه صديق.

يقول الطاهر بن عاشور: «وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين، جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه، ولا مجاز»^(٥).

خامساً: المشاكلة:

وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا^(٦).

وبعضهم يرى أنّ في قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ

(١) انظر: الدرر (٢٢٢/١٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٣) نظم الدرر (٢٢٢/١٧).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٥) التحرير والتنوير (٢٩١/١١).

(٦) الإيضاح (٣٢٧).

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿١﴾ أنه من قبيل المشاكلة.

يقول الشهاب: «فلا وجه كما قيل إِنَّ الْقُوَّةَ عَرَضٌ يَنْزِعُ اللَّهُ عَنْهُ، لَكِنَّا مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْقُدْرَةِ فَلِذَا عَبَّرَ عَنْهَا بِالْقُوَّةِ مُشَاكِلَةً»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢) فيمن عدَّ النطق هنا بمعنى الدلالة وليس بمعنى النطق الحقيقي، فإنَّ ذكره هنا للمشاكلة، ولكن الظاهر أنَّ الله أقدرهما على النطق.

يقول الشهاب: «وحمل النطق في قوله ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ على الدلالة، فإنَّه يجوز فيه ذلك فيبقى على عمومه، ويكون التعبير بالنطق للمشاكلة كما قيل»^(٣).

وأما المثال البارز في هذا الفن فهو قوله تعالى: ﴿لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٤) حيث جعل الخزي هذه المرة خبراً للمشاكلة على حدِّ قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخةً

قلت اطبخوا لي جبَّةً وقميصاً

كأنَّه قال خيطوا لي^(٥)

سادساً: التجريد:

وتعريفه عند البلاغيين هو: «أن يتنزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه»^(٦)، ويظهر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾^(٧) فإنَّ جهنم هي دار

(١) حاشية الشهاب (٣٠٤/٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٣) حاشية الشهاب (٣٠٨/٨).

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٥) انظر: الإيضاح (٣٢٧).

(٦) المصدر نفسه (٣٣٩).

(٧) سورة فصلت، الآية: ٢٨.

الخلد، لكن انتزع منها مثلها مبالغة، وجعل معدًا فيها للكفار، تهويلًا وتعظيمًا لأمرها.

«وكلمة في ليست للظرفية، بل للتجريد والمعنى أن النار نفسها هي دارهم وهم خالدون فيها، وفي التجريد مبالغة في كمال تلك الصفة، فالنار مثلاً لما بلغت في كونها دار الخلد بالنسبة إليهم مرتبة عالية، صحَّ معها أن ينتزع منها أخرى مثلها في تلك الصفة»^(١).

يقول الطاهر بن عاشور: «وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار وهو معدود من المحسنات البديعية»^(٢).

سابعًا: المذهب الكلامي:

ويسمى بالاحتجاج النظري أو البرهان العقلي، «وهو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام»^(٣).

وأبو هلال العسكري عند تعرضه له نفى أن يكون منه شيء في القرآن الكريم متابعًا في ذلك ابن المعتز بحجة أنه مظنة التكلف فالقرآن منزّه عنه^(٤).

وابن أبي الإصبع يؤكد وجوده في القرآن، حيث يقول: «والكتاب الكريم مشحون به منه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل، ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ﴾^(٥) إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^{(٦)(٧)}.

والمذهب الكلامي في القرآن لم يأت على الطريقة المنطقية

(١) حاشية زاده (٤/٢٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٧٩).

(٣) التلخيص في علوم البلاغة للخطيب (٣٧٤).

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص (٤١٠).

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

(٧) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص (٣٧، ٣٨).

الجافة بل ساق لهم الحقيقة نابضة حية لا يحير في تمثيلها عقل ولا تجمد في الإحساس بها عاطفة ويتبلد شعور^(١).

وقد ذكر ابن أبي الإصبع قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ضمن المذهب الكلامي وقال: إِنَّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فَإِنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: لَا تَطِيعُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِلَّا رَبَّهُمَا، لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْعَامِلِينَ، وَقَدْ أَطَاعَتَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٣).

ومن ذلك ما جاء في السورة في إثبات الحياة بعد الموت من استدلال بإحياء الأرض بعد موتها، وأنَّ الذي أحيا الأرض وهي موات هامة قادر على إحياء الموتى، وقد جاء هذا الأسلوب متضمنًا للتوكيد نظرًا لإنكار المشركين للبعث بعد الموت.

وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِمْ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤)، حيث قيس إحياء الموتى بإحياء الأرض، وهو المسمى في المنطق بقياس التمثيل وهو يفيد تقريب المقيس بالمقيس عليه، وليس الاستدلال بالشبه والتمثيل بحجة قطعية، بل هو إقناعي، ولكنه هنا يصير حجة، لأنَّ المقيس عليه وإن كان أضعف من المقيس إذ المشبه لا يبلغ قوة المشبه به، فالمشبه به حيث كان لا يقدر على فعله إلا الخالق الذي اتصف بالقدرة التامة لذاته، فقد تساوى فيه قوة وضعيفة، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استنادًا للاستبعاد العادي، فلمَّا نُظِرَ إحياء الأموات بإحياء الأرض المشبه تم الدليل

(١) خصائص التعبير القرآني (٢/٤٣٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٣) بديع القرآن (٢٥٦).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

الإقناعي المناسب لشبهتهم الإقناعية، وقد أشار إلى هذا التذييل^(١) بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢).
ثامناً: الأسلوب الحكيم:

يقصد بالأسلوب الحكيم تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصده إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى^(٢).

ومن أمثله في السورة قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣).
ويتمثل في إجابة الجلود لهم في قولهم: ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عدول عن الجواب عما يقتضيه الظاهر، لأنهم سألوا عن السبب الذي أدى الجلود إلى الشهادة، وكان الظاهر أن يقال في الجواب: أن الله أمرنا أن نشهد عليكم، فعدل عن هذا الجواب إلى ما عليه النظم: ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ ﴾ وهو جواب لسؤال آخر حاصله، كيف صدر منكن النطق؟ وسر العدول إلى خلاف مقتضى الظاهر أعم فائدة من المعدول عنه، حيث يقال إنه الأمر لنا بالشهادة عليكم فأدمجت الإجابة الثانية، وهي المسئول عنها في الأولى وهي المجاب بها، وفي هذا ما يشبه الأسلوب الحكيم^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾^(٥).

فكفار قريش إذا أنذروا بالبعث وساعته كان منهم الاستهزاء

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١١/٣٠٣).

(٢) علم البديع، د/ عبدالعزيز عتيق (١٨٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام (٤/١٢).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

والسؤال عن وقتها وكان ذلك مما يتكرر منهم فجاء الرد عليهم في هذه الآية التي تعني أنه إلى الله يفوض علم الساعة لا إليّ، أي لا إلى الرسول محمد ﷺ، فجاء الرد عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي الأجدر أن تعلموا أن لا يعلم أحد متى الساعة، وأن تؤمنوا بها، وتستعدوا لها، وذلك هو الأولي بالاعتناء بها^(١).

تاسعاً: الإبداع:

ويقصد به ذكر عدة ألوان من البديع في آية واحدة، حتى تكون الآية في غاية من الجمال والرونق، الذي لا يصل إلى مستواه كلام في انسياب بديع، لا تكلف فيه، ولا تزيد، تستدعيها المعاني فتأتي طبيعة منتظمة، انتظاماً بديعاً محكماً لا يجارى. وقد ذكر ابن أبي الإصبع آية الحج^(٢) في هذا اللون وأرى أنّ كلامه فيها ينطبق تمام الانطباق على آية سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) فقد تضمنت الآية مع ما فيها من التكافؤ والطباق، الإرداف^(٤) وهو ضرب من البديع وبيانه للعدول عن لفظي الحركة والسكون الحقيقيين إلى إردافهما من لفظي الخشوع والاهتزاز، لما في لفظ الإرداف من الملاءمة للمعنى المراد، ليأتي لفظها معنوياً بالائتلاف، لأنّ الخشوع يراد به قحط الأرض وموتها، والأرض في حال عطشها من السقي والنبات موات. فكان العدول إلى لفظ الخشوع المعبر به عن القحط والجذب وموت الأرض أولى من لفظ السكون،

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٥/١٢).

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٤) الإرداف: هو أن يريد المتكلم معنى، فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص متابعه، قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف «بديع القرآن» (٨٣).

والاهتزاز المجازي مشعر بالعطاء، كاهتزاز الممدوح للمدح، فلاجل ذلك عدل عن لفظ الحركة العام، إلى لفظ الحركة الخاص، لما يُشعر بأنَّ الأرض ستعطي عند سقيها ما يرضي من نباتها بتنزل السقي لها منزلة ما يسرها فاهتزت لتشعر بالعطاء، فقد ظهرت فائدة العدول إلى لفظ الإرداف لما يعطيه من هذه المعاني التي لا يعطيها لفظ الحقيقة. وقد جاء نَظْم هذه الآية مع ما تَضَمَّن من التكافؤ والطباق والإرداف والإيتلاف منعوتاً بالتهذيب لما فيه من حسن الترتيب، حيث تقدّم فيه لفظ الاهتزاز على لفظ الربو، ولفظ الربو على النباتات^(١)، لأنَّ الماء إذا نزل على الأرض فرَّق أجزاءها، ودخل خلالها، وتفريق أجزاء الجوهر الجمادية هو حركتها حالة تفرق الاتصال، لأنَّ انقسام الجواهر يدل على انتقال قسميه، أو أحدهما عن حيّزه، ولا معنى للحركة إلاّ هذا، فالاهتزاز يجب أن يذكر عقيب السقي كما جاء الربو بعد الاهتزاز، فإنَّ التراب إذا دخله الماء ارتفع بالنسبة إلى حاله قبل ذلك، وهذا هو الربو بعينه، والنبات إنّما يكون بعد الربو وجفاف رطوبة الماء، وعود التراب إلى حاله وتشققه، فحصل هذا التهذيب في نظم الآية، بحصول حسن الترتيب، واقترن بذلك حسن النسق، لتقدم كل ما يجب أن يكون معطوفاً عليه على كل ما يجب أن يكون معطوفاً^(٢).

وهكذا يظهر من هذا الكلام مدى جمالية هذه الآية البديعة والتي ضمّت هذه الفنون البديعية في براعة ونسق بياني عظيم، وإن كان الاختلاف بين آية فصلت، وآية الحج في لفظه «الهمود» و«الخشوع» في فصلت فإنَّ الحديث واحد هو عن جذب الأرض وموتها عند انقطاع الماء.

(١) «لم يذكر الانبات في آية فصلت وذكر في آية الحج».

(٢) بديع القرآن، ص (٣٤، ٣٥).

(ب) - ألوان البديع اللفظي

أولاً: الجناس:

وتعريفه عند البلاغيين هو: «تشابه اللفظين في اللفظ دون المعنى»^(١).

وقد يعتبر من الجناس ما كان متشابهًا في اللفظ مع عدم الاختلاف في المعنى، وأول موضع يلقانا من ذلك قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۙ تَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ﴾^(٢) يظهر الجناس هنا بين كلمتي ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ﴾ وتجانسهما أيضًا مع ﴿حَمَّ ۙ﴾ وهي متتالية ومتقاربة، وقد تحقق بذلك النغم، والإيقاع المتلائم ولمَّا كانت ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۙ﴾ بلا فاصل حققت إيقاعًا عاليًا مع أنَّه من نوع الجناس الناقص، هذا ويلحظ في السورة الكريمة أنَّ الجناس يصاحب فنونًا أخرى منها المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿لِنُذِقَهُمُ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۙ﴾^(٣) فالجناس بين الخزي وأخزى، ويأتي مع الطباق كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ۙ﴾^(٤) فالطاق بين ﴿لا تسجدوا﴾، ﴿واسجدوا﴾ وفيه جناس.

ومن صور الجناس قوله تعالى: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۙ﴾^(٥) فالجناس بين ﴿اعمل﴾ و﴿عاملون﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ۙ﴾^(٦) فالجناس بين ﴿يستعتبوا﴾

(١) الإيضاح (٣٥٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ١، ٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

و﴿معتبين﴾ وهذا من النوع الذي يجمعه الاشتقاق فكان أولهما في أول الفقرة ﴿يستعتبوا﴾ والثاني في آخرها، وهو ﴿المعتبين﴾ فاصلة الآية.

ويظهر الجناس أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) فالجناس بين ﴿الحسنة﴾ و﴿أحسن﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(٢) والجناس بين ﴿ينزغك﴾ و﴿نزغ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٣) فالجناس هنا بين ﴿أعرض﴾ و﴿عريض﴾ وقد عدّه السيوطي من تجنيس الإطلاق، ويعني أنّهما قد اجتمعا في المشابهة فقط^(٤).

وهكذا نلاحظ الجناس في السورة الكريمة، قد جاء على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ.. ولا اقتسار للفظ بدون دلالة حسنة، ومع هذا يلحظ فوق روعة المعنى، وسحر الإيقاع، مناسبة بين ركني الجناس وتلك المناسبة لو لم يكن غيرها للجناس لكفت دلالة على أصالته وحسنه، فلننظر إلى قوله: ﴿اسجدوا﴾ و﴿لا تسجدوا﴾ و﴿اعمل﴾ و﴿عاملون﴾، وهكذا نجد في كل جناس في السورة حسناً وجمالاً. وفي منزلة الجناس يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: «وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاه، ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً وقد أحسن الزيادة ووفاه»^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٤) الإتقان (٣/٢٨٣).

(٥) أسرار البلاغة ص (٧، ٨).

ثانيًا: رد العجز على الصدر

الخطيب القزويني وهو من المتأخرين يقرّر أنّ رد العجز على الصدر يرد في النثر والشعر على السواء، ثم يعرفه بقوله: «وهو في النثر أن يُجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها وفي النظم أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر المصراع الثاني»^(١).

والسيوطي في الإتقان جعله على ثلاثة أقسام نقلًا عن ابن المعتز، وسماه أيضًا التصدير.

الأول منه: أن يوافق آخر الفاصلة آخر كلمة في الصدر.

الثاني: أن يوافق أول كلمة منه.

الثالث: أن يوافق بعض كلماته^(٢).

وفي هذا التقسيم توسع في مفهوم هذا الفن، ونجد أن القسم

الأول منه يتوافق مع ما في السورة الكريمة من الأمثلة.

أولها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْءِآذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴾^(٣).

فالتأمل في سياق الآية الكريمة وما تضمنه فعل «الأمر»

﴿اعمل﴾ من التهديد والتهكم فإنّه يدرك من خلال تأمله الفاصلة قبل

أن تقع عليها عينه، ويظهر ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا

فَأَلْنَارُ مَشْوَى لَهُمْ وَإِن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾^(٤).

فإن الناظر إلى قوله: ﴿ يستعتبوا ﴾ يدرك فاصلة الآية وتقع في

(١) التلخيص (٣٩٢، ٣٩٣).

(٢) الإتقان للسيوطي (٣/٣٠٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٤.

خاطره قبل أن يصل إليها، والنظم القرآني فيه، من دقة التركيب ما يساعذك على ذلك.

ثالثاً - الفواصل:

وهي من المحسنات اللفظية وقد مرّ معنا في الفصل الثاني دراسة وافية عن دورها اللفظي والتلاؤم الصوتي، وجمال الإيقاع المتناسق في فواصل السورة.

وهنا نبين ما تبقى من دور للفواصل في السورة وهو الدور المعنوي، حيث نجد الفاصلة تحتمل مضموناً يلتفت إلى مضمون الآية التي انتهت بها، فيلخصه أو يبرزه أو يكمله، وكل فواصل السورة قد جاءت متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً بحيث لو حذفت من الكلام لا ختلّ المعنى واضطرب الفهم، وكل فواصل القرآن على هذه الوتيرة من النظم المعجز.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في خلق السماوات ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١).

فنجد أنّ الفاصلة قد اشتملت على اسمين من أسمائه تعالى وهما ﴿العزیز﴾ و﴿العلیم﴾ و﴿العزیز﴾ جاء على صيغة المبالغة كالعلیم وقد تضمن الاسم صفة ذاتية وهي العزّة وتعني في اللغة، القوة والشدة والغلبة، والعزّ والعزّة الرفعة والإمتناع (٢) والعلیم: قد تضمن صفة العلم وهو العلم الشامل المحيط بما كان وبما سيكون وما هو كائن والعزّة والعلم من أهم خصائص الربوبية، وهما أظهر الصفات في خلق السموات والأرض، ولذلك جاءت في الفاصلة

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) اللسان (٥/٣٧٤)، مادة (عز).

مناسبة كل المناسبة .

«والآية لما تضمنت الإخبار عن خلق السماء، وما فيها خلقاً مشوباً محكماً غير متفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالمًا بما فعله كلياً وجزئياً، مجملاً ومفصلاً، ناسب ختمها بصفة العلم»^(١).

ومن هنا نعلم كيف تأتي الفاصلة في القرآن متمكنة في موضعها مستقرة فيه، مناسبة كل المناسبة للآية إن حذف اضطرب المعنى وقلق، فالفاصلة القرآنية جاءت لتلبي حاجة ملحة لها في اللفظ والمعنى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢) ونظيرها قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٣) فقد ختم في الجاثية خلاف ما ختم به في سورة فصلت، وما ذلك إلاً للمناسبة الدقيقة حيث إنَّه قبل أية سورة الجاثية قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤) فناسب الختام بفاصلة البعث، لأنَّ قبله وصفهم بإنكاره، وأما الثانية فالختم فيها مناسب، لأنَّه لا يُضيع عملاً صالحاً، ولا يزيد على من عمل سيئاً^(٥).

ومن أمثلة تلخيص الفاصلة لمعاني الآية قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ

(١) الإتيان للسيوطي (٣/٣٠٨).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٥.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

(٥) الإتيان للسيوطي (٣/٣٠٦).

مَلَكِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾^(١)، فالفاصلة ﴿كافرون﴾ لخصت لنا موقف هؤلاء القوم من الرسل والدعوة، وأكدت المعنى المراد في نفوسهم وأبرزته.

وقد تأتي الفاصلة تذييلًا للآية تؤكد معانيها، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَّرُونَ ﴿١٦﴾^(٢) فالفاصلة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَّرُونَ﴾ جاءت تذييلًا للآية، وتأكيدًا للمعنى السابق وهو العذاب فهم مستقرون فيه لا يفلتون منه، ولا يخفف عنهم وهم فيها خالدون. وفواصل القرآن الحكيم كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها.

رابعًا: توافق البدء مع الختام وحسن الابتداء والاختتام:

لقد توافق ابتداء السورة الكريمة المفتتح بذكر هذا التنزيل والثناء عليه ونعته بذكر صفاته العظيمة واختتمت السورة بذكره ووعده الله تعالى نبيه بأن يرى هؤلاء المعرضين آيات القرآن في الآفاق البعيدة وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وبهذا تم انطباق أولها المادح على آخرها كما مرّ تفصيله في الوحدة الموضوعية للسورة. وقد كان الابتداء في السورة الكريمة عظيمًا، والابتداء هو أول ما يقرع السمع، وابتداء السورة الكريمة كان عذبًا في لفظه، صحيحًا في معناه، عظيم السبك وقد جاء ملائمًا لجو السورة المشحون بذكر حالات المعرضين وعذاب الله لهم وما فيه من إنذارات صارمة لكفار مكة، فلمّا كان هذا الكلام العظيم مناسبًا كل المناسبة للمقام أثر في أذن كل سامع بليغ فوعاه بانسراح، وعلم ما فيه وابتداء السورة موقظ للسمع منه لما سيأتي بعده.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

«وقد أجمع البلاغيون والنقاد على أن فواتح سور القرآن الكريم بلغت أعلى درجات البلاغة، وجاءت فاتحة كل سورة في غاية التلاؤم والتناسب مع ما تضمنته السورة من أحكام وعظات وقصص وأمثال»^(١).

ثم إذا جئنا إلى الختام في السورة الكريمة وجدنا حسناً في الألفاظ والمعاني وملائمة لما سبقها ومناسبة كل المناسبة للموضوع السائد في السورة والختام آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس. «وقد جاءت خواتم السور مثل فواتحها في الحسن، فتضمنت المعاني البديعة مع ائذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس إلى ما يذكر بعد، وخواتم السور القرآنية تدور بين الأدعية والوصايا، والفرائض والتحميد والتهليل، والمواعظ، والوعد والوعيد، وغير ذلك مما يناسب جوهر السورة نفسها من بدايتها إلى نهايتها»^(٢).

وخاتمة سورة فصلت قد تضمنت الوعد والوعيد وأذنت بانتهاء الكلام الذي تحس معه النفس بعدم بقاء شيء يذكر بعد فتتشوف له. فلما كان الوعد بإظهار آيات القرآن في الآفاق وفي الأنفس، جاء ختام السورة بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٣) مؤذنة بانتهاء الكلام، وقد اشتملت على «ألا» التي للتنبيه، حيث جاء الختام ليشتمل على ما دار في السورة كلها من إعراض ونفور عن القرآن، وأن سبب هذا النفور والإعراض هو: الشك في لقاء الله والشك في اليوم الآخر، ومن شك فيه فلا شك بأنه سيأمن من كل شيء على نفسه ويتمادى فيما هو فيه من

(١) دراسات منهجية في علم البديع: ص (١٢٥).

(٢) الإتقان للسيوطي (١٠٧/٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

الغرور والإعراض .

فجاء الختام فيه معنى التهديد ويظهر ذلك في قوله تعالى:
﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾^(١) يؤكد استعمال كلمة محيط .

قال القرطبي: وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد، وأحاطت الخيل بفلان إذا أخذ مأخذًا حاصرًا من كل جهة^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ﴾^(٢) وقد أحسن الطاهر بن عاشور في حديثه عن ختام السورة في هذه الآيات بأن أدرك أنّ فيها تذييلًا للسورة فيه جماع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين ولم تكن أحوالهم هذه ناشئة إلا من إنكار البعث .

والتذييل الأول في قوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ .
وأما الثاني ففي قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾^(٣)
فهو جامع لكل ما تضمنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم، لأنّ ذلك كله من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة .
ويقول: وبهاتين الفذلتين آذن بانتهاء الكلام فكانت من براعة الختام^(٣) .

وفي هذه العلوم الثلاثة يقول «صاحب الطراز»: «اعلم أنّ هذه الأنواع الثلاثة، أعني علم المعاني، والبيان، وعلم البديع، مأخذها مختلفة، وكلُّ واحدٍ منها على حظٍّ من علم البلاغة، والفصاحة، ولنضرب لها مثالاً يكون دالاً عليها، ومبيّنًا لموقع كل واحد منها، وهو أن تكون حَبّات من ذهب، ودرر، ولآلي، ويواقيت، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة، ثم إنّها ألّفت تأليفًا بديعًا، بأن خلط بعضها ببعض ورُكِّبت تركيبًا أنيقًا، ثم بعد ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٧٦).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٤ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٢/٢١، ٢٢).

التأليف، تارةً تجعل تاجاً على الرأس، ومرةً طوقاً في العنق، ومرةً بمنزلة القُرط في الأذن، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدرر واللآلي، وهو علم المعاني، وتأليفها وضمُّ بعضها إلى بعض، هو علم البيان، ثم وَضَعُها في المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها، هو علم البديع»^(١).

فهذه اللآليء والدرر، قد رأيناها قد ظهرت وتبدت في غاية ما تكون من الجمال والروعة، في آيات السورة الكريمة، في أبداع صياغة وأوفى بيان، فهو كلام رب العالمين.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢).

(١) الطراز للعلوي ص(٥١٥).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

الخاتمة

حاولت في هذا البحث أن أُبرز ما في السورة الكريمة من جوانب بيانية متعددة تكشف للمتأمل ما في السورة من بديع النظم وعجائب البيان، وقد جاء هذا البحث في مدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة.

تعرّضتُ في المدخل، لمفهوم الإعجاز القرآني عند العلماء، وبيّنتُ تقريرهم للإعجاز القرآني وأنَّ القرآن مُعجز في بلاغته وبيانه، ثم تعرّضتُ بعد ذلك لخصائص القسم المكي في القرآن بما في ذلك سور الـ «حواميم»، ثم بيّنتُ ما اختصّت به سورة ﴿فصلت﴾ من خصائص عامة أو خاصة، ثم أعقبتُ هذا المدخل بفصل يختص بالدراسة الموضوعية للسورة الكريمة، تعرّضتُ فيه لأغراض السورة ومقاصدها، محللاً لتلك الأغراض تحليلاً موضوعياً، يوضح هذه الأغراض ويبيّن ما حققته من خدمة للهدف العام في السورة، ثم تعرّضتُ في هذا الفصل لدراسة الوحدة الموضوعية في السورة، حيث بيّنتُ الغرض الأصلي فيها، مُوضّحاً وجه المناسبة والارتباط بين أجزاء السورة حول هذا الغرض.

وأما الفصل الثاني: فقد ركز على ما في السورة من جوانب فنيّة شمل الصورة الفنية التي وضحت فيها تعدد التصوير في السورة وتنوعه بالإضافة إلى دراسة ما فيه من جمالية واضحة في آيات السور الكريمة، وشملت الدراسة في هذا الفصل اللغة والأسلوب في السورة الكريمة، كما ركّزتُ الدراسة في هذا الفصل على الجانب اللفظي، حيث درستُ الفاصلة فيه دراسة شاملة، بيّنتُ فيها جمال التلاؤم الصوتي بين فواصل السورة وما تبع ذلك من بيان للتلاؤم الصوتي والإيقاع بين كلمات السورة عبر التقطيع الصوتي لها وإلى

هنا تمت الدراسة الفنية للسورة الكريمة .

وأما الفصل الثالث: فقد اختصَّ بالدراسة البلاغية للسورة، ركّز على كل العلوم البلاغية من معانٍ وبديعٍ وبيانٍ مع التحليل لكل الشواهد الواردة في هذه العلوم، يبين مدى ما في السورة من ثراء في هذا المجال وبعد هذه الخلاصة أستطيع أن أجمل أهم النقاط التي تمخضت عنها هذه الدراسة فيما يلي:

أولاً: تركيز السورة الكريمة على موضوع العقيدة تركيزاً متتابعاً في أساليب متنوعة لا تكرر فيها، وإيماً هو توارد جميل يثبت الموضوع من جهات متعددة للتوكيد والتقرير، وهذا ما كانت تتطلبه بداية الدعوة إلى توحيد الله تعالى في المراحل المتقدمة، ولقد أظهرت الدراسة أنّ السورة الكريمة كتلة واحدة من أولها إلى آخرها، تسير نحو غرض واحد، تلتحم حوله أجزاء السورة حتى وإن تعددت المواضيع المطروقة، وأنّ السورة الكريمة قد أشارت إلى موضوعها وغرضها الأصلي في مقدمتها يؤكد ذلك اختتامها بنفس الموضوع، وهذا يزيدنا تأملاً و يقيناً فيما قرّره علماء المناسبات والباحثون عن الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، حتى إنّ النتائج تؤكد أنّ سور الحواميم متشكلة في النظم ومتفقة في الغرض حيث نجد المطالع تتفق في الحديث عن القرآن وتنزله وتختتم هذه السور بالحديث عن القرآن، فهي متفقة في موضوع القرآن الكريم والانتصار له وذكر حججته .

ثانياً: أنّ الصورة القرآنية واسعة الأفق والتصوير في السورة الكريمة متعدد في أقسامه، فلم تقتصر الصورة على النواحي المجازية المعروفة في علم البيان، بل تعدت ذلك الأفق إلى كلية الصورة التي يرفدها الجرس والتآلف الصوتي، ودلالة السياق، بل

يلحظ أنّ المفردة الواحدة تقوم بتصوير المشهد عبر جوهر حروفها وظلالها الموحية كما أنّ التصوير يوجد في الألفاظ والعبارات الحقيقية من الأنماط البلاغية في درجة لا تقل روعة وبهاءً عن الصور المجازية، والصورة القرآنية في سورة ﴿فصلت﴾ تمتاز بالطابع الحسي الذي كان له الأثر الفعّال في زيادة الأثر النفسي.

ثالثاً: مراعاة السورة الكريمة للمواقف المتعددة فيها فيختار لكل موقف ما يناسبه من الألفاظ المتميزة بالجرس المرتفع أو المنخفض الهاديء في مواطن الرقة واللين.

رابعاً: إنّ الفاصلة القرآنية لا تهتم باللفظ على حساب المعنى، بل إنّها جاءت مراعية للفظ والمعنى معاً، في أسلوب بياني رفيع لا تكلف فيه ولا عسر، فتأتي ملخصة لمعنى الآية أو مؤكدة له، أو تكون ملتفة لما قبلها، كذلك ما يلحظ من دور عظيم للفاصلة القرآنية في التلاؤم الصوتي في السورة حيث يلحظ في ثلثي السورة وحدة صوتية متكاملة تتنامى مع مواضيع السورة، وترتبط بالثلث الأخير من السورة الكريمة في نسق صوتي بديع يهتم بالمعنى اهتماماً بالغاً حتى لا نشعر بتغير الفاصلة إلاّ وقد تغيّر معها المعنى، وانتقل إلى معنى آخر، ليلفت تغير الفاصلة الانتباه إلى هذا المعنى المتغير.

خامساً: خفة وعدوبة كلمات السورة الكريمة وجمال وقعها على الأذان في نسق صوتي متلائم، وهذه الخفة والعدوبة تلحظ في جميع كلمات القرآن الكريم لكل متفحص متذوق، ومعرفة هذه الخفة البديعة يشترك في إدراكها عوامل كثيرة لا تقتصر على بعض النظريات المحددة التي تقصر الخفة والعدوبة في بعد مخارج الحروف أو قربها، وإنّما يشترك في معرفة ذلك صفات

الحروف، وحسن ترتيبها والاهتمام البالغ بعلمي التجويد وفقه اللغة حتى يخرج المتأمل من ذلك بنتائج كاشفة لأسرار التلاؤم الصوتي البديع.

سادساً: إنَّ انتظام الحروف في الكلمات عبر التكرار لها يحدث للمتأمل نسقاً إيقاعياً بديعاً بين كلمات السورة كما وضحته دراسة الإيقاع بين الكلمات في السورة ولا يخفى أيضاً أنَّ الدراسة للجانب الإيقاعي والتلاؤم الصوتي قد اتَّضحت رؤيته كثيراً عبر التقطيع الصوتي للكلمات.

سابعاً: بيَّنت الدراسة البلاغية ثراء السور الكريمة من الناحية البلاغية ثراءً عظيماً حيث وجدت فيها كل أصناف العلوم البلاغية المتعددة بشكل مكثف، وهذا يدلُّ الناظر على عظم ما في كتاب الله تعالى من أسرار بيانية متنوعة.

وأخيراً أجد نفسي في النهاية قد قضيت وقتاً ممتعاً في التجول في رحاب هذه السورة البديعة وأشعر أنني لم أصل إلى الغاية المطلوبة في بحث هذه السورة، وهكذا هو الإعجاز البياني القرآني الذي يشعر معه كل متأمل بالنقص والضعف في إدراك ما فيه من أعماق ودرر، لا بد من الغوص العميق لمن يريد لها، وهذه هي حيلتي وجُهدِي، فالأسرار لا تنقطع والعجائب لا تنتهي. وما هو القرآن الكريم يعلمنا كيف تكون المادة الأدبية غنية سخية مؤدية للغرض في أوجز لفظ، فمن مرض ذوقه الأدبي ومقاييسه النقدية فليرجع إلى هذا النبع الصافي ليصحح له ذوقه وينقذه من الثثرة والتشديق غير المقبول.

لقد أخذ القرآن بمجامع البيان ودلَّ على أغراضه في يُسرٍ وسُهولة فملاً عين الأديب المتفحص، وأعطى العامي فرصة الفهم والتدبر.

وختامًا: فقد بذلتُ جُهدِي وطاقتي في هذا البحث المتواضع، فإن
وُفِّقْتُ لما هدفت إليه فبفضل الله تعالى عليّ وحسن توفيقه،
وإن كانت الأخرى فحسبي أنّي عايشْتُ كتاب الله مجتهدًا،
وأنّي قد بذلتُ أقصى ما لديّ من طاقة ووقت، ولا يكلف الله
نفسًا إلاّ وُسْعَها.

ولله الحمدُ في الأولى والآخرة، يفعل ما يشاء وهو على كل

شيء قدير.



٣٩٩٤

قائمة المصادر والمراجع

- (١) - القرآن الكريم .
- (٢) - الإتيقان في علوم القرآن .
لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمدأبوالفضل إبراهيم،
(المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- (٣) - أثر القرآن في الشعر العربي الحديث .
د/ شلتاغ عبود شراد، ط (١)، (دار المعرفة - دمشق :
١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م).
- (٤) - «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» .
لأبي السعود (ت ٩٥١هـ) ط (٢)، (دار إحياء التراث
العربي، بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- (٥) - أساليب الاستفهام في القرآن .
عبدالعليم السيد فوده، (نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون
والآداب الاجتماعية).
- (٦) - الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم .
د/ صباح عبيد دراز، ط (١)، (مطبعة الأمانة - القاهرة:
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- (٧) - أساليب بلاغية .
د/ أحمد مطلوب، ط (١)، (وكالة المطبوعات - الكويت:
١٩٨٠م).
- (٨) - أسرار البلاغة .
للإمام أبي بكر، عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني
النحوي، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، ط (١)،
(مطبعة المدني، جدة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

- (٩) - أسرار ترتيب القرآن .
 لجلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا،
 ط (٢)، (دار الاعتصام ١٣٩٨هـ).
- (١٠) - أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا .
 د/ عبد الغني محمد سعد بركة، ط (١)، (مكتبة وهبة -
 القاهرة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- (١١) - أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم .
 د/ عبدالحليم حفني، ط (٣) (الهيئة المصرية العامة للكتاب -
 القاهرة: ١٩٩٥م).
- (١٢) - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .
 للإمام عز الدين بن عبدالسلام السلمي، عناية رمزي سعد الدين،
 ط (١)، (دار البشائر الإسلامية، بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).
- (١٣) - الأصوات اللغوية .
 للدكتور إبراهيم أنيس، ط (٣)، (مكتبة الأنجلو المصرية:
 ١٩٩٢م).
- (١٤) - الإعجاز البلاغي .
 د/ محمد محمد أبو موسى، ط (١)، (مكتبة وهبة، القاهرة:
 ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).
- (١٥) - الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية
 لغوية وبيانية .
 د/ عائشة عبدالرحمن، (ط ٢)، (دار المعارف - القاهرة:
 ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- (١٦) - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره .
 د/ محمد أحمد يوسف القاسم، ط (١)، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- (١٧) - الإعجاز الفني في القرآن .

- لعمر السلامي، (نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله - تونس: ١٩٨٠م).
- (١٨) - الإعجاز في دراسات السابقين.
- لعبد الكريم الخطيب، ط (١)، (دار الفكر - مصر: ١٩٧٤م).
- (١٩) - إعجاز القرآن.
- لأبي بكر محمد الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، قدّم له وعلّق عليه، محمد شريف سكر ط (٣)، (دار إحياء العلوم - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- (٢٠) - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
- مصطفى صادق الرافعي، تحقيق عبدالله المنشاوي، ط (١)، (مكتبة الإيمان بالمنصورة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- (٢١) - إعراب القرآن الكريم وبيانه.
- لمحي الدين الدرويش، (ط ٥)، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- (٢٢) - الأعلام.
- للزركلي، ط (١٠)، (دار العلم للملايين - بيروت: ١٩٩٢م).
- (٢٣) - إلى القرآن الكريم.
- د/ محمود شلتون، (دار الشروق - مصر: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- (٢٤) - «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».
- للقاضي ناصر الدين أبي سعيد بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٧٩١هـ)، ط (١)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠٨هـ).
- (٢٥) - أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم.
- للدكتور عبدالله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب - مصر: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- (٢٦) - إيجاز البيان في سور القرآن .
للشيخ محمد علي الصابوني : ط (٢) ، (دار الصابوني :
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- (٢٧) - الإيضاح في علوم البلاغة .
للخطيب القزويني ، ط (٢) (دار إحياء العلوم - بيروت :
١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- (٢٨) - البحر المحيط .
لأبي حيان الأندلسي ، دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود
وآخرين ، ط (١) ، (دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- (٢٩) - بحوث في المطابقة لمقتضى الحال .
للدكتور علي البدري ، ط (٢) المكتبة الحسينية - القاهرة :
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- (٣٠) - بدائع الفوائد .
لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) .
تحقيق بشير محمد عيون ، ط (١) ، (مكتبة دار البيان - دمشق :
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- (٣١) - بديع القرآن .
لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) ، تقديم وتحقيق حفني
محمد شرف ، (دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة) .
- (٣٢) - البرهان في تناسب سور القرآن .
للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (ت
٧٠٨هـ) ، تقديم وتحقيق د/ سعيد الفلاح ، الجامعة الزيتونية
للشريعة وأصول الدين بتونس ، (من منشورات جامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- (٣٣) - البرهان في علوم القرآن .

- للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)،
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط (٣)، (طبعة دار الفكر:
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- (٣٤) - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)،
تحقيق محمد علي النجار (المكتبة العلمية - بيروت).
- (٣٥) - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح.
تعلیق عبد المتعال الصعيدي، ملتزم الطبع والنشر، (مكتبة
الآداب ومطبعتها بالجماميز).
- (٣٦) - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.
للمحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم، (المكتبة العصرية - بيروت).
- (٣٧) - بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني.
السيد عبدالرحيم عطية، (دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة).
- (٣٨) - بلاغة تطبيقية.
للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود، (ط ١)، مطبعة الحسين -
القاهرة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- (٣٩) - البلاغة فنونها وأفنانها.
للدكتور فضل حسن عباس، ط (٣)، (دار الفرقان للنشر
والتوزيع، عمان: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- (٤٠) - البيان والتبيين.
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون، (الناشر مكتبة الخانجي بمصر).
- (٤١) - البيان في إعجاز القرآن.
د/ صلاح عبدالفتاح الخالدي، ط (٣)، (دار عمار - عمان:

- ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
 (٤٢) - البيان في ضوء أساليب القرآن.
 د/ عبدالفتاح لاشين، ط (٣)، (دار المعارف - مصر: ١٩٩٢م)
 (٤٣) - تأملات في سورة العاديات.
 د/ حسن محمود باجوده، ط (٣)، (مطابع الندوة - مكة المكرمة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
 (٤٤) - تأويل مشكل القرآن.
 لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)،
 شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية).
 (٤٥) - التبيان في البيان.
 للإمام الطيبي، تحقيق ودراسة د/ عبدالستار حسين زُمُوط،
 ط (١)، (دارالجيل - بيروت: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
 (٤٦) - التحرير والتنوير.
 للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م).
 (٤٧) - التصوير الفني في القرآن.
 لسيد قطب - رحمه الله - ، ط (٨)، (دار الشروق - بيروت: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
 (٤٨) - التعبير القرآني.
 للدكتور فاضل صالح السامرائي، ط (١)، (دار عمار - الأردن: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
 (٤٩) - التفسير البلاغي للاستفهام في القرآني الكريم.
 للدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني، ط (١)، (مكتبة وهبة - القاهرة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
 (٥٠) - تفسير سورة فصلت.
 د/ محمد صالح علي مصطفى، ط (١)، (دار النفائس -

- (٥١) - تفسیر القرآن العظیم .
 للامام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي،
 (ت ٧٧٤هـ)، قدّم له، د/ يوسف عبدالرحمن المرعشلي،
 (دار المعرفة - بيروت: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- (٥٢) - التفسير الكبير .
 للفخر الرازي، ط (٣)، (دار إحياء التراث العربي - بيروت).
- (٥٣) - تلخيص البيان في مجازات القرآن .
 للشريف الرضي، ط (١)، (عالم الكتب - بيروت: ١٤٠٦هـ -
 ١٩٨٦م).
- (٥٤) - التلخيص في علوم البلاغة .
 وهو تلخيص كتاب «مفتاح العلوم» .
 للسكاكي، للخطيب القزويني، حققه وشرحه عبدالحميد
 هنداوي، ط (١)، دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٨هـ -
 ١٩٩٧م).
- (٥٥) - التلخيص في علوم البلاغة .
 للخطيب القزويني، طبعه وشرحه عبدالرحمن البرقوني،
 ط (٢)، (دار الكتاب العربي - بيروت: ١٣٠٥هـ - ١٩٣٢م).
- (٥٦) - التمهيد في علم التجويد .
 لشمس الدين أبي الخير محمد بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ)،
 تحقيق غانم قدوري حمد، ط (٤)، (مؤسسة الرسالة -
 بيروت: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- (٥٧) - تناسق الدرر في تناسب السور .
 للعلامة جلال الدين السيوطي، تحقيق عبدالله محمد الدرويش،
 ط (٢)، (عالم الكتب - بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

- (٥٨) - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .
 حَقَّقَهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا، محمد خلف الله أحمد، والدكتور محمد
 زغلول سلام، ط (٤)، (دار المعارف - مصر).
- (٥٩) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
 لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر،
 توزيع دار التربية والتراث - مكة المكرمة).
- (٦٠) - «الجامع لأحكام القرآن» .
 لعبدالله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)
 «الجامع لأحكام القرآن»، (دار إحياء التراث العربي - بيروت).
- (٦١) - جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني .
 مصطفى الصاوي الجويني - منشأة المعارف : الاسكندرية .
- (٦٢) - جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير .
 أحمد ياسوف، ط (١)، (دار المكتبي - دمشق: ١٤١٥هـ
 ١٩٩٤م).
- (٦٣) - حاشية الدسوقي على شرح السعد .
 ضمن شروح التلخيص، للخطيب القزويني وآخرين، (دار
 الكتب العلمية - بيروت).
- (٦٤) - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي .
 المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» للقاضي شهاب
 الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت ١٠٦٩)، ضبط
 الشيخ عبدالرزاق المهدي ط (١)، (دار الكتب العلمية -
 بيروت: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- (٦٥) - حاشية محيي الدين .
 شيخ زاده على تفسير البيضاوي - دار صادر: بيروت .
- (٦٦) - الحذف البلاغي في القرآن الكريم .

- مصطفى عبدالسلام أبوشادي، (مكتبة القرآن للطبع والنشر - القاهرة).
- (٦٧) - الخصائص.
- لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢)، تحقيق محمد علي النجار، ط (٢)، (دار الكتب المصرية: ١٩٦٣م).
- (٦٨) - خصائص التراكيب.
- للدكتور محمد محمد أبو موسى، ط (٤)، (مكتبة وهبة - القاهرة: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- (٦٩) - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغي.
- د/ عبدالعظيم إبراهيم المطعني، (مكتبة وهبة - القاهرة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- (٧٠) - خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام.
- د/ الشحات محمد أبوستيت، ط (١)، (مطبعة الأمانة - القاهرة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- (٧١) - دراسات قرآنية.
- لمحمد قطب، ط (٤)، (دار الشروق - بيروت: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- (٧٢) - دراسات منهجية في علم المعاني.
- للدكتور الشحات محمد أبوستين، ط (١)، (دار خفاجي للطباعة والنشر - القاهرة: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- (٧٣) - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز.
- للخطيب الإسكافي، رتبّه محمد أمين الخانجي الكتبي على أعداد آي المصحف المطبوع في المطبعة العثمانية في الأستانة سنة ١٢٩٨هـ، ط (١)، عام (١٣٢٧هـ).

- (٧٤) - دلائل الإعجاز.
 لعبدالقاهر الجرجاني (ت: ٤٧١)، قرأه وعلّق عليه الشيخ
 محمود محمد شاكر، الناشر (مكتبة الخانجي - القاهرة).
- (٧٥) - دلالات التراكيب.
 د/ محمد محمد أبو موسى، ط (٢)، (مكتبة وهبة - القاهرة:
 ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).
- (٧٦) - ديوان أبي الأسود الدؤلي.
 شركة النشر والطباعة العراقية - بغداد: ١٩٥٤م.
- (٧٧) - رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط (١)،
 (دار الجيل - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩١م).
- (٧٨) - «روح المعاني في القرآن العظيم والسبع المثاني».
 لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي
 (ت ١٢٧٠هـ)، ط (٤)، (دار إحياء التراث العربي - بيروت:
 ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- (٧٩) - سرُّ صناعة الإعراب.
 لابن جني، دراسة وتحقيق الدكتور حسن هندراوي، ط (١)،
 (دار القلم - دمشق: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- (٨٠) - سرُّ الفصاحة.
 لابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فودة، ط (٢)، (مكتبة
 الخانجي - مصر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- (٨١) - سيرة ابن إسحاق بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي.
 محمّد بن إسحاق بن يسار، (تحقيق وتعليق محمد حميد الله:
 ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- (٨٢) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
 لابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح، عبدالحى بن

- أحمد بن محمد العكبري الحنبلي الدمشقي، تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، ط (١)، (دار ابن كثير - دمشق: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
- (٨٣) - شروح التلخيص.
(طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).
- (٨٤) - صحيح البخاري.
(عالم الكتب - بيروت).
- (٨٥) - صحيح مسلم.
شرح القاضي عياض، تحقيق الدكتور محي إسماعيل، ط (١)، (دار الوفاء - القاهرة: ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م).
- (٨٦) - عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص.
لبهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ)، (طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).
- (٨٧) - علم أساليب البيان.
د/غازي يموت، ط (٢)، (دار الفكر اللبناني - بيروت: ١٩٩٥م).
- (٨٨) - علم الأصوات اللغوية، الفونيتيكا.
الدكتور عصام نورالدين، ط (١)، (دار الفكر اللبناني - بيروت: ١٩٩٢م).
- (٨٩) - علم البديع.
د/عبدالعزیزعتیق، (دار النهضة العربية - بيروت: ١٩٩٥م).
- (٩٠) - علم اللغة العام، الأصوات.
كمال محمد بشر، ط (٧) (دار المعارف - مصر: ١٩٨٠م).
- (٩١) - علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني.
للدكتور بسيوني عبدالفتاح (مكتبة وهبة - القاهرة: ١٤٠٦هـ).

- (٩٢) - علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، (دار القلم - بيروت).
- (٩٣) - علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه.
للدكتور، عدنان زرزور، ط (١)، المكتب الإسلامي -
بيروت: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- (٩٤) - الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى.
للدكتور عيد محمد شبايك، ط (١)، دار حراء - القاهرة:
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- (٩٥) - الفاصلة القرآنية.
محمد الحسناوي، (ط ٢)، (دار عمار - الأردن: ١٤٠٦هـ -
١٩٨٦م).
- (٩٦) - في ظلال القرآن الكريم.
لسيد قطب - رحمه الله - (دار الشروق - مصر: ١٤١٤هـ -
١٩٩٤م).
- (٩٧) - القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ط (٢)، مكتبة مصطفى
البابي الحلبي - مصر: ١٣٧١هـ).
- (٩٨) - قيس من نور القرآن، دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد
السور الكريمة، لمحمد علي الصابوني، ط (٤)، (دار
القرآن الكريم - بيروت: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- (٩٩) - القصص القرآني إichaؤه ونفحاته.
د/فضل حسن عباس، ط (١)، (دار الفرقان - عمان:
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- (١٠٠) - الكتاب لسبيويه.
- تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط (٢)، مكتبة الخانجي -
القاهرة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- (١٠١) - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر.

- لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (المكتبة العصرية - بيروت: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- (١٠٢) - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.
- للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، اليمني، ط (١)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- (١٠٣) - «الكشاف».
- للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، رتبّه وضبطه وصححه محمد عبدالسلام شاهين، ط (١)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- (١٠٤) - لسان العرب، لابن منظور الإفريقي (ت ٧١١).، ط (٣)، (دار صادر - بيروت: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- (١٠٥) - لغة القرآن الكريم في جزء عم. د/محمود أحمد نحلة، (دار النهضة العربية - بيروت: ١٩٨١م).
- (١٠٦) - مباحث في علوم القرآن. مناع خليل القطان، ط (٣٥)، (مؤسسة الرسالة - بيروت: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- (١٠٧) - المثل السائر.
- لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تقديم وتحقيق، د/أحمد الحوفي، ود/بدوي طبانة، (دارنهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة: القاهرة).
- (١٠٨) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت

- (٥٤٦هـ)، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- (١٠٩) - «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».
- للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، (طبعة دار الفكر).
- (١١٠) - مدخل إلى القرآن الكريم، «عرض تاريخي وتحليل مقارن».
- للدكتور محمدعبدالله دراز، (دار المعرفة الجامعية - مصر).
- (١١١) - مذكرة في التجويد.
- لمحمد نبهان بن حسين مصري، ط (١٤)، (دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- (١١٢) - مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- (نشر دار التربية - الرياض).
- (١١٣) - مشاهد القيامة في القرآن.
- لسيد قطب - رحمه الله - ط (٧)، (دار الشروق - بيروت: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- (١١٤) - معاني القرآن.
- للأبي زيد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق عبدالفتاح إسماعيل شلبي - دار السرور.
- (١١٥) - معترك الأقران في إعجاز القرآن.
- للسيوطي، ضبطه وصححه وكتبه فهارسه أحمد شمس الدين، ط (١)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- (١١٦) - معجم الأدباء.
- لياقوت الحموي ط (٢)، (دار إحياء التراث العربي).
- (١١٧) - معجم البلدان.

- للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله، ياقوت بن عبدالله الحموي، الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، ط (١)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- (١١٨) - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وضعه محمدفؤاد عبدالباقي، ط (١)، (دار الحديث - القاهرة: ١٤٠٧هـ - ١٩٩٧م).
- (١١٩) - معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسين حمد بن فارس، بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام محمدهارون، (دار الجيل - بيروت).
- (١٢٠) - مغني اللبيب عن كتب الأعراب. لأبي محمد عبدالله جمال الدين بن هشام، (دار نشر الكتب الإسلامية - لاهور).
- (١٢١) - مفتاح العلوم. لسراج الدين أبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وشرحه نعيم زرزور، ط (٢)، (دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠٧هـ - ١٩٩٧م).
- (١٢٢) - المفردات في غريب القرآن. لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق وضبط محمدسيد كيلاني، (دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت).
- (١٢٣) - مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني. للدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، ط (١)، (دار الطباعة والنشر الإسلامية: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

- (١٢٤) - المناسبة اللفظية في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة الحديث.
- للدكتور حازم علي كمال، (مكتبة زهراء الشرق - القاهرة).
- (١٢٥) - مناهج البحث في اللغة.
- د/ تمام حسان، (مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة: ١٩٩٠م).
- (١٢٦) - مناهل العرفان في علوم القرآن.
- محمد عبدالعظيم الزرقاني، ط (٢)، (دار الكتاب العربي - بيروت: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- (١٢٧) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم.
- للدكتور محمد الأمين الخضري، ط (١)، (مكتبة وهبة - القاهرة: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- (١٢٨) - من بلاغة القرآن.
- للدكتور أحمد أحمد بدوي - لجنة البيان العربي - القاهرة: ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م).
- (١٢٩) - من جماليات التصوير في القرآن الكريم.
- محمد قطب عبدالعال، سلسلة دعوة الحق، العدد (٩٩)، (رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- (١٣٠) - من سمات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني.
- د/ حسين زموط، ط (١)، (مطبعة الحسين الإسلامية - القاهرة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- (١٣١) - الموافقات في أصول الشريعة.
- لأبي إسحاق الشاطبي، شرح عبدالله دراز وآخرون، (دار الكتب العلمية - بيروت).
- (١٣٢) - موسيقي الشعر.

- للدكتور إبراهيم أنيس، ط (٧)، (مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة: ١٩٩٧م).
- (١٣٣) - الميزان في تفسير القرآن.
- محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- (١٣٤) - النبأ العظيم.
- للدكتور عبدالله محمد دراز، (دار القلم - الكويت).
- (١٣٥) - نظرة العجلان في أغراض القرآن.
- لابن شهيد ميسلون، (ط - العصرية بدمشق).
- (١٣٦) - نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم.
- للدكتور أحمد سيد عمّار، ط (١)، (دار الفكر المعاصر: بيروت - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- (١٣٧) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.
- للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، ط (٢)، (دار الكتاب الإسلامي - القاهرة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- (١٣٨) - الوافي بالوفيات والذيل عليها.
- لمحمد بن شاکر الکتبي (ت ٧٦٤)، تحقيق د/إحسان عباس، (دار صادر - بيروت).
- (١٣٩) - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف.
- د/حسن محمد باجودة، (مطبوعات تهامة - جدة: ١٤٠٣هـ - ١٩٧٠م).
- (١٤٠) - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.
- د/محمد محمود حجازي، (دار الكتب الحديثة - مصر: ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
١٣	المدخل
١٤	إعجاز القرآن الكريم وأقوال العلماء فيه
٣٢	خصائص القسم المكي في القرآن وسور الحواميم
٤٠	خصائص سور فصلت
٤٦	الدراسة الموضوعية للسورة الكريمة
٤٧	أبرز أغراض السورة الكريمة
٤٧	- غرض التقرير
٦٣	- غرض التهيب
٧١	- غرض الترغيب
٧٦	المقابلة بين غرضي الترغيب والتهيب
٧٨	- غرض الذم
٨٢	- غرض التسلية
٨٥	غرض التذكير بعظمة الله
٨٨	الوحدة الموضوعية في سورة فصلت
٨٩	تعريف الوحدة
٩١	علم المناسبات والوحدة الموضوعية عند القدماء
٩٧	الوحدة الموضوعية عند المحدثين
١٠٤	مناسبة سورة فصلت لسورتي غافر والشورى
١٠٩	الوحدة الموضوعية في سورة فصلت
١١٤	تطبيق الوحدة الموضوعية في السورة
١٢٩	الدراسة الفنية للسورة

١٣٠	الصورة الفنية في سورة فصلت
١٣٠	مفهوم الصورة الفنية
١٣٤	مادة الصورة الفنية ومصادرها
١٣٩	جمالية التصوير في السورة
١٤٠	الصورة البيانية
١٦٢	الصورة المجردة
١٦٩	التصوير في القصة
١٧٤	اللغة والأسلوب في السورة
١٨٢	الفواصل والمقاطع الصوتية
١٨٢	تعريف الفاصلة
١٨٨	الفاصلة ومراعاة الشكل والمضمون
١٩٢	دراسة الفاصلة من الناحية الصوتية
٢٠٥	التلاؤم والإيقاع الصوتي بين فواصل السورة
٢٢٢	دراسة التلاؤم الصوتي والإيقاع بين كلمات السورة
٢٢٦	الإيقاع عن طريق التكرار
٢٤١	الإيقاع بالصيغة
٢٤٣	الإيقاع بأسلوب العرض
٢٤٦	التقطيع الصوتي لكلمات السورة
٢٥٤	علم المعاني في السورة
٢٥٥	الأساليب الخبرية
٢٦٦	الأخبار التي خرجت عن الفائدة ولازمها
٢٧٠	الأساليب الإنشائية في السورة
٢٧٠	أسلوب الاستفهام
٢٧٩	الأمر ودلالاته البلاغية في السورة
٢٨٣	النهي

٢٨٤	اجتماع الأمر مع النهي أو النفي
٢٨٧	المجاز العقلي وعلاقاته
٢٨٨	علاقة الفاعلية
٢٨٩	علاقة المفعولية
٢٨٩	علاقة المصدرية
٢٩٠	علاقة السببية
٢٩١	التعريف بالضمير
٢٩٢	التعريف بالعلمية
٢٩٢	التعريف بالإشارة
٢٩٦	التعريف بالموصلية
٣٠٣	التعريف بالإضافة
٣٠٦	التنكير
٣٠٨	دلالة التنكير على التهويل والتفخيم
٣٠٩	دلالة التنكير على العموم
٣٠٩	دلالة التنكير على التكثير
٣١٠	دلالة التنكير على التقليل
٣١١	التقديم
٣١٢	تقديم المسند
٣١٣	تقدم المسند إليه
٣١٦	تقديم ما ليس رتبة
٣٢٠	التقييد بالشرط
٣٢٤	الالتفات
٣٢٨	الإيجاز
٣٢٨	حذف الحرف
٣٣١	حذف بعض الجملة

٣٣٤	حذف المفعول
٣٣٧	حذف الجار والمجرور
٣٣٨	حذف جملة الشرط
٣٣٨	حذف جواب الشرط
٣٣٩	حذف القسم والموصوف
٣٤١	حذف الحال والمضاف
٣٤٤	الإطناب في السورة
٣٤٥	التفصيل بعد الإجمال
٣٤٦	ذكر الخاص بعد العام
٣٤٦	التذييل
٣٤٨	الاعتراض
٣٥٠	الاحتباس
٣٥٢	وضع الظاهر موضع المضمرة
٣٥٤	القصر في السورة الكريمة
٣٥٥	القصر بالنفي والاستثناء
٣٥٧	القصر بضمير الفصل
٣٥٧	القصر عن طريق التعريف
٣٥٩	باب الفصل والوصل في السورة
٣٦٠	الوصل بين الجمل
٣٦٤	مواضع الفصل
٣٧٤	محسنات الوصل
٣٧٨	علم البيان في السورة
٣٧٩	التشبيه
٣٨١	الاستعارة
٣٨٨	المجاز المرسل

٣٩١	الكناية
٣٩٥	التعريض
٣٩٨	علم البديع في السورة
٣٩٩	وجوه البديع المعنوي
٣٩٩	الطباق والمقابلة
٤٠٤	الجمع مع التفريق والتقسيم
٤٠٦	اللف والنشر
٤٠٦	الاحتباك
٤٠٩	المشاكلة
٤١٠	التجريد
٤٤١١	المذهب الكلامي
٤١٣	الأسلوب الحكيم
٤١٤	الإبداع
٤١٦	ألوان البديع اللفظي
٤١٦	الجناس
٤١٨	رد العجز على الصدر
٤١٩	الفواصل
٤٢١	توافق البدء مع الختام
٤٢٥	الخاتمة
٤٣٠	قائمة المصادر والمراجع
٤٤٦	الفهرس